

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



رسالة الثقلين

مجلة إسلامية جامعة

العدد التاسع والسبعون • السنة الحادية والعشرون • ١٤٤٠ هـ / ٢٠١٨ - ٢٠١٩ م

المراسلات والاتصالات باسم رئيس التحرير على العنوان التالي:

الجمهورية الإسلامية في إيران - قم. ص.ب: (٨٩٤ - ٣٧١٨٥)

هاتف: ٢١٣١١ (٠٠٩٨٢٥١) فاكس: ٢٩١٣١٠٠ (٠٠٩٨٢٥١)

موقعنا على الانترنت

WWW.ahl-ul-bayt.org

البريد الإلكتروني للمجلة: resalat.thaqalain@gmail.com



+ ٩٨٩٦٦١٧٨٦٤٨

محتويات العدد

□ كلمة التحرير

* فوضى المصطلحات والمفاهيم

رئيس التحرير ٤

□ عبق الولاية

* بيان الإمام الخامنئي (دام ظله) الموجّه للشباب
"الخطوة الثانية للثورة الإسلامية"

٧

* "الاستكبار" مفهومه وأهدافه، ومواجهته في فكر
الإمام الخامنئي (دام ظله)

الشيخ حسن الهادي ٣٠

□ نور الثقلين

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾

* مقاومة العدوان في فكر العلامة الشيخ محمد جواد
مغنية تَدْرُسُ من خلال تفسير الكاشف

الشيخ علي الجمال ٤٧

* النسخ المشروط والنسخ المتدرّج عند آية الله
معرفت رحمته الله - نقد ودراسة -

الشيخ إبراهيم حسن ٧٤

□ عين اليقين

* "التصميم العظيم" قراءة نقدية

الشيخ هاشم الضيقة ١٠١

- تهتم المجلة بالدراسات والتناجات الفكرية، التأصيلية للقرآن والعرة، والرد على الشبهات الواردة على الإسلام قرآنًا وسنة.
- تستقبل رسالة الثقلين نتاجات الباحثين والباحثات المشتملة على الشروط الآتية:
 - ◀ أن تكون خاضعة لضوابط البحث العلمي، وقواعد النشر العامة.
 - ◀ أن لا تكون قد نُشرت سابقاً.
 - ◀ أن لا تكون عملاً مكرراً، والأولوية دائماً للدراسات الفكرية الجادة، والتي لها علاقة بالثقلين.
 - ◀ أن لا تنقص عن عشرة صفحات، ولا تزيد على الثلاثين صفحة، بمعدل (٢٥٠) كلمة للصفحة الواحدة.
 - ◀ أن تصدر المقالة بخلاصة لأهم أفكارها.
- الآراء الواردة في ما يُنشر لا تعبر بالضرورة عن رأي المجمع أو المجلة.
- تسلسل الموضوعات المنشورة يخضع لاعتبارات فنية محضة.
- يحق لإدارة المجلة الاحتفاظ بالمقالات المرسلة لها في حال لم تنشر.



الجميع العالم بالنبوة

المشرف العام

الشيخ محمد حسن اختري

رئيس التحرير

الشيخ محمود سرائب

مدير التحرير

محمد كامل سليم

العدد التاسع والسبعون

السنة الثانية والعشرون

١٤٤٠هـ / ٢٠١٨ . ٢٠١٩ م

مطبعة: خاتم الأنبياء

□ الدراسات التربوية الأخلاقية

﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾

* مفهوم التربية القرآنية وموقعية المربي في
مسيرة الهداية

..... الأميرة نعمت حرفوش ١٣١

□ الدراسات الأخلاقية

* كبائر الذنوب

..... الشيخ سيف الدين العلوي ١٥٤

□ ليتفقهوا في الدين

* ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ بحث في التفسير
المقارن

..... الشيخ محمد باقر كجك ١٨٨

□ وعد السماء

* الأدلة العقلية والنقلية على ولادة الإمام
المهدي عليه السلام

..... الشيخ محمود سرائب ٢١٨

فوضى المصطلحات والمفاهيم

□ بقلم رئيس التحرير: الشيخ محمود سراناب

شهدت ساحتنا الإسلامية فوضى اصطلاحات استطاعت أن تحوّل الاستكبار إلى أنموذج يقتضى به، فألبست الظالم ثوب الضحية، وموّهت الحقائق الدينية وجعلتها أوهاماً، وشوّهت منهجية التفكير عند البعض النخب الثقافية في الأمة، ومزقت أواصر العلاقات الإنسانية، وشتت هرمية الأسرة، وضيقّت العائلة الحقيقية، ووسعت العائلة الافتراضية، وأوفدت إلينا جيشاً جراراً من المصطلحات الزاحفة من الثقافة الغربية، وزجتها في منظومتنا المفاهيمية مثل: العلمانية أو الديمقراطية، أو... فانظر كيف يجري خلط هذه المفاهيم وغيرها، والتي ولدت في الأساس لمعالجة وقائع اجتماعية محددة في الزمان وفي المكان، فما الذي يجعل -على سبيل المثال- العلمانية مفهوماً يناهض الدين -الإسلامي تحديداً- أو يدعو إلى إلغائه في بعض الأحيان، أو حصّره في زوايا ضيقة على أحسن الحالات، في حين أن أحد أسباب بروز العلمانية على الساحة الأوربية هو الفكر الكنسي المتناقض مع العلم، في حين أن الإسلام في كل تشريعاته لا يتناقض مع العلم أصلاً، بل هو دين العلم والحضارة الإنسانية.

ثم ما الذي يجعل من الديمقراطية، والتي هي بالأساس نظام سياسي اجتماعي غربي متكامل يتناسب مع نسقية تلك الشعوب، أداة وحيدة لإجراء الانتخابات، ثم يحاول بعضهم أسلمة هذه الفكرة وإلباسها لبوس الإسلام، ولا ندري كيف أمكن

لهؤلاء أن ينتخبوا جزءاً من نظام متكامل، في حين أن هذا النظام بأسره لا يتناسب مع الرؤية الإسلامية، هل هذا سببه سوء الترجمة فقط؟ أم سببه قصور فهم عند من لا يرى الإسلام نظاماً متكاملاً للحياة؟

وفي بعض الأحيان يحصل خلط متعمد في كثير من المفاهيم كالاتنيات والتي يخلط فيها بين الأعراق والمذاهب، كقولهم السنة والشيعية والأكراد؛ فما الذي جعل هذه المصنوفة صحيحة؟ ولماذا لم يتم التمييز بين المفاهيم الإثنية: عرب وأكراد، والمفاهيم الدينية: سنة وشيعية، هذا مع تحفظنا على كل اثنية تطرح في ظل التفرقة وشق الصف الواحد، لأن القاعدة التي أرساها القرآن الكريم في ظل التمايز هي التعارف والتآلف؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١). فقد شاءت إرادة الله تعالى، أن يكون البشر أمماً مختلفةً، وشعوباً متعددةً، ومع إقرار القرآن لهذا التنوع والاختلاف، ولكنه أراد تنوعاً يثري الحياة ويزيدها عطاءً وبناءً وتعارفًا وتآلفًا، ومن المعروف أيضاً أن الإسلام بكل تشريعاته يقف بشكل واضح أمام الأفكار التي تميز بين بني الإنسان تحت أي راية غير راية التقوى، ومن هنا كان للإسلام موقفاً واضحاً وصريحاً، تجاه العنصرية، فقد أقر الإسلام بوجود الاختلاف في طبيعة البشر، بل جعل تعدد صوره وأشكاله آيةً من آيات الله في خلق الكون؛ فقال الله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

وعاب الإسلام على أصحاب العصبيات البغيضة؛ وقد بينت الروايات الشريفة خطورة هذه الصفة الجاهلية؛ نذكر منها الآتي:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ تَعَصَّبَ أَوْ تَعَصَّبَ لَهُ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَ الْإِيمَانِ مِنْ عُنُقِهِ^(٣).

١ - سورة الحجرات، الآية ١٣.

٢ - سورة الروم، الآية ٢٢.

٣ - الكافي، ج ٢، باب العصبية، ح ٢، ص ٣٠٨.

وَقَالَ ﷺ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ حَبَّةٌ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ عَصِيَّةٍ بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ أَغْرَابِ الْجَاهِلِيَّةِ^(١).

وروي عن الزُّهريِّ قَالَ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام سُئِلَ عَنِ الْعَصِيَّةِ فَقَالَ الْعَصِيَّةُ الَّتِي يَأْتُمُ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا أَنْ يَرَى الرَّجُلُ شَرَّارَ قَوْمِهِ خَيْرًا مِنْ خِيَارِ قَوْمٍ آخَرِينَ وَلَيْسَ مِنَ الْعَصِيَّةِ أَنْ يُحِبَّ الرَّجُلُ قَوْمَهُ وَلَكِنْ مِنَ الْعَصِيَّةِ أَنْ يُعِينَ قَوْمَهُ عَلَى الظُّلْمِ^(٢). ومع كل هذا الوضوح في الرؤية نرى منظومات فكرية لجماعات متطرفة، مناقضة هذا الطرح الذي ينبذ كل تعصب ويدعو إلى الحوار والتعارف، وتدعو إلى تأصيل ثقافة السيف وإلى نفس كل إمكانية للتلاقي بين المسلمين فضلاً عن غيرهم، ويحاول الفكر التكفيري، إذا صح هذا التشبيه أن يقلب موقع الكافر في عبارة "الفكر" ويجعله "كفر"؛ فهؤلاء أصحاب كفر وتكفير، لا فكر وتفكير، وإن هذا المنهج الإقصائي للآخر نتج عن جملة من المفاهيم المغلوطة والمنسوبة إلى المنظومة الدينية زوراً وبهتاناً، وكان نتاج عصبية جاهلية لا تمت إلى سماحة الشريعة الإسلامية بصلة، وقد حاول هؤلاء تأصيل أفكارهم من خلال إرجاعها إلى نصوص محددة من الكتاب والسنة، فأنتج هذا الفكر فوضى أخرى أضيفت إلى فوضى الثقافة الغربية، فما هي الطريقة لحل الخلط والفوضى المفاهيمية التي تعصف بعقول نُخبنا، وشبابنا، و...؟ الحل واضح وجلي وهو بالرجوع إلى الثقلين قراناً وعترَةً؛ ولكن بمنهجية القرآن والعتره نفسيهما ...

هذه المجلة هي محاولة للتأصيل والتصحيح وذلك للتخفيف قدر الإمكان من هذه الفجوة الكبيرة في ثقافة الأمة الإسلامية والتي أحدثتها هذه الفوضى، فإذا أجلنا النظر في المقالات التي كُتبت في هذا العدد يتبين معنا مدى جدية تمسكنا بهذا المنهج القرآني الأصيل، نسأل الله تعالى أن نوفق في هذه المهمة التأصيلية، والتوعوية رجاء المساهمة في رص صفوف هذه الأمة المرحومة علناً نصل إلى أهدافنا المرجوة.

* * *

١- (م.ن)، ح ٣، ص ٣٠٨.

٢- (م.ن)، ح ٧، ص ٣٠٨-٣٠٩.



بيان الإمام الخامنّي الموجه للشباب "الخطوة الثانية للثورة الإسلامية"

بتاريخ: ٢٠١٩/٠٢/١٣

✽ ثورة الشعب الإيراني الإسلامية: أربعون عاماً من الأمجاد من دون خيانة لمبادئها.

✽ مسؤولية الشباب: البلوغ بالثورة هدفها النهائي بقيام حضارة إسلامية حديثة

المحاور الرئيسة

- الثورة الإسلامية بداية عصر جديد .
- "ثورية" و"نظام" من غير تضاد .
- معاصرة من غير تفريط بالأصالة .
- اقتدار مع تسامح وشجاعة مع حكمة .
- تقدم على جميع المستويات.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد وآله الطاهرين وصحبه المنتجبين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

من بين كلّ الشعوب الخاضعة للجور قلّما يعقد شعب عزيمته وهمته للقيام بثورة، ومن بين الشعوب التي ثارت ونهضت قلّما شوهّد شعبٌ استطاع أن يصل بالأُمور إلى خواتيمها ويحافظ على مبادئ الثورة بعد تغييره أنظمتها الحكم. بيد أنّ ثورة الشعب

الإيراني العظيمة وهي أكبر الثورات في العصر الحديث وأكثرها شعبية، هي الثورة الوحيدة التي أمضت أربعين عاماً زاخرة بالمفاخر والأمجاد من دون خيانة لمبادئها، وصانت كرامتها وأصالة شعاراتها في مقابل كل المغريات التي بدت وكأنها عصية على المقاومة، ودخلت الآن في المرحلة الثانية من البناء الذاتي وبناء المجتمع وصناعة الحضارة. فتحيّة من أعماق القلب لهذا الشعب، وللجيل الذي بدأ هذا المشوار وواصله، وللجيل الذي دخل الآن مرحلة عالميّة كبرى تتمثل بالأربعين عاماً الثانية من عمر الثورة.

الثورة الإسلامية بداية عصر جديد

يوم كان العالم مُقسماً بين المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي الماديّين، ولم يكن أحد يتصوّر وقوع نهضة دينيّة كبرى، نزلت الثورة الإسلامية الإيرانيّة إلى الساحة باقتدار وعظمة وحطمت الأطر التقليدية وأثبتت للعالم اهتراء الطروحات والصيغ الفكرية النمطيّة؛ وطرحت الدين والدنيا إلى جانب بعضهما البعض، وأعلنت عن بداية عصر جديد. وكان من الطبيعي أن يُبدي زعماء الضلال والجور ردّات فعل، غير أنّ ردّات الفعل هذه كُتبت لها الإخفاق. وعلى الرغم من كلّ ما قام به اليسار واليمين الحداثويّان من التظاهر بعدم سماع هذا الصوت الجديد والمختلف، إلى السعي الواسع والمتنوع لإخماده، إلا أنّهما اقتربا من أجلهما المحتوم. والآن بعد مرور أربعين احتفاليّة سنويّة للثورة وأربعين من "عشرة الفجر"، زال أحد قطبي العداء المذكورين، وراح الآخر يتخبّط في مشاكل تتمّ عن قرب احتضاره! أما الثورة الإسلاميّة فلا تزال تواصل تقدمها إلى الأمام محافظةً على شعاراتها والالتزام بها.

أ — شعاراتها الدينية خالدة على مدى العصور

يُمكن افتراض مدّة زمنيّة معيّنة وتاريخ انتهاء صلاحية لكلّ شيء، إلا أنّ الشعارات العالمية لهذه الثورة الدينية مستثناة من هذه القاعدة، فهي لن تكون عديمة التأثير

والفائدة أبدأ، لأنها متجذرة في فطرة الإنسان في جميع العصور. فالحرية والأخلاق والمعنوية والعدالة والاستقلال والعزة والعقلانية والإخوة لا يختص أيّ منها بجيل أو مجتمع دون غيره، حتى يتألق ويزدهر في حقبة ويأفل في أخرى. لا يمكن أبدأً تصوّر شعب يعرض عن هذه الآفاق المباركة. ومتى ما حصلت حالة إعراض أو تبرّم كان السبب إعراض المسؤولين عن هذه القيم الدنيّة وليس الالتزام بها والسعي لتحقيقها وتطبيقها.

ب - "الثورة" و"النظام" يتكاملان في ظل قيمها الإسلامية

والثورة الإسلامية بوصفها ظاهرة حيّة وذات إرادة، هي دوماً مرنة ومستعدة لتصحيح أخطائها لكنّها لا تتقبل الاستئناف وليست منفعة. إنّها تُبدي الحساسية الإيجابية حيال النقد وتعدّه نعمة من الله وتحذيراً لأصحاب القول من دون عمل، لكنها لا تبتعد أبدأً وتحت أيّ ذريعة عن قيمها المتمزجة - والحمد لله - بالإيمان الدينيّ للناس. والثورة الإسلامية بعد تشكيلها للنظام لم ولن تُصاب بالركود والخمول والانطفاء، ولن تشهد تضاداً أو عدم انسجام بين الغليان الثوري والنظام السياسي والاجتماعي، بل ستبقى تدافع إلى الأبد عن نظرية النظام الثوري.

ج - معاصرة من غير تفريط بالأصالة

ليست الجمهورية الإسلامية متحرّجة وعديمة الإحساس والإدراك مقابل الظواهر والظروف المتجدّدة، لكنّها ملتزمة أشدّ الالتزام بأصولها ومبادئها، وتحسّس بشدّة لحدودها الفاصلة بينها وبين منافسيها وأعدائها. وهي لا تهمل أبدأً طروحاتها الأساسية، ومن المهمّ بالنسبة لها أن تبقى وكيف تبقى. ولا شكّ في أن الفجوة بين ما ينبغي وما هو واقع، قد عذّبت ولا تزال تعذب الضمائر المنادية بـ[تحقيق] المبادئ، بيد أنّ هذه الفجوة يمكن طيها وتجاوزها، وقد تمّ طيها في بعض الحالات طوال الأعوام الأربعين

الماضية، ولا شك أنها ستطوى بقوة أكبر، بفضل حضور الجيل المؤمن المتدين العالم المتحفر.

د - اقتدار مع تسامح؛ وشجاعة من دون انفعال

لقد كانت ثورة الشعب الإيراني الإسلامية ثورة قوية، لكنها عطوفة ومتسامحة بل مظلومة أيضاً. ولم ترتكب أعمالاً متطرفة وانحرافية سببت العار لكثير من النهضات والحركات. ولم تطلق الرصاص الأولى في أي معركة حتى مع أمريكا وصدّام، وعملت في كل الحالات على الدفاع عن نفسها بعد هجوم العدو عليها، وبالطبع فقد سدّدت الضربات في ردودها بقوة. ولم تكن هذه الثورة منذ بداياتها وإلى يومنا هذا عديمة الرحمة ولا سفاكة للدماء، وفي الوقت عينه لم تكن منفعة ولا مترددة. [بل] وقفت علانية وبشجاعة مقابل العتاة والمستكبرين ودافعت عن المظلومين والمستضعفين. هذه المروءة والشهامة الثورية، وهذا الصدق والصراحة والاقتدار، وهذا النطاق [الواسع] من العمل العالمي والإقليمي إلى جوار مظلومي العالم، هو مصدر عزّة وفخر لإيران والإيرانيين، وسيبقى كذلك إلى الأبد.

خطاب إلى الشباب

والآن ونحن على أعتاب فصل جديد من حياة الجمهورية الإسلامية، أرغب أن أتحدث إلى شبابنا الأعزاء، الجيل الذي نزل ميدان العمل من أجل أن يبدأ جانباً آخر من الجهاد الكبير لبناء إيران الإسلامية الكبرى. كلامي الأول حول الماضي.

مسؤوليتكم؛ البلوغ بالثورة هدفها النهائي بقيام حضارة إسلامية حديثة

أعزائي، لا يمكن معرفة المجهول إلا عن طريق التجربة أو الإصغاء لتجارب الآخرين. الكثير مما شهدناه وجربناه لم يُجرب به جيلكم بعد ولم يشهده. لقد شهدنا [بدورنا] وسوف تشهدون. إنّ السنوات والعقود المقبلة هي عقودكم، وأنتم من يجب أن تحموا ثورتكم بخبراتكم واندفاعكم وتقرّبوها مهما أمكن من هدفها الكبير ألا

وهو إيجاد الحضارة الإسلامية الحديثة والاستعداد لبزوغ شمس الولي الأعظم (أرواحنا فداء).

أ - ضرورة معرفة الماضي من أجل التقدم بثبات نحو المستقبل

ولكي نخطو خطوات راسخة في المستقبل، علينا معرفة الماضي بشكل صحيح واستلهم الدروس والعبر من التجارب. وإذا ما غفلنا عن هذه الاستراتيجية فستحلّ الأكاذيب محل الحقيقة، وسيعرّض المستقبل لتهديدات مجهولة. إنّ أعداء الثورة يعملون، وبدوافع قويّة، على تحريف الماضي وحتى الحاضر ونشر الأكاذيب، ويسخّرون في سبيل ذلك الأموال ويستفيدون من كل الأدوات والوسائل. وقطّاع طرق الفكر والعقيدة والوعي كثر، ولا يمكن سماع الحقيقة من العدو وجنوده.

١- الثورة ونظامها انطلاقاً من نقطة الصفر

لقد انطلقت الثورة الإسلامية والنظام المنبثق عنها من نقطة الصفر.

أولاً، كان كلّ شيءٍ ضدّنا: سواء نظام الطاغوت الفاسد الذي كان بالإضافة إلى تبعيته وفساده واستبداده وكونه نظاماً إنقلابياً، أوّل نظام ملكي يتولّى الحكم في إيران على يد الأجانب - وليس بقوّته - أو الحكومة الأمريكية وبعض الحكومات الغربيّة الأخرى، أم الوضع الداخلي المتأزم بشدّة، والتأخّر المخجل على صعيد العلم والتقنيّة والسياسة والمعنوية وكلّ الفضائل الأخرى.

٢- بدأنا مشروعنا من دون نماذج وتجارب سابقة

ثانياً: لم يكن أمامنا أيّ تجربة سابقة ونموذج يُحتذى، ومن البديهي أنّ الثورات الماركسيّة وأمثالها لا يمكن عدّها نموذجاً لثورة انبثقت من صلب الإيمان والمعرفة الإسلامية. لقد بدأ الثوّار الإسلاميون مشروعهم من دون نماذج وتجارب، ولم تتأتّ التركيبة بين الجمهورية والإسلاميّة، وأدوات تشكّلها وتطوّرّها إلا بالهداية الإلهيّة وبفضل القلب النّير والفكر العظيم للإمام الخميني. وكانت هذه أوّل تألّقات الثورة.

٣- هلع المستكبرين منها جمعهم في جبهة واحدة ضدها

عندها، بدلت ثورة الشعب الإيراني العالم ثنائي القطب يومذاك إلى عالمٍ ثلاثيٍّ الأقطاب، ثم بسقوط الاتحاد السوفياتي والدول التابعة له، وظهور أقطابٍ قوّةٍ جديدة، أضحى التقابل الثنائي الجديد بين الإسلام والاستكبار الظاهرة البارزة في العالم المعاصر ومحطّ اهتمام شعوب العالم. فمن ناحية، تسمّرت عليها الأنظار الآملة للشعوب الرازحة تحت نير الظلم، والتيارات المطالبة بالتحرّر في العالم وبعض الحكومات النائقة للاستقلال، ومن ناحية أخرى تركّزت عليها الأنظار الحاقدة والمغرضة للأنظمة التعسفية والعتاة المبتزين في العالم. وهكذا تغيّر مسار العالم وقضّ زلزال الثورة على الفراغنة مضاجعهم، فابتدأت العداوات الشديدة، ولولا قوة الإيمان العظيمة ودوافع هذا الشعب والقيادة الرّبانيّة والمؤيدة للإمام الخميني العظيم لما أمكن المقاومة حيال كلّ هذه العداوة والظلم والمؤامرات والشرّ.

٤- بالرغم من مشاكل الاستنزاف تقدمت بخطوات راسخة

وعلى الرغم من كلّ هذه المشاكل الاستنزافية قطعت الجمهورية الإسلامية يوماً بعد يوم خطوات أوسع وأكثر ثباتاً نحو الأمام. وقد شهدت هذه الأعوام الأربعون أنواع الجهاد الأكبر والمفاخر المتألّقة والتقدم المذهل في إيران الإسلامية. ويمكن استبيان عظمة التقدّم الذي حققه الشعب الإيراني في هذه الأعوام الأربعين بصورة جيّدة، عند مقارنة هذه الحقبة بالأحقاب المشابهة لها في ثورات كبرى من قبيل الثورة الفرنسية وثورة أكتوبر السوفيتية وثورة الهند. لقد أوصلت الإدارة الجهادية المستلهمة من الإيمان الإسلامي والإيمان بمبدأ «نحن قادرون»، الذي علّمه الإمام الخميني الجليل لنا جميعاً، إيران إلى العزّة والتقدّم على جميع الأصعدة .

٥- بدلت النظام الاستبدادي بآخر شعبيّ يستند إلى إرادة الناس

لقد أنهت الثورة مرحلة من الإنحطاط المزمّن، وبدأت البلاد، التي تعرّضت خلال العهدين البهلوي والقاجاري لأشد درجات الهوان والتخلّف، تسير في طريق التقدّم السريع. ففي الخطوة الأولى بدلت الثورة النظام الملكي الاستبدادي المخزي إلى حكمٍ شعبيّ وسيادة شعبية، وأدخلت عنصر الإرادة الوطنية الذي يمثل روح التقدّم الشامل والحقيقيّ، في صلب إدارة البلاد، ثم جعلت الشباب اللاعبين الأصليين في الأحداث وأدخلتهم في ميدان الإدارة، ونقلت روحية «نحن قادرون» إلى الجميع، وبفضل الحظر الذي فرضه الأعداء علّمت الجميع الاعتماد على القدرات الذاتية، فكان هذا مصدر خيرات وبركات كثيرة:

أولاً: ضمنت استقرار البلاد وأمنها ووحدتها وأراضيها وصيانة حدودها التي تعرّضت لتهديدات جادة من قبل الأعداء، واجترحت معجزة الانتصار في حرب الأعوام الثمانية وهزيمة النظام البعثي وحماة الأمريكيين والأوروبيين والشرقيين.

ثانياً: أضحت الدينامو المحرك للبلاد في ميادين العلم والتقانة، وإيجاد البنى التحتية الحيوية والاقتصادية والعمرانية، التي لا تزال إلى الآن ثمارها اليانعة تزداد وتضاعف يوماً بعد آخر. فآلاف الشركات علمية المحور، وآلاف المشاريع الخاصة بالبنى التحتية والضرورية للبلاد في مجالات العمران والنقل والمواصلات والصناعة والطاقة والمعادن والصحة والزراعة والمياه وغير ذلك، وملايين الخريجين الجامعيين أو الطلاب الحاليين، وآلاف الوحدات الجامعية في شتى أرجاء البلاد، وعشرات المشاريع الكبرى من قبيل دورة الوقود النووي، والخلايا الجذعية، وتقنيات النانو، وتقنيات الأحياء، وغيرها، ويرتب أولى على مستوى العالم كلّها، وازدياد الصادرات غير النفطية إلى ستين ضعفاً، وزيادة الوحدات الصناعية إلى ما يقارب العشرة أضعاف، وتحسّن جودة الصناعات عشرات الأضعاف، وتبديل الصناعات التجميعية إلى تقنيات محلية، والتميّز الملحوظ في الحقول الهندسية المتنوعة بما في ذلك الصناعات الدفاعية، والتألق في الفروع الطبية المهمة والحساسة واكتساب موقع مرجعيّ فيها،

وعشرات النماذج الأخرى من التقدم، كانت كلّها حصيلة تلك الروح وتلك المشاركة وذلك الشعور العام الذي حقّقه الثورة للبلاد. لقد كانت إيران قبل الثورة في درجة الصفر من حيث إنتاج العلم والتّقانة، ولم يكن لها في الصناعة من ميزة سوى التجميع والموتاج وفي العلوم سوى الترجمة.

ثالثاً: أوصلت المشاركة الشعبيّة في القضايا السياسيّة، من قبيل الانتخابات ومواجهة الفتن الداخليّة والمشاركة في المواقف والمراحل الوطنيّة ومقارعة الاستكبار إلى الدّروّة، وزادت بنحو ملحوظ، الأنشطة الاجتماعيّة من قبيل المساعدات والنشاطات الخيرية التي كانت قد انطلقت منذ ما قبل الثورة. وبعد الثورة صار الناس يشاركون بشوق فيما يشبه السباق لتقديم الخدمات في الحوادث الطبيّة والنواقص الاجتماعيّة.

رابعاً: ارتقت الثورة بمستوى التفكير السياسي لأبناء الشعب ونظرتهم للقضايا الدوليّة بنحو مذهل. وأخرجت عمليات التحليل السياسي وفهم القضايا الدولية في موضوعات من قبيل، جرائم الغرب وخصوصاً أميركا، وقضية فلسطين والظلم التاريخي الذي حلّ بشعبها، وقضية إشعال القوى المستكبرة للحروب وممارساتها الخبيثة وتدخلاتها في شؤون الشعوب وما إلى ذلك، أخرجتها من كونها محصورة بشريحة محدودة ومعزولة تُعرف بالمستعربين، فانتشرت مثل هذه الاستنارة بين عموم الشعب وفي كلّ البلاد وعلى مستويات الحياة كافّة، وأضحت مثل هذه القضايا واضحة ممكنة الفهم حتّى للأحداث واليافعين.

خامساً: رجّحت كفّة العدالة في توزيع خيرات البلاد العامة. وعدم رضاي عن فاعلية العدالة في البلاد، لكون هذه القيمة السامية (العدالة) يجب أن تتألق كجوهرة فريدة على جبين نظام الجمهوريّة الإسلاميّة، وهو ما لم يحصل بعد، ينبغي أن لا يُفهم منه عدم حصول شيء من أجل تكريس العدالة. والواقع أن حصيلة الكفاح ضدّ اللادعالة خلال هذه العقود الأربعة لا يمكن مقارنتها بأيّ حقبة أخرى في الماضي.

ففي نظام الطاغوت كانت أكثر الخدمات ومداخيل البلاد تختص بفئة صغيرة من سكان العاصمة أو أمثالهم في مناطق أخرى من البلاد. وكان أهالي معظم المدن وخصوصاً المناطق النائية والقرى والأرياف في نهاية القائمة وغالباً ما كانوا محرومين من احتياجاتهم الأولية والأساسية والخدمية. وتعدّ الجمهورية الإسلامية من أنجح الحكومات والدول في العالم في نقل الخدمات والثروة من المركز إلى كل أنحاء البلاد، ومن مناطق المرفهين في المدن إلى مناطق المحرومين. وإن الإحصائيات والأرقام الكبرى لمدى الطرق وبناء البيوت وتشيد المراكز الصناعية وإصلاح الشؤون الزراعية وإيصال الكهرباء والماء وإنشاء المراكز العلاجية والوحدات الجامعية وبناء السدود ومحطات الطاقة الكهربائية وما إلى ذلك، في أقصى مناطق البلاد لهي أرقام تبعث على الفخر والاعتزاز حقاً؛ ولا شك أن كل هذا لم ينعكس في الإعلام الناقص للمسؤولين، ولم تعترف به السنة الخصوم الخارجيين والداخلين، إلا أنه واقع قائم وموجود وهو حسنة للمدراء الجهاديين المخلصين عند الله وعند الناس. وبالطبع، فإن العدالة المتوقعة في الجمهورية الإسلامية التي ترغب في أن تعرف باتباعها للحكومة العلوية، هي أكثر من هذا بكثير، وأعين الأمل في تحقيقها مسمرة عليكم أيها الشباب، وهو ما سوف أطرّق له في تتمة حديثي.

سادساً: رفعت من مستوى المعنوية والأخلاق في أجواء المجتمع العامة بشكل ملحوظ. وسلوك الإمام الخميني وسيرته طوال فترة الكفاح وبعد انتصار الثورة كان له السهم الأوفر في إشاعة هذه الظاهرة المباركة. لقد تولى ذلك الإنسان المعنوي العارف الورع المنزه عن زخارف الحياة والمظاهر المادية رئاسة بلاد، أرصده إيمان شعبها ذات جذور عميقة للغاية. ومع أن يد التطاول للإعلام المروج للفساد والتحلل طوال العهد البهلوي قد وجهت لهذه الأرصدة ضربات شديدة، وجلبت مستنقعا من الأدران الأخلاقية الغربية إلى داخل حياة الطبقة المتوسطة وخصوصاً الشباب، إلا أن التوجه الديني والأخلاقي في الجمهورية الإسلامية اجتذب القلوب الموهوبة

والنورانية، ولا سيما الشباب، فتغيرت الأجواء لصالح الدين والأخلاق. وقد ترافق جهاد الشباب في الميادين الصعبة بما في ذلك ساحة الدفاع المقدس مع ذكر الله والدعاء وروح الإخوة والإيثار، وأحى أحداث صدر الإسلام ووضعها نصب أعين الجميع. وقد ضحّى الآباء والأمهات والزوجات بفعل شعورهم بالواجب الديني بأحبائهم الذين سارعوا إلى جبهات الجهاد المتنوعة، وبعد ذلك عندما واجهوا جثائهم الدامية أو أجسادهم الجريحة أرفقوا المصيبة بالشكر. وعمرت المساجد وسادت الأجواء الدينية بشكل غير مسبوق. وامتألت طواير الاعتكاف بآلاف الشباب والأساتذة والطلبة الجامعيين والنساء والرجال، كما امتألت طواير المخيمات الجهادية وجهاد البناء وتعبئة البناء بآلاف الشباب المتطوعين المضحين. وازدادت الأعمال العبادية من الصلاة والحج والصيام والمشي للزيارة والمراسم الدينية المختلفة والإنفاقات والصدقات الواجبة والمستحبة في كل مكان وخصوصاً بين الشباب، وهي إلى اليوم في ازدياد وازدهار مطرد من حيث العدد والنوعية. وقد حدث هذا كله في زمن تسبّب فيه الانحطاط الأخلاقي المتزايد للغرب وأتباعه، ودعاياتهم الهائلة لجرّ الرجال والنساء إلى مستنقعات الفساد، بانعزال الأخلاق والمعنوية في مناطق كثيرة من العالم، فكانت هذه معجزة أخرى للثورة ونظامها الإسلامي الفعّال والريادي.

سابعاً: برز أكثر ويوماً بعد يوم، رمز الصمود العظيم والمجيد والمهيب بوجه العتاة والمستبدين والمستكبرين في العالم وعلى رأسهم أمريكا الناهبة المجرمة. فطوال هذه الأعوام الأربعين كان عدم الاستسلام وحراسة الثورة وعظمتها وهيبته الإلهية ورأسها الشامخ المرفوع مقابل الحكومات المتكبرة والمستكبرة، كان دوماً سمة معروفة لإيران والإيرانيين وخصوصاً شباب هذا البلد. وقد اعترفت القوى الاحتكارية في العالم، والتي وجدت حياتها دوماً في التطاول على استقلال باقي البلدان وسحق مصالحها الحيوية لأجل أهدافها المشؤومة، اعترفت هذه القوى بعجزها مقابل إيران الإسلامية الثورية. واستطاع شعب إيران في أجواء الثورة المحيية أولاً طرد

عميل أمريكا والعنصر الخائن للشعب من البلاد، وبعد ذلك وإلى اليوم حال بكل قوة واقتدار دون عودة هيمنة القوى العالمية على البلاد.

أيها الشباب الأعزاء، هذا جزء بسيط من العناوين الأساسية لماضي الثورة الإسلامية الممتد على مدى أربعين عاماً، الثورة العظيمة الراسخة المتألقة التي ينبغي عليكم بتوفيق الله أن تخطوا الخطوة الواسعة الثانية للتقدم بها.

ب - حصيلة جهود أربعين عاماً هي أمامكم

وها هي حصيلة جهود أربعين عاماً أمام أنظاركم الآن، بلد وشعب مستقل، حر، مقتدر، عزيز، متدين، متقدم في العلوم، صاحب تجارب مهمة، واثق ومتفائل، له تأثيره الأساسي في المنطقة وصاحب منطق متين في القضايا العالمية وصاحب الرقم القياسي في سرعة التقدم العلمي، صاحب رقم قياسي في الوصول إلى المراتب العليا؛ في العلوم والتقنيات المهمة من قبيل الطاقة النووية والخلايا الجذعية والنانو والفضاء والطيران وغير ذلك، مميّز في نشر الخدمات الاجتماعية، ممتاز في الدوافع الجهادية بين شبابه، بارز في نسبة شبابه المؤهلين الكفوئين، والكثير من الخصوصيات الأخرى الباعثة على الفخر، وهذه كلّها من ثمار الثورة ونتيجة التوجهات الثورية والجهادية. واعلموا أنّه لو لم تحصل هذه اللامبالاة تجاه الشعارات الثورية والغفلة عن السياق الثوري في بعض المراحل من تاريخ الأربعين عاماً هذه - وهو ما حصل للأسف وتسبب في بعض الخسائر - لكانت مكسبات الثورة أكثر من هذا بكثير، ولكان البلد متقدماً بأشواط في طريق الوصول إلى المبادئ الكبرى، ولما كانت الكثير من المشكلات موجودة اليوم.

ج - طبيعة التحديات القائمة بوجه بلدكم

تواجه إيران المقتدرة اليوم أيضاً كما في بداية الثورة تحديات يخلقها لها المستكبرون، لكن بفارق ذى مغزى كبير. إذا كان تحدّي أمريكا يومذاك يتمثل بكفّ أيدي عملاء الأجانب أو إغلاق سفارة الكيان الصهيوني في طهران أو فضح وكر

التجسس، فالتحدّي اليوم سببه وجود إيران المقتدرة على حدود الكيان الصهيوني، وإنهاء النفوذ غير الشرعي لأمريكا في منطقة غرب آسيا، ودعم الجمهورية الإسلامية لكفاح المجاهدين الفلسطينيين داخل الأراضي المحتلة والدفاع عن الراية الخفاقة لحزب الله والمقاومة في كلّ هذه المنطقة. وإذا كانت مشكلة الغرب في تلك المرحلة، الحيلولة دون شراء إيران أسلحة بدائية، فإنّ مشكلته اليوم الحؤول دون نقل الأسلحة الإيرانية المتطورة لقوات المقاومة. وإذا كانت أمريكا حينها تظنّ أنها بعدد من الإيرانيين البائعين لذممهم وبعده طائرات ومروحيات تستطيع التغلب على النظام الإسلامي والشعب الإيراني، فإنّها اليوم تجد نفسها في مواجهة الجمهورية الإسلامية سياسياً وأمنياً، بحاجة إلى تحالف كبير من عشرات الحكومات المعاندة أو المرعوبة، وبالطبع، سوف تنهزم في المواجهة مع ذلك.

د - مسار بلدكم المجيد يتوقف استكمالاً على جهادكم وثورتكم

إن إيران بفضل الثورة، تقف الآن في مكانة شامخة ولائقة بالشعب الإيراني في أنظار العالم، وقد تجاوزت الكثير من المنعطفات الصعبة في قضاياها الأساسية . بيد أن الطريق الذي طوي وتمّ قطعه سابقاً ليس إلا جزءاً من المسار المجيد نحو المبادئ السامية لنظام الجمهورية الإسلامية. أمّا تتمّة هذا المسار والذي لن يكون على أغلب الظن بصعوبة الماضي، فيجب أن يسار ويطوى بهممكم ويقظتكم وسرعة مبادرتكم أيها الشباب. وعلى المدراء الشباب، والمسؤولون الشباب، والمفكّرون الشباب، والناشطون الشباب في كلّ الساحات السياسية والاقتصادية والثقافية والدولية، وكذلك في مجالات الدين والأخلاق والمعنوية والعدالة، أن يتحملوا المسؤولية ويستفيدوا من تجارب الماضي وعبره ودروسه، ويعتمدوا النظرة الثورية والروح الثورية والعمل الجهادي، ويجعلوا من إيران العزيزة نموذجاً تاماً للنظام الإسلامي المتقدم.

١- بلدكم يخزن طاقات هائلة استثمارها يحقق تقدماً نوعياً

النقطة المهمة التي ينبغي على صناع المستقبل أن يأخذوها بعين النظر هي أنهم يعيشون في بلد نادر من حيث الإمكانيات والطاقات الطبيعية والبشرية، والكثير من هذه الإمكانيات بقيت غير مستفاد منها أو قلما استفيد منها بسبب غفلة القيمين والمسؤولين. وستستطيع الهمم العالية ودوافع الشباب الثورية أن تفعل هذه الإمكانيات، وتحقق قفزة [نوعيّة] - بالمعنى الحقيقي للكلمة - من حيث التقدم المادي والمعنوي للبلاد.

٢- ثروة بشرية لا تقاس بأية ثروة مادية

إنّ الطاقة الأهمّ والباعثة على الأمل في البلاد، هي الطاقات الإنسانية الموهوبة والكفوءة التي تتحلّى ببنية تحتية إيمانية ودينية عميقة وأصيلة. فنسبة الشباب دون سنّ الأربعين بين سكان إيران، والتي كان الجزء الأكبر منها نتيجة المدّ السكانيّ الذي عمّ البلاد في الستينيات [الثمانينيات من القرن العشرين للميلاد] تعدّ فرصة قيمة للبلاد. ٣٦ مليون نسمة تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ٤٠ عاماً، وقراءة ١٤ مليون نسمة يحملون شهادات دراسات عليا، والمرتبة الثانية عالمياً في خريجي العلوم والهندسة، وحشود الشباب الذين نشأوا على الروح الثورية وهم مستعدون لبذل المساعي الجهادية في سبيل البلاد، والعدد الملحوظ من الشباب الباحثين المحقّقين والمفكرين العاملين في مجال الإبداع العلمي والثقافي والصناعي وغيره، هذه كلّها ثروات عظيمة للبلاد لا يمكن مقايستها بأيّ ثروة ماديّة.

٣- طاقات مادية منوّعة ووفيرة

وما عدا ذلك، تشكّل الفرص والطاقات المادية في البلاد قائمة طويلة، يمكن للمدراء الكفوئين المتحفزين العقلاء من خلال تفعيلها واستثمارها زيادة المداخل الوطنية بشكل ملحوظ، وجعل البلد ثرياً غير محتاج، ومعتمداً على نفسه بالمعنى

الحقيقي للكلمة، ومعالجة المشكلات الراهنة. وإيران بتوفرها على واحد بالمائة من سكان العالم تمتلك سبعة بالمائة من احتياطي المعادن في العالم: فالمصادر الجوفية الهائلة، والموقع الجغرافي الاستثنائي بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، الأسواق الوطنية الكبيرة، والأسواق الإقليمية الكبيرة، مضافاً إلى مجاورة ١٥ بلداً تحوي ٦٠٠ مليون نسمة، والسواحل البحرية الطويلة، والأراضي الخصبة الصالحة للزراعة بمحاصيل زراعية متنوعة، والاقتصاد الكبير والمتنوع، هي جزء من إمكانيات البلاد، والكثير من هذه الإمكانيات لا تزال غير مستثمرة. ويقال إن إيران هي الأولى عالمياً من حيث الإمكانيات الطبيعية والبشرية غير المستثمرة. ولا شك أنكم أيها الشباب المتدينّين الدؤوب ستستطيعون معالجة هذا النقص الكبير. والعقد الثاني من الخطة العشرينية ينبغي أن يكون زمن التركيز على الاستفادة من الإنجازات السابقة وتفعيل الإمكانيات والطاقات غير المستثمرة، كما ينبغي للبلاد أن تتقدم في مجالات منها قطاع الإنتاج والاقتصاد الوطني.

هـ - توصيات بخصوص جملة من العناوين الأساسية

والآن أقدم لكم يا أبنائي الأعزاء بعض التوصيات بخصوص جملة من العناوين الأساسية. وهذه العناوين هي: العلوم والبحث العلمي، المعنوية والأخلاق، الاقتصاد، العدالة ومكافحة الفساد، الاستقلال والحرية، العزة الوطنية، العلاقات الخارجية تحديد الأطر والحدود مع العدو، ونمط الحياة .

* الأمل والنظرة المتفائلة للمستقبل مفتاح كل الأفعال

لكن قبل كل شيء، توصيتي الأولى هي الأمل والنظرة المتفائلة للمستقبل، إذ لا يمكن خطو أي خطوة من دون هذا المفتاح الأساسي الفاتح لكل الأفعال. وما أنكلّم عنه هو الأمل الصادق المعتمد على الوقائع الخارجيّة. فلطالما ابتعدت عن الأمل

الكاذب الخادع، ولكنني حذرت وأحذر نفسي والجميع في الوقت عينه من اليأس في غير محله ومن الخوف الكاذب. لقد كانت السياسة الإعلامية للعدو طوال هذه الأعوام الأربعين - والآن أيضاً كما هي دوماً - وأبرز برامجها وأنشطتها منصبة على تئيس شعبنا، وحتى مسؤولينا ومدرائنا، من المستقبل. ولقد كانت الخطط الدائمة لآلاف الوسائل الإعلامية المسموعة والمرئية والإنترنتية المعادية للشعب الإيراني تعتمد الأخبار الكاذبة، والتحليلات المغرضة، وقلب الوقائع والحقائق، وإخفاء المظاهر الباعثة على الأمل، وتضخيم العيوب الصغيرة وتصغير أو إنكار الإيجابيات الكبيرة. وبالطبع، يمكن مشاهدة أذناهم وأتباعهم في داخل البلاد ممن يعملون على خدمة العدو مستغلين الحريات المتاحة. عليكم أنتم الشباب أن تكونوا رواداً في كسر هذا الحصار الإعلامي، فتموا في نفوسكم وفي نفوس الآخرين غرسات الأمل بالمستقبل، وانبلوا من نفوسكم ونفوس الآخرين الخوف واليأس. هذا جهادكم الأول والأهم. ومؤشرات الأمل - التي تمت الإشارة إلى بعضها - نصب أعينكم، وحالات النماء في الثورة أكثر بكثير من حالات السقوط، والأيدي والقلوب الأمانة الخدومة أكثر بكثير من المفسدين والخونة والناهيين. والعالم ينظر بعين الإجلال والاحترام للشباب الإيراني والصمود الإيراني والإبداعات الإيرانية في كثير من المجالات. فاعرفوا قدر أنفسكم وجدوا السير نحو المستقبل، بقوة الله، واصنعوا الملاحم.

أما التوصيات:

١- العلم والبحث العلمي: العلم هو الوسيلة الأبرز لعزة بلد ما وقوته. فالوجه الآخر للعلم هو القدرة. وقد استطاع العالم الغربي بفضل علومه تحقيق الثروة والنفوذ والقوة لنفسه طوال مائتي عام، ورغم فقره من حيث الأسس الأخلاقية والعقائدية،

استطاع بفرضه أسلوب الحياة الغربي على المجتمعات المتأخرة عن قافلة العلم، الإمساك بزمام سياساتها واقتصادها. إننا لا نوصي باستغلال العلم كما فعل الغرب، إلا أننا نؤكد، وبنحو قاطع، على حاجة البلاد لتدفق ينابيع العلم بين ظهرانيها. والحمد لله أن المواهب العلمية والبحثية لدى شعبنا أعلى من المتوسط العالمي. فقد بدأت النهضة العلمية في بلدنا منذ ما يقارب العقدين من الزمن، وتقدمت بسرعة كانت مفاجئة للمراقبين العالميين، وهي سرعة تزيد بأحد عشر ضعفاً على متوسط النمو العلمي في العالم. إن مكتسباتنا العلمية والتقنية خلال هذه المدة، والتي رفعتنا إلى المرتبة السادسة عشرة بين أكثر من مائتي بلد في العالم، وأذهلت المراقبين العالميين وارتقت بنا في بعض الحقول الحساسة والجديدة إلى المراتب الأولى، كلّها حصلت عندما كان البلد يتعرض لحظر مالي وعلمي. ولقد سجلنا أرقاماً قياسية كبيرة على الرغم من سباحتنا عكس التيار الذي صنعه العدو، وهذه نعمة كبيرة يجب أن نشكر الله عليها ليل نهار.

إلا أن ما أريد قوله هو أن هذا الطريق الذي طوي ما هو على أهميته سوى بداية ليس أكثر. إننا لا نزال متأخرين جداً عن قمم العلم في العالم، ويجب أن نصل إلى القمم. يجب أن نتخطى الحدود الراهنة للعلم في أهم الحقول والفروع. إننا لا نزال متأخرين عن هذه المرحلة كثيراً. لقد بدأنا من الصفر. وإن التأخر العلمي المخجل في العهدين البهلوي والقاجاري عندما كان السباق العلمي في العالم قد انطلق لتوّه، وجه لنا ضربة قوية وأبقانا متأخرين فراسخ عن هذه القافلة المسرعة. لقد بدأنا الحركة والمسيرة الآن ونحن نتقدم فيها بسرعة، غير أن هذه السرعة يجب أن تستمر على شدتها لسنين طويلة للتعويض عن ذلك التأخر. ولطالما نبهت وحذرت ودعوت بحرارة وحسم وجدّ، الجامعات والجامعيين ومراكز البحث العلمي والباحثين في هذا الخصوص، إلا أن مطالبتي العامة منكم أيها الشباب الآن هي تسيروا في هذا الدرب بمزيد من الشعور بالمسؤولية و[تعدّونه] كعمل جهادي. لقد تم وضع الحجر الأساس لثورة علمية في البلاد وقدّمت هذه الثورة شهداء من قبيل شهداء الطاقة النووية.

فانهضوا وأفرضوا الفشل والإخفاق على العدو الحاقد الذي يضمركم السوء ويخاف من جهادكم العلمي أشد الخوف.

٢- المعنوية والأخلاق: المعنوية بمعنى تكريس القيم المعنوية من قبيل: الإخلاص والإيثار والتوكل والإيمان بالذات وبالمجتمع. والأخلاق بمعنى مراعاة فضائل من قبيل حب الخير والتسامح ومساعدة المحتاجين والصدق والشجاعة والتواضع والثقة بالنفس وسائر الأخلاق الحسنة. فالمعنوية والأخلاق هي الموجهة لكل الحركات والنشاطات الفردية والاجتماعية وهي حاجة أساسية للمجتمع، ووجودها يجعل من أجواء الحياة جنة حتى مع وجود النواقص المادية، وعدم وجودها يجعل الحياة جحيماً حتى مع التمتع بالمكانيات المادية.

كلما نما الشعور المعنوي والضمير الأخلاقي في المجتمع أكثر، أثمر خيارات وبركات أكثر. ولا شك أن هذا بحاجة إلى جهاد وسعي، وهذا الجهاد والسعي لن يكتب له النجاح بشكل ملموس من دون مواكبة الحكومات له. والأخلاق والمعنوية حتماً، لا تتحققان عن طريق الأوامر والنواهي، وعليه، لا يمكن للحكومات تحقيقها عن طريق القوة القهرية، لكن عليها هي أولاً أن تتحلّى بالسير والسلوكيات الأخلاقية والمعنوية، وثانياً عليها أن تهتئء الأرضية لإشاعتها وترويجها في المجتمع، وأن تتيح الفرص للمؤسسات الاجتماعية للعمل على هذا الموضوع، وتمد لها يد العون. كما عليها محاربة المؤسسات المعادية للمعنوية والأخلاق بأسلوب معقول، وباختصار، أن لا تسمح للجهنمين أن يجعلوا الناس جهنمين بالقوة والخداع.

لقد وفّرت الوسائل الإعلامية المتطورة والشاملة إمكانيات خطيرة جداً للمراكز المعادية للمعنوية والأخلاق، وها نحن نرى الآن بأعيننا، الهجمات المتصاعدة للأعداء على القلوب الطاهرة للشباب والأحداث وحتى الأطفال بالاستفادة من هذه الوسائل. تتحمل الأجهزة الحكومية المسؤولية في هذا الخصوص واجبات جسيمة يجب أن تنهض بها بشكل ذكي ومسؤول تماماً. وهذا بالطبع لا يعني إسقاط المسؤولية عن

الأشخاص والمؤسسات غير الحكومية. ويجب في المرحلة القادمة إعداد خطط وبرامج شاملة قصيرة ومتوسطة الأمد في هذا الخصوص والعمل على تطبيقها، إن شاء الله.

٣- الاقتصاد: الاقتصاد قضية مفتاحية مصيرية. والاقتصاد القوي نقطة قوة وعامل مهم في عدم الخضوع للهيمنة، وفي مناعة البلاد حيال النفوذ والتغلغل، والاقتصاد الضعيف نقطة ضعف ومقدمة لنفوذ الأعداء وهيمنتهم وتدخلهم. الفقر والغنى يؤثران في الشؤون المادية والمعنوية للبشر. والاقتصاد بالطبع، ليس هدف المجتمع الإسلامي، لكنّه وسيلة لا يمكن تحقيق الأهداف من دونها. وما تأكّدي على تعزيز الاقتصاد المستقل للبلاد والقائم على الإنتاج الوفير ذي الجودة، والتوزيع العادل، والاستهلاك على قدر الحاجة ومن دون إسراف، والعلاقات الإدارية العقلانية، ما تأكّدي على كلّ ذلك في الأعوام الأخيرة وتكراري له سوى لذلك التأثير المذهل الذي يمكن للاقتصاد أن يتركه في حياة المجتمع حاضراً ومستقبلاً.

لقد بيّنت الثورة الإسلامية لنا طريق الخلاص من الاقتصاد الضعيف والتابع والفساد في عهد الطاغوت، إلّا أنّ الأداءات الضعيفة عرّضت اقتصاد البلاد لتحديات خارجية وداخلية. التحدي الخارجي هو الحظر وإلقاءات العدو ومغرياته والتي ستكون قليلة التأثير أو حتّى عديمته في حال إصلاح المشكلة الداخلية. أمّا التحدي الداخلي فعبارة عن العيوب البنيوية والضعف الإداري.

وأهمّ العيوب هي تبعية الاقتصاد للنفط، وتبعيّة بعض القطاعات الاقتصادية للحكومة والتي ليست من اختصاصها، والتركيز على الخارج وليس على القدرات والطاقات الداخلية، والاستثمار القليل للطاقات البشرية الداخلية، وإعداد الموازنات بشكل مختل وغير متوازن، وبالتالي عدم استقرار السياسات التنفيذية للاقتصاد وعدم مراعاة الأولويات، ووجود مصاريف إضافية بل وحتّى إسرافيّة في بعض أقسام

الأجهزة الحكومية. ونتيجة لهذا، تحدث مشكلات في حياة الناس من قِبل بطالة الشباب وتدني مداخيل الطبقة الفقيرة وما شاكل .

وسبيل الحل لهذه المشكلات هو سياسات الاقتصاد المقاوم، الذي ينبغي إعداد خطط تنفيذية لكل جانب من جوانبه، ومتابعته وتطبيقه باقتدار ونشاط وشعور بالمسؤولية من قبل الحكومات. ومن الجوانب المهمة في هذه الحلول، التدفق الداخلي في اقتصاد البلاد، وصيرورته اقتصاداً إنتاجياً وعلمي المحور، والطابع الشعبي العام للاقتصاد| شعبية الاقتصاد| وعدم تصدّي الحكومة له، والتوجّه نحو الخارج من خلال استثمار الإمكانيات والطاقات التي سبق وتمّت الإشارة إليها. ولا شك في أنّ مجموعة شابة عالمية متديّنة مؤمنة متمكنة في العلوم الاقتصادية داخل الحكومة ستستطيع تحقيق هذه المقاصد. وينبغي للمرحلة القادمة أن تكون ساحة لنشاط مثل هذه المجموعة.

ليعلم الشباب الأعزاء في سائر أنحاء البلاد أنّ كلّ الحلول هي في داخل البلاد، وأنّ يتصوّر شخص أنّ «المشكلات الاقتصادية ناجمة فقط عن الحظر، وسبب الحظر هو المقاومة ضد الاستكبار وعدم الاستسلام أمام العدو؛ فالحلّ إذًا، هو الركوع أمام العدو وتقبيّل يد الذئب» فهذا خطأ لا يغتفر. هذا التحليل الخاطيء بكليّته، يصدر بين الحين والآخر على ألسنة بعض الغافلين الداخليين وأقلامهم، لكنّ مصدره مراكز الفكر والتأمّر الخارجية التي تبثه وتوحي به بمائة لغة إلى صناع القرار وأصحاب القرار والرأي العام الداخلي.

٤- العدالة ومكافحة الفساد: هذان الأمران متلازمان. الفساد الاقتصادي والأخلاقي والسياسي كتلة مرصّية في البلدان والأنظمة، إذا ما أصابت هيكل

١- في كلمات سابقة حول الاقتصاد المقاوم أشار القائد إلى أنّ دور الحكومة هو الاشراف والتصويب والتسهيل وليس التصدي المباشر للفعاليات الاقتصادية وإن يكون الدور الأساس فيه للفئات الشعبية والمؤسسات والهيئات ذات الطابع غير الحكومي.

الحكومات عرّضتها لزلزال مدمر ووجهت ضربة شديدة لشرعيتها؛ وهذه قضية جدية وأساسية للغاية بالنسبة لنظام كنظام الجمهورية الإسلامية الذي يحتاج إلى شرعية أعلى من الشرعيات الدارجة وأشدّ رسوخاً من المقبولة الاجتماعية مقارنة بسائر الأنظمة. ومغريات المال والمنصب والرئاسة قد تتسببت بزلل أقدام البعض حتّى في أكثر حكومات التاريخ نزاهة أي حكومة الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام نفسها، وعليه، فمخاطر ظهور هذا التهديد في الجمهورية الإسلامية أيضاً، التي كان مدراؤها ومسؤولوها يوماً، يتسابقون في الزهد الثوري والبساطة في الحياة، غير مستبعد على الإطلاق، وهذا ما يتطلّب الحضور الدائم للأجهزة الكفوءة، ذات النظرة الثاقبة والتعاطي الحاسم، في السلطات الثلاث، فتحارب الفساد بالمعنى الحقيقي للكلمة، وخصوصاً داخل الأجهزة الحكومية.

وبالطبع، فإن نسبة الفساد بين المسؤولين في حكومة الجمهورية الإسلامية قليلة جداً، بالمقارنة مع كثير من البلدان الأخرى، خاصة نظام الطاغوت الذي كان مملوءاً بالفساد من رأسه إلى أخمص قدميه، ومروجاً له، والحمد لله أنّ رجال هذا النظام قد حافظوا في الأعم الأغلب على نزاهتهم، لكن حتّى هذا المقدار الموجود غير مقبول. على الجميع أن يعلموا أن النزاهة الاقتصادية شرط لشرعية كلّ المسؤولين في دولة الجمهورية الإسلامية. على الجميع أن يحذروا من شيطان الطمع ويفروا من اللقمة الحرام وأن يستعينوا بالله في هذا الخصوص، وعلى الأجهزة الرقابية والحكومية أن تكافح، بحسم وبحساسية، انعقاد نطف الفساد ونموّها. وهذا الكفاح يتطلب أناساً مؤمنين ومجاهدين، ذوي نفوس عزيزة، وأيد نظيفة وقلوب نيرة. هذا الكفاح هو جزء مؤثر من المساعي الشاملة التي ينبغي لنظام الجمهورية الإسلامية بذلها في سبيل تكريس العدالة.

تقع العدالة في قائمة الأهداف الأولى لبعثة سائر الأنبياء، ولها في الجمهورية الإسلامية أيضاً المنزلة والمكانة ذاتها. إنها كلمة مقدّسة في كلّ الأزمنة والبلدان ولن تتحقّق بشكلها الكامل إلا في دولة الإمام صاحب العصر والزمان (أرواحنا فداء)، لكنها ممكنة بنسبة ما، في كلّ مكان وزمان، وهي فريضة على عاتق الجميع خاصّة الحكام والمقنّدين. وقد قطعت الجمهورية الإسلامية الإيرانية خطوات واسعة في هذا السبيل، سبقت الإشارة إليها على نحو الإيجاز، وطبعاً ينبغي القيام بأعمال أكثر في إيضاح تلك الخطوات وشرحها لإحباط مؤامرة قلب الحقائق أو لا أقل الصمت والتعتيم التي تمثل في الوقت الحاضر المخطط الجاد لأعداء الثورة.

ومع كلّ هذا أقول بصراحة للشباب الأعزاء الذين يتطلع لهم مستقبل البلاد، يوجد بون شاسع بين ما تمّ إنجازه إلى الآن وما كان ينبغي أن يُنجز. ينبغي لقلوب المسؤولين في الجمهورية الإسلامية أن تخفق دوماً من أجل رفع الحرمان، وتخاف أشدّ الخوف من الفوارق الطبقيّة العميقة. إنّ اكتساب الثروة في الجمهورية الإسلامية ليس جريمة، بل هو موضع تشجيع وترغيب، لكنّ التمييز في توزيع المصادر والثروات العامة، وإتاحة الفرصة للانتهازيين والمحتكرين، ومداواة المخادعين الاقتصاديين، والتي تؤدّي كلّها إلى انعدام العدالة، هي ممارسات ممنوعة أشدّ المنع. كما أنّ الغفلة عن الشرائح المحتاجة إلى الدعم، غير مقبولة على الإطلاق. لقد ورد هذا الكلام مراراً على شكل سياسات وقوانين، لكنّ عيون الأمل مسمّرة عليكم أيها الشباب لتنفيذه تنفيذاً لاثقاً، وإذا ما أُحيلت إدارة قطاعات البلاد المختلفة إلى الشباب المؤمن الثوري العالم الكفو - وهم ليسوا قلة بحمد الله - فسوف يتحقّق هذا الأمل إن شاء الله .

٥- الاستقلال والحرية: الاستقلال الوطني بمعنى اعتناق الشعب والدولة ممّا تفرضه القوى المهيمنة على العالم ومن عسفها وهيمنتها. والحرية الاجتماعية بمعنى حق اتخاذ القرار والعمل والتفكير لكلّ أفراد المجتمع. وهذان كلاهما من القيم الإسلامية، وكلاهما عطايا إلهية للبشر، وليس أيّ منهما تفضّل تجود به الحكومات

على الشعوب. ومن واجب الحكومات تأمين هذين الأمرين. إن أكثر من يعرف أهميّة الحرية والاستقلال هم من حاربوا من أجلهما. ومن هؤلاء الشعب الإيراني بجهاده على مدى أربعين عاماً. والاستقلال والحرية الحاليان الموجودان في إيران الإسلامية هما إنجاز، بل ثمرة دماء مئات الآلاف من الأشخاص المتسامين الشجعان والمضحين. وهم غالباً من الشباب، لكنهم في المراتب الإنسانية الرفيعة. لا يمكن المخاطرة بثمرة شجرة الثورة الطيبة هذه، بالتأويلات والتبريرات الساذجة، والمغرضة أحياناً. من واجب الجميع - وخصوصاً حكومة الجمهورية الإسلامية - حماية هذا الإنجاز بكلّ كيانه. ومن البديهي أن الاستقلال يجب أن لا يؤخذ بمعنى حصر سياسة البلاد واقتصادها داخل حدودها، كما لا ينبغي تفسير الحرية بشكل متعارض مع الأخلاق والقانون والقيم الإلهيّة والحقوق العامّة.

٦- العزة الوطنية والعلاقات الخارجية وتحديد الأطر والحدود مع العدو: هذه العناوين الثلاثة تفرّعات لمبدأ «العزة، الحكمة، والمصلحة» في العلاقات الدولية. تشهد الساحة العالمية اليوم ظواهر تحقّقت أو هي على وشك التحقق والظهور: الحركة الجديدة لنهضة الصحوة الإسلامية على أساس نموذج المقاومة بوجه هيمنة أمريكا والصهيونية، وفشل سياسات أمريكا في منطقة غرب آسيا وعجز حلفائها الخونة في المنطقة، واتساع [رقعة] الحضور القوي لسياسة الجمهورية الإسلامية في غرب آسيا، وانعكاساته الواسعة في كلّ العالم المهيمن.

هذه بعض مظاهر عزّة الجمهورية الإسلامية التي لا تتأتّى إلا بشجاعة المسؤولين الجهاديين وحكمتهم. إن زعماء نظام الهيمنة قلقون، واقتراحاتهم عموماً تنطوي على الخداع والحيل والأكاذيب. إن الشعب الإيراني اليوم يعدّ فضلاً عن أمريكا المجرمة، بعض الحكومات الأوروبية أيضاً، مخادعة ولا يمكن الثقة بها. وعلى حكومة الجمهورية الإسلامية أن تحافظ على الحدود الفاصلة بينها وبينهم بدقة، ولا تتراجع عن قيمها الثورية والوطنية خطوة واحدة، وأن لا تخاف تهديداتهم الجوفاء، وأن تأخذ

في جميع الأحوال، عزّة بلادها وشعبها بعين النظر، وتعالج مشكلاتها الممكنة الحلّ معهم بطريقة حكيمة، ووفق المصالح، وبالطبع من الموقع والمنطلق الثوري. أمّا فيما يخصّ أمريكا، فإنّ حلّ أيّ مشكلة غير متصوّر معها، والتفاوض معها لن يعود سوى بالخسائر والأضرار المادية والمعنوية.

٧- نمط الحياة: ما يلزم قوله في هذا المضممار كثير، فأتركه لمناسبة أخرى وأكتفي بنقطة واحدة هي، أنّ جهود الغرب لترويج أسلوب الحياة الغربي في إيران وإشاعته، قد عرّض بلادنا وشعبنا لأضرار أخلاقية واقتصادية ودينية وسياسية لا تعوض، ومواجهتها تتطلب جهاداً شاملاً وواعياً تتسمّر فيه عيون الأمل أيضاً عليكم أيها الشباب.

في الختام، أتقدّم بالشكر من الشعب العزيز على المشاركة المهيبة والباعثة على الفخر والمحطمة الآمال الأعداء في الثاني والعشرين من بهمن والذكرى الأربعين لانتصار الثورة الإسلامية العظيمة، وأمرّغ جبهتي على أعتاب الساحة الربوبية شكراً. السلام على الإمام بقية الله (أرواحنا فداه)، والسلام على الأرواح الطيبة للشهداء الأجلّاء، والروح الطاهرة للإمام الخميني الكبير، وسلامي لكل أبناء الشعب الإيراني العزيز، وسلامٌ خاصٌ للشباب.

الداعي لكم

السيد علي خامنئي

٢٢ بهمن ١٣٩٧ هـ ش / ١١ شباط ٢٠١٩ م

”الاستكبار” مفهومه، وأهدافه، ومواجهته في فكر الإمام الخامنئي (دام ظله)

□ الشيخ حسن الهادي (*)

تمهيد

يقال: استكبر الرجل أي تكبر، عاند، تجبر وتعاضم وامتنع عن قبول الحق وتمرد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(١). فالاستكبار في أصوله بذرة تمرد في داخل النفس قوامها حب النفس والشغف بحفظ تفردّها وذاتيتها المظلمة. ويقود إبليس خط الاستكبار عبر التاريخ - أبى واستكبر -، يجتذب إليه من الجنة والناس الذين ينساقون وراء الضعف، ويسوّل لهم الشيطان ويغيرهم.

وكما يستكبر الأفراد.. تستكبر الأمم، وإذا كان الفرد المستكبر نقطة من الظلام فإن الأمة المستكبرة هي مساحة واسعة من الظلمات، فليس الاستكبار صيغة للتكبر، ونوعاً من الشموخ يُوصَفُ به الفرد الأناني المستعلي فقط، إنما هو وجود تكتل اجتماعي، سياسي، واقتصادي يطأ المستضعفين، ويعلو في الأرض بغير الحق، ويفسد فيها ويصد عن سبيل الله. ذلك أنّ مفهوم الاستكبار يجمع زيادة على التفاوت الاقتصادي وعلى الظلم الاجتماعي الذي يتضمّنه المصطلح، البعد العقدي. فنزاع المستكبرين والمستضعفين كما يقص الله عز وجل في كتابه العزيز ليس على الأرزاق فقط بل

(*) الشيخ حسن أحمد الهادي، رئيس تحرير مجلة الحياة الطبية التخصصية، لبنان.

يتعداه إلى نزاع مركب كلي شمولي في معاني استردال فئة لفئة، واحتقار فئة لفئة، واستعلاء فئة على فئة.

وأطلق الاستكبار في ثقافة الثورة الإسلامية على مجموعة القوى التي تستند إلى قدراتها السياسية والعسكرية والعلمية والاقتصادية، وتعتمد على نظرة تمييزية للإنسان؛ لتستغل المنظومات الإنسانية الكبرى - أي الشعوب والحكومات والبلدان - وتضغط عليها وتسيطر عليها بشكل تعسفي مذل. تتدخل في شؤونها وتتناول على ثرواتها، وتتعامل مع حكوماتها بمنطق القوة، وتظلم الشعوب وتهين ثقافتهم وأعرافهم وتقاليدهم.

فما هو هذا الاستكبار؟ وما هي أهدافه؟ وما هي الأساليب التي ينتهجها في السيطرة على العالم الإسلامي؟ هذه الأسئلة وغيرها هي ما سنحاول الإجابة عليه، مستهدين في ذلك كله بالتوجيهات التي أفاد بها سماحة الإمام الخامنئي دام ظله.

حقيقة الاستكبار

الاستكبار ليس مسألة جديدة ظهرت في زماننا، بل هو مسألة قديمة بقدم التاريخ، وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أمثلة على المستكبرين كفرعون، قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۖ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ۖ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۖ﴾^(١).

والتكبر في الإنسان هو من الصفات الأخلاقية الذميمة التي ذكرها علماء الأخلاق في عداد الصفات المهلكة للدين، بناءً على ما ورد في الروايات من التحذير منه، فعن

الإمام الباقر عليه السلام: «العز رداء الله، والكبر إزاره، فمن تناول شيئاً منه أكبه الله في جهنم»^(١)، وفي رواية أخرى عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قالوا: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر»^(٢).

وقد أشار الإمام الخامنئي دام ظله إلى هذا المفهوم حيث قال: «من أعظم مسؤوليات الإنسان حينما وُجدَ معرفة حدوده القانونية وعدم تجاوزها، وتجاوز الحدود ما هو إلا عبارة عن الاستبداد والاستكبار بما ينطويان عليه من مفهوم قبيح ومشين، وأعظم خطر يحيق بالإنسان هو أن يستحوذ عليه الاستبداد والاستكبار، وهذا وبالٌ ربما يصاب به الجميع»^(٣).

وأطلق هذا اللفظ في هذا العصر على الدول المستكبرة التي تحاول الهيمنة على العالم، وهو ما يؤكده الإمام الخامنئي دام ظله، بقوله: «الاستكبار العالمي يشمل جميع القوى المتغترسة والمتجبرة في العالم، وجميع الوجوه الوقحة المتسلطة على الشعوب»^(٤).

نظرة الاستكبار إلى العالم

تنظر الدول الاستكبارية إلى الدول الأخرى نظرة احتقارية ودونية، وتحاول أن ترسم عن نفسها في مختلف وسائل الإعلام صورة مثالية، وكذلك فإنها تصور الآخرين بحالة من التخلف والرجعية، وأنهم يحتاجون لزمن طويل لكي يصلوا إلى التقدم الذي وصلت إليه هذه الدول المهيمنة، والهدف من ذلك كله بحسب ما يشير إليه الإمام الخامنئي دام ظله هو زرع اليأس والضعف في النفوس الضعيفة، وإيقاع الهزيمة النفسية في الشعوب، يقول دام ظله: «وإنكم لو نظرتم الآن إلى المشهد

١- الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٣٠٩.

٢- م. ن، ج ٢، ص ٣١٠.

٣- من كلام للإمام الخامنئي، بمناسبة عيد الفطر السعيد، غرة شوال ١٤٢٢ هـ طهران.

٤- من كلام للإمام الخامنئي، بمناسبة الذكرى السنوية السابعة لرحيل الإمام عليه السلام ١٦ محرم ١٤١٧ هـ.

الجغرافي لهذا العالم في تقسيماته وممارساته السياسية، لوجدتم على ماذا يستند أولئك الذين يتصورون امتلاكهم لكل شيء على هذه الأرض، والذين ينظرون باحتقار لكل الشعوب ويسيطرون ظلماً وعدواناً على المصادر البشرية والمادية، وهم قوى الاستكبار، فعلى ماذا يعتمد هؤلاء؟ إن أهم ما يعولون عليه هو الإيحاء للشعوب بأن قوتهم قوة لا منازع لها^(١).

وقد يصل الأمر ببعض الدول المستكبرة أن تخاطب الآخرين بلهجة العبيد أو الخدم، ويوحون للعالم بأنهم يمتلكون هذه الدول الصغيرة، يقول الإمام الخامني دام ظله عن هذا الأمر: "إنه كمن النادر حقاً أن يعثر المرء على حكومة تتحدث بمثل ما يتحدث به هؤلاء حول دول الشرق الأوسط، فهم يعتبرون هذه الدول ملكاً لهم! وهذا ما يعنيه الاستكبار"^(٢).

الاستكبار والنزاع العالمي

يشير الإمام الخامني دام ظله إلى مسألة في غاية الأهمية، وهي أن محور النزاع في العالم دائماً هو طمع المستكبرين الذين يحاولون أن يسيطروا على شعوب الأرض ويقرروا مصير هؤلاء وفق مصالحهم ورغباتهم الشخصية، يقول دام ظله: "إن النزاع الدائر في العالم سواء في الماضي أو الآن أو في المستقبل سببه أن القوى الاستكبارية تسعى إلى تقرير مصير الشعوب وفق ما تشاء"^(٣).

الاستكبار والمجازر

ليس من الغريب أن نرى بصمات أيدي الاستكبار العالمي في المجازر التي ترتكب بحق الشعوب المستضعفة، فهذا أمر طبيعي، إذ إن دول الاستكبار التي تتغنى

١ - من كلام للإمام الخامني، بمناسبة الذكرى السنوية الحادية عشرة لرحيل الإمام الخميني، ١ ربيع الأول ١٤٢١هـ طهران (مرقد الإمام عليه السلام).

٢ - من كلام للإمام الخامني، بمناسبة ١٣ آبان ذكرى احتلال السفارة الأمريكية، ٢٩ شعبان ١٤٢٣هـ طهران.

٣ - من كلام للإمام الخامني، بمناسبة يوم المعلم والعمال، ٣ ذي الحجة ١٤١٥هـ طهران.

يوميّاً بحقوق الإنسان وحقوق المرأة وحقوق الحيوان، ليس لديها أي قيمة للإنسان الآخر إلا بمقدار ما يحقق لها من مصالح، يقول الإمام الخامني دام ظله: "أينما تجد مجزرة ضد المسلمين، تجد حضوراً مباشراً من الاستكبار أو تحريكاً وتشجيعاً منه، أو سكوتاً ذا معنى واضح يعبر أجلى تعبير عن التشجيع"^(١).

فالتعاطي بمكيالين مع القضايا الإنسانية أصبح جلياً لكل شعوب العالم المستضعف، والتشدق بالحديث عن انعدام الديمقراطية وعن سجناء الرأي السياسي في العالم العربي، في حين ترى بشائر ديمقراطيتها في أبو غريب وغوانتانامو، وعن هذا يقول دام ظله: "لقد تظاهرت القوى الشيطانية - وما تسمونه بالاستكبار الذي يتمثل في أمريكا - ضد البشرية والقيم الإنسانية، فأرواح آلاف الأشخاص لا قيمة لها عندهم، فقد شاهدتم كيف أن إسرائيل في ظرف خمسة عشر أو ستة عشر يوماً قتلت وجرحت وشرّدت عشرات الآلاف، وأحدثت الفجائع دون أن يطرّف جفن للاستكبار العالمي الذي يستفز أجهزته ويبدل الأموال رياءً لإنقاذ حياة قطة سقطت في بالوعة رغم أنها حيوان!!"^(٢).

ومن أكبر نماذج المجازر التي يرتكبها الاستكبار العالمي، هو احتلال أراضي الشعب الفلسطيني وإقامة كيان صهيوني على أنقاضه، وهذا أسوأ ما يمكن أن نتصوره من أنواع الاستكبار الممزوج بالاستعمار؛ لأنه مجزرة بحق أمة كاملة لها الحق في العيش والاستقلال، وعن هذا النوع الفاضح من المجازر يقول الإمام الخامني دام ظله: "من الناحية الإنسانية شعب مظلوم في المقابل حكومة عنصرية ترتكب شتى أنواع الظلم، وكل هذا الكذب والافتراء الصادر عن أمريكا والمنظمات الدولية وما يسمى بالمفكرين الغربيين بشأن الديمقراطية، ومن الناحية الأمنية تعتبر القضية الفلسطينية خطراً أمنياً يحدق بكل المنطقة ليس فقط يحدق بمواطنيهم بل بكل المنطقة فهؤلاء يملكون ترسانة نووية وما زالوا ينتجون المزيد، ومنظمة الأمم المتحدة حذرت مراراً لكنهم لا يبالون، والسبب الرئيس هو الدعم الأمريكي، يعني ذنب الممارسات

١- من كلام للإمام الخامني، في ٧ رمضان ١٤١٤هـ طهران.

٢- من كلام للإمام الخامني، في يوم العمال ويوم المعلم ١٢ ذي الحجة ١٤١٦هـ طهران.

الصهيونية والكيان الغاصب يقع في غالبيته على عاتق الإدارة الأمريكية. اعلّموا أنه وخلال خمسين عاماً من حكم اليهود صدر ٢٩ قراراً ضد إسرائيل في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة وقد مارست أمريكا حق الفيتو ضدها جميعاً... إذن، فمسؤولية كل هذه الجرائم تقع على عاتق أمريكا، أمريكا التي ترعى عملية السلام وأحياناً ما ترسم على وجهها ابتسامة خبيثة ومسمومة لكل الشعوب بما فيها شعبنا العزيز والمظلوم، فإنها المجرم الأول في قضية فلسطين، وأحد ذنوبها هو أن يدها غارقة حتى المرفق في دماء الفلسطينيين^(١).

ما الدافع وراء الاستكبار؟

"إن شيطان الاستكبار قد اهتم بنشر جبهته إلى جميع أرجاء العالم وجميع شؤون الحياة الإنسانية وكل الفئات البشرية في المجتمع، وأقصد بجبهة الشيطان هذه المادية الغربية التي يخطط لها أئمة الكفر والاستكبار وتقوم على أساس مصالح أصحاب الشركات الكبرى وأصحاب رؤوس الأموال الضخمة ونهمهم وطغيانهم وحرصهم المسعور"^(٢).

وهذا ما نراه في الأهداف الاقتصادية التي يبتغيها الاستكبار من احتلاله للبلدان كالعراق الغني بالنفط، حيث إن العقود الاقتصادية المعلنة التي لزمّت لشركات أمريكية بلغت حوالى سبعة مليارات دولار، وذلك بعد أن تم إلغاء العقود السابقة...^(٣).

أهداف الإستكبار العالمي

يتضح من خلال ما قدّمنا أن أهم الأهداف التي يبتغيها الاستكبار من محاولته الهيمنة على العالم تبتني على الأصعدة الثلاثة: الاقتصادية، والسياسية، والثقافية، ولهذا يقول الإمام الخامنّي دام ظله: "لقد أضحي من مستلزمات الروح الاستكبارية في

١- الإمام الخامنّي، مقتبس من كتاب الإنتفاضة ومؤامرة الاستكبار، إصدار جمعية المعارف الإسلامية الثقافية.

٢- من كلام للإمام الخامنّي، في ٧ رمضان ١٤١٧هـ جامعة طهران.

٣- صناعة القرار في أميركا، جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، ص ١٩٣، نقلاً عن جريدة السفير العدد ٩٢٥١،

عن أ ب، أ ف ب، رويترز، د ب أ، يو بي أي.

عالمنا المعاصر القيام بحركة عاجلة للهيمنة على العديد من الأصعدة، وهي بالأساس ثلاثة: الاقتصاد والسياسة والثقافة. وتبدأ الحركة من القمة كالسيل الجارف الذي ينزل نحو الوادي، وقد انحدر هذا السيل وهو ليس ابن هذه السنة أو التي قبلها، غاية الأمر أنه يزداد شدة بحسب الظروف العالمية^(١).

وسائل الاستكبار للسيطرة على العالم

تنوّع الأساليب التي تنتهجها دول الاستكبار في السيطرة السياسية والثقافية والاقتصادية على الدول المستضعفة والنامية، ولعل الأمثلة الأبرز في هذه الأيام هي في فلسطين والعراق، ومن الطبيعي أن تكون الأمثلة التي يضربها الإمام الخامنّي دام ظله من هذين الحدثين اللذين كانا من أخطر الأمور التي ارتكبتها قوى الاستكبار العالمي.

١ - الهَيْمَنَةُ السِّياسِيَّةُ:

ليس من الضروري أن تحتل القوى الاستكبارية بلداً ما لكي تهيمن على قراره السياسي، للوصول إلى مآربها، وهناك الكثير من النماذج الماثلة أمامنا في العالم الإسلامي حيث استطاع الغرب أن يهيمن على الكثير من هذه الدول مع أن دباباته لم تطأ أرضها، ومن هنا نرى سماحة الإمام الخامنّي دام ظله يلفت النظر إلى هذه الهيمنة التي يبتغيها الاستكبار فيقول دام ظله: "واليوم نقف مرة أخرى أمام واحدة من هاتيك اللحظات المصيرية ونستشرف واحدة من تلك الامتحانات الشاملة.. حيث إن أمريكا تهدف بعد انتهاء ما يسمى بالحرب الباردة، وبفضل السكوت المرعب المخيم على بعض بلدان هذه المنطقة، وبلاستناد إلى التواجد العسكري الغاصب في الخليج الفارسي، إلى أن تحل مشكلتها ومشكلة الصهانية الغاصبين، بحيث يعترف العرب بـ"إسرائيل" وتخدم فلسطين إلى الأبد"^(٢).

١- من كلام للإمام الخامنّي، في ذكرى تأسيس مجلس الشورى الإسلامي ١٥ ربيع الأول ١٤٢٣هـ طهران.

٢- الإمام الخامنّي، مقتبس من كتاب الإنتفاضة ومؤامرة الاستكبار - إصدار جمعية المعارف الإسلامية الثقافية.

ومن أهم أهداف الاستكبار والولايات المتحدة بالخصوص في هذه المنطقة هو إزالة فلسطين وتكريس وجود الدويلة الغاصبة المسماة إسرائيل في قلب العالم الإسلامي، يقول دام ظلّه: "إن العدو يستهدف أن يقطع مرة واحدة فلسطين من جسد العالم الإسلامي، وأن يبقى الشجرة الملعونة الصهيونية في ديار المسلمين، وإن أمريكا تروم من خلال تثبيت النظام المحتل أن تمسك بكل شرايين الحياة في هذه المنطقة الحساسة وتخلّص نفسها من هاجس الصحوة الإسلامية في الشرق الأوسط وأفريقيا، وإن أعداء الإسلام يريدون بهذا أن ينقّسوا عن كل أحقادهم الدفينة تجاه الإسلام، ويتنقموا لكل ما مُنوا به من هزائم في السنوات الأخيرة على أثر يقظة المسلمين.

هذه الواقعة لا يمكن مقارنتها بأية واحدة من المؤامرات التي حيكت ضد الشرق الأوسط خلال الأعوام الأخيرة، فالحديث هنا حديث عن اغتصاب وطن بأكمله، وتشريد شعب بأسره تشريداً مستمراً أبدياً، وانتزاع قطعة من جسد العالم الإسلامي ومركز جغرافي للوطن الإسلامي الكبير وقبلة أولى للمسلمين انتزاعاً نهائياً^(١).

المكر السياسي للقوى الاستكبارية

تنتهج القوى الاستكبارية أساليب سياسية مأكرة - وهذا أمر تاريخي - ولا تردعها القيم الأخلاقية، ولا الأحاسيس البشرية؛ لأنها قد طلقتهَا وعافتها عند أول طموح غير مشروع لها، ومن هنا فالحذر أمر واجب دائماً، والتوقف والتدبر في أي طرح يأتي من تلك القوى أمر لا بد منه، خصوصاً عندما نعلم أنه لن يتورع عن انتهاج أي أسلوب ولو كان من أحسن الأساليب للوصول إلى نزواته غير المشروعة بحسب المعايير الإنسانية والأخلاقية والدينية، وإلى هذه الحقيقة يشير الإمام الخامنّي دام ظلّه بقوله: "إن العدو سياسيٌّ ومتمرسٌ بالسياسة ويمتلك عقلاً سياسياً بارعاً، إذ إنه يفكر بما عليه أن يفعله، ومن خطئه أنه لا يبوح بكلامه الفصل في البداية، فهو يبلور مظامعه رويداً رويداً ويضطر خصمه للانسحاب، وبمجرد أن تراجعتم يباشر بطرح مطمع آخر، ويقول

البعض: لنعطه شيئاً ونأخذ منه شيئاً! أن نعطيه صحيح لكن أن نأخذ منه ليس وارداً، لأنه لن يعطي شيئاً، إنهم يفبركون الشعارات، ووضعوا إيران ضمن محور الشر، فلنعمل كذا كي يحذفونا من محور الشر! هل هذا كلام؟! إنهم ارتكبوا حماقة إذ جعلونا ضمن محور الشر فهل يريدون الآن حذفنا؟ وسيعيدوننا مرة أخرى متى وجدوا ضرورة إلى محور الشر... فعليكم الحذر لئلا يتراجع المرء؛ لأن هذا التراجع لا حدود له، فإذا ما انسحبتم من هذا الخندق سيثيرون مطلباً آخر كأن يقولوا اعترفوا بهذه الحكومة غير الشرعية، وستعود ذات الضغوط والتهديدات، وبمجرد اعترافكم بها يثار مطلب آخر من قبيل: ارفعوا اسم الإسلام من دستوركم ويتعين عليكم الانسحاب تدريجياً، وهذا ما لا حدود له ^(١).

٢ - الهَيْمَنَةُ الاقتصادية:

لا شك في أن للدول الاستكبارية أهدافاً اقتصادية، وأنها تسعى لفرض هيمنتها على اقتصاد العالم؛ لنهب ثروات الشعوب المستضعفة، يشير الإمام الخامني دام ظله إلى هذه الحقيقة ويحذر المسلمين منها فيقول:

”يريد الاستكبار - سواء في إيران أو سائر البلدان الإسلامية - شعوباً مأسورة ذليلة مطأطئة مطيعة له لا شأن لها بمفاخرها وتراثها الثقافي، شعوباً لا تبدي تحفظاً إزاء عمليات النهب لثرواتها المعنوية والمادية“ ^(٢).

ويسعى الاستكبار بكل قدراته وفي كل الأوقات لعدم وصول أي دولة إلى مرحلة الاكتفاء الذاتي على صعيد الغذاء والدواء والصناعات الأساسية، هذا الاكتفاء الذي يمكن أن يحرر هذه الدول من أغلال الابتزاز، يقول دام ظله حول التجربة التي مر بها الإيرانيون في المرحلة الأولى من انتصار الثورة الإسلامية، والتي تسلمت بلداً كان فيه الشاه مجرد مستهلك للبضائع الأجنبية: ”بلدنا اليوم - الذي غدا هدفاً للنوايا السيئة

١- من كلام للإمام الخامني، في لقاء مع أعضاء مجلس الشورى الإسلامي، ٢٦ ربيع الأول ١٤٢٤هـ - طهران.

٢- من كلام للإمام الخامني، في خطبة صلاة العيد، ١ شوال ١٤٢٣هـ - طهران.

والأحقاد من قبل طواغيت العالم بسبب رفض هذا البلد الخضوع أمام غطرسة الطواغيت - محتاج أكثر من ذي قبل لضمان الحصول على الغذاء، لكي لا يحتاج للبلدان الأخرى في حصوله على ما يلزمه من خبز وغذاء يومي وزيوت ولحوم، ولكي لا يحتاج لمن يمكن أن يساوموه على عزته مقابل هذا العطاء. إن توفير الغذاء لشعبنا أمر مهم للغاية، فعندما أعلنوا في العام الماضي أن البلد وصل إلى مرحلة الاكتفاء الذاتي في محصول القمح، بنظري إنه كان في الحقيقة عيداً كبيراً لهذا البلد... وإن الشركات الصهيونية الغاصبة وغيرها تريد أن تنهب ثروات العالم، فمن الصعب عليهم أن يروا أن هناك شعباً يتقدم في جميع المجالات ويدحض زيف ادعاءاتهم، وعلى الرغم من ذلك فإن الشعب الإيراني سوف يتقدم للأمام، وسوف يشمخ الإسلام أكثر مما هو عليه الآن، وسوف يرفرف علم العزة الإسلامية على رؤوس أفراد هذا الشعب، وجميع شعوب العالم الإسلامي إن شاء الله تعالى^(١).

المجتمع المستهلك منية المستكبرين:

من دواعي سرور الدول الاستكبارية أن ترانا مجتمعاً مستهلكاً لسلعها، حيث يتحول المجتمع الذي ينبغي أن يكون مقتدراً ومستقلاً في اقتصاده ورفع حاجة أفراده، إلى مجرد سوق تدر الأرباح إلى حساب تلك الدول الظالمة، وحينما نصبح كذلك ستسلط علينا هذه الدول لتملي علينا ما تريده من قرارات، من خلال الابتزاز والتهديد بالتجويع والحرمان. وإلى خطورة هذا الوضع يشير الإمام الخامني دام ظله:

"... إن من الأمور التي تحول دون أن تمتد يد القادرين على المساعدة لتقديم العون للفقراء، تفشي روح الاستهلاك والبهرجة في المجتمع، فوبال على المجتمع أن يتفاهم فيه الجنوح نحو الاستهلاك يوماً بعد يوم، بحيث يُرغَّب الجميع بالإفراط في الاستهلاك والإكثار والتنويع بالأكل والشرب واللباس والسعي وراء الصرعات الموضات وكل ما استجد من مستلزمات الحياة وكمالياتها، فكم هي الثروات والأموال

١ - من كلام للإمام الخامني، في ١٢ - ١٤٢٦ هـ طهران.

التي تُهدَرُ بهذا الاتجاه، وتُعطل عن أن تُنفقَ في المواطن التي تفضي إلى رضا الله وعلاج مشاكل فئات من الناس.

وإن الجنوح نحو الاستهلاك وبال عظيم بالنسبة للمجتمع، فالإسراف يضاعف ويُعمق الفوارق الطبقيّة بين الفقير والغني يوماً بعد يوم، وإنّ من الأمور التي يتعين على أبناء الشعب اعتباره واجباً بالنسبة لهم هو تجنب الإسراف، وعلى الأجهزة المسؤولة في مختلف مرافق الدولة لا سيما الأجهزة الإعلامية والثقافية وعلى وجه الخصوص الإذاعة والتلفزيون أن ترى من واجبها ليس عدم جرّ الجماهير باتجاه الإسراف والاستهلاك والبهرجة فحسب، وإنما سوقهم بالاتجاه المعاكس ودعوة الناس وسوقهم نحو القناعة والاكتفاء والإنفاق حسب الحاجة، وتجنب الإفراط والإسراف، فروح الاستهلاك تدمّر المجتمع.

وإن المجتمع الذي يفوق استهلاكه إنتاجه ستحقيق به الهزيمة، وعلينا أن نتعود على موازنة استهلاكنا والحدّ منه والتخلّي عن الإسراف، وليبادر الشباب إلى إقامة التجمعات العائلية وجمع معونات أبناء الأسرة وإنفاقها على الفقراء والمعوزين من أبناء تلك العوائل بالدرجة الأولى، أو إنفاقها على سائر الفقراء إن لم تكن ثمة حاجة... آمليْن أن يَمَنَّ رب العالمين علينا وعلى الشعوب الإسلامية باليقظة، ويحفّز المسؤولين في البلدان الإسلامية للعمل بواجباتهم الكبرى^(١).

٣ - الهَيْمَنَةُ الثَّقَافِيَّةُ

من المؤكد أن وسائل الإعلام من أهم الأدوات التي تلجأ إليها القوى الاستكبارية، في هجمتها ومحاولة هيمنتها الثقافية على الأمم الأخرى، والهيمنة الثقافية مسألة في غاية الخطورة، إذ إنها أكثر استراتيجية وأعمق من الاحتلال السياسي والعسكري، وهي مرسخة له، وهذا ما يحذر منه ولي أمر المسلمين الإمام الخامني دام ظله، ويركز في هذا الإطار على نقاط عدة منها:

١ - من كلام للإمام الخامني، في خطبة صلاة العيد، ١ شوال ١٤٢٣هـ طهران.

أ - إحياء المعنويات: وذلك من خلال إفقاد المجتمع ثقته بنفسه، وتصويره بأنه مجتمع عاجز عن مجاراة الدول الكبرى، ولا سيما على الصعد العلمية والتقنية والاقتصادية، يقول دام ظلّه: "ما فتئت القوى الاستكبارية في العالم تدعونا نحن المسلمين عبر أبواقها الإعلامية إلى الالتفات لحقائق الدنيا، مشيرين بذلك إلى أن العالم الغربي متقدم ومتمكن من الناحية العلمية والتقنية والاقتصادية والعسكرية، وليس أماننا سوى الاستسلام والتقهقر"^(١).

ب - بث الأبواق الدعائية داخل الأمة: من الأمور التي لا ينبغي أن تغفل عنها وجود بعض المتسمين والمتلبسين بلباس الثقافة والوعي، والذين يقومون بدور هدام في زعزعة ثقة الأمة بنفسها وقدراتها، مساهمين بذلك سواء عن قصد، أو عن غير قصد في المخطط الرامي للهيمنة على القرار السياسي والإرث الثقافي للأمم، وهؤلاء يشير إليهم الإمام الخامنّي دام ظلّه، بأنهم قد ورد التحذير منهم في القرآن الكريم، وقد وصفهم الله تعالى بالمرجفين يقول الله تعالى: ﴿لَنْ يَنْتَه الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقُفُوا أَخَذُوا وَفُتِلُوا ثَقِيلًا﴾^(٢).

يقول دام ظلّه: "لقد تركزت محاولات التيارات السياسية - المناوئة للجمهورية الإسلامية وللنهضة الإسلامية الكبرى التي قام بها الشعب الإيراني وشعوب المنطقة - على إثارة الاضطراب والقلق في القلوب وإرعاها، وهذه سياسة عامة للإمبراطورية الإعلامية اليوم، وهي ليست بالأمر الجديد سواء بالنسبة لنا على مدى الأعوام البضعة والعشرين المنصرمة، أو بالنسبة لمسيرة الحق على مدى تاريخ الإسلام منذ البداية وحتى يومنا هذا.

١- من كلام للإمام الخامنّي، في لقاء مع أعضاء مجلس الشورى الإسلامي، ربيع الأول ١٤٢٤هـ، طهران.

٢- سورة الأحزاب، الآيتان: ٦٠-٦١.

لذلك فإنكم تشاهدون أن أحد الموضوعات التي جرى التركيز عليها في القرآن كأمر سلبي هو موضوع "المرجفون" أي الذين يحاولون زرع الاضطراب والتوجس في القلوب وتشويشها، وقبل أيام قرأت هذه الآية الكريمة لأعزة آخرين كانوا هنا وهي: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ فلقد كانوا يفتعلون الغوغاء في مدينة النبي بأن الناس قد تجمعوا يريدون تدميركم والقضاء عليكم وإفناءكم وقد انتهى كل شيء، فنزلت آية لتؤكد حينما يثير الغوغاء والثرثارون والضعفاء مثل هذه الأجواء ويلوثونها بجرثومة وفيروس الرعب الرهيب، وإن المؤمنين هم الذين يزدادون إيماناً ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾، ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ وهذه هنا محلها، أي إنهم يتمتعون بالطمأنينة إزاء الاضطراب الذي يحاول العدو خلقه عن طريق الحرب الإعلامية والنفسية، وتلك هي "السكينة" وهبها الله قلوب المؤمنين، هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين كي يشتد إيمانهم ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾^(١).

ج - ترويج الشعارات المغلوطة: ومن أهم ما تروّج له الوسائل الإعلامية للهيمنة على الأمة الإسلامية قيام الوسائل الدعائية الغربية بمؤازرة بعض الأقلام المأجورة برفع الشعارات المغلوطة، والتي يستفيدون منها لمصلحتهم وكما يحبون، وإن كانوا في الواقع من أشد المنتهكين لها، ونذكر الديمقراطية كمثال على ذلك، وكذلك الحرية وحقوق الإنسان، يقول الإمام الخامني دام ظله: "إنهم يتفوهون بالديمقراطية كشعار، وهم يعرفون أن شعوب العالم على علم بذلك غاية الأمر أن السياسة الدعائية في العالم تتركز على الكلام ثم الكلام ثم الكلام والإعادة، هذه هي السياسة الإعلامية والدعائية في العالم، فلا بد أن يتحدثوا ويعيدوا ويكرروا وبالنتيجة سيؤثر ذلك في طائفة من الناس أو يعتاد الناس على الاستماع على أقل تقدير، وإلا فإن هؤلاء لا شأن لهم بحاكمية الشعب، فالكثير من الأنظمة التي تحظى بودهم لا تعرف معنى لرأي الشعب

١ - من كلام للإمام الخامني، في لقاء مع أعضاء مجلس الشورى الإسلامي، ربيع الأول ١٤٢٤هـ - طهران .

أبداءً، وإن شعوبهم لا تعرف بأي حال ما يعنيه التصويت وانتخاب المسؤول في بلادهم! دون أن يعترضوا عليهم، فعندما يتهمون الجمهورية الإسلامية - بالرغم من كل هذه الانتخابات والتواجد الجماهيري في شتى المجالات، وبالرغم من كل معالم ومشاهد حاكمية الشعب التي تسود البلاد - بانعدام حاكمية الشعب وبالاستبداد والدكتاتورية، يصبح من الواضح ما يبغيون...^(١).

د - محاولة إفساد جيل الشباب: ومن الأساليب التي ينتهجها الاستكبار أسلوب الغزو الثقافي لجيل الشباب، هذا الجيل الذي يمثل الرصيد الأكبر لأي مجتمع، وعليه يعول في الإصلاح، واستمرار المسيرة. يقول الإمام الخامنئي دام ظله حول محاولات الاستكبار غزو عقول الشباب: "ما دام العدو قد فهم أن هذا الشعب اتحد ببركة الإيمان، وأنه عثر على قائد لا يهاب القوى الكبرى أبداً ببركة الإيمان، لذلك صار في حال عداء مع إيماننا وإسلامنا من خلال توظيف الوسائل الدعائية والسياسية، ووصمنا بأوصاف يحسب أنها تسيء إلينا، في حين نعدّها مجداً لنا، كقولهم عَنَّا إِنَّا أَصُولِيُونَ. نحنُ نفخر بعودتنا إلى أصولنا الإسلامية، وهاهنا يكمن سرُّ قوتنا.

ولقد تمركزت دعايات الاستكبار العالمي في السنوات الأخيرة للنيل من إيماننا الإسلامي. ولكن شعبنا لن يغضي عن الذين تعرضوا للإسلام والإيمان بأي ضرب من ضروب الإهانة؛ لأنَّ الإسلام هو كل شيء بالنسبة للشعب، إن الإسلام والإيمان الإسلامي هما رصيد عزنا ونصرنا، والإيمان هو الذي يصلح دنيانا وآخرتنا"^(٢).

شعار مقارعة الاستكبار

يؤكد سماحة الإمام الخامنئي دام ظله أن "للشعارات التي ترفع في أي بلد وفي أي نظام أهمية فائقة، والتعامل مع الشعارات المختلفة في أي بلد يحظى بحساسية ورونق

١- من كلام للإمام الخامنئي، في لقاء مع أعضاء مجلس الشورى الإسلامي، ٢٦ ربيع الأول ١٤٢٤هـ - طهران.

٢- من كلام للإمام الخامنئي، في مراسم بيعة أهالي مجموعة من المدن الإيرانية المختلفة مع سماحته،

خاص، وإذا كان ذلك الشعب أو المسؤولون لا يتقنون كيفية التعامل مع الشعارات، فإنهم سيتعرضون لأضرار جسيمة.

وبطبيعة الحال يتناهى إلى الأسماع أحياناً ما يردّده البعض: أن اليوم ليس يوم شعارات وإنما يوم عمل. وهذا الكلام غير صحيح، وإن كان بعض من يتلفظ به تحدوه نية مخلص، ومراده أن البلد لا يمكن إدارته بالشعارات وحدها، وهو كلام صحيح، إذ إطلاق الشعارات لا يُصلح شأن البلد، بل ولا يصلح حتّى شأن قرية ولا يديرها ولا يبنّيها، فلا بدّ إلى جانب الشعار من العمل، إلا أن البعض يفسّر هذا الكلام - عن سداجة - بشكل آخر، أو ربما فسّره البعض الآخر عن غرض، وكأنّهم يريدون الإيحاء إلى الشعب بوجوب التخلّي عن الشعارات وهذا خطأ، فالشعار كالراية، مرشد ودليل، والعمل بلا شعار كالشعار بلا عمل. ولأجل أن يعرف شعب مساره، وما ينبغي له فعله، فلا بدّ له من الحفاظ على شعاراته بصراحة ووضوح، وإذا فقدت الشعارات، يصبح الحال كحال جماعة من الناس تسير في الصحراء من غير دلالة. الخاصية المميّزة للشعار أنّه لا يدع شعباً أو بلداً يسير في الطريق المنحرف، إذن فليكن هذا شعاراً أيضاً: الشعار والعمل، الشعار إلى جانب العمل، والعمل في ظل الشعار^(١).

كيف نقارع الاستكبار؟

النقطة الأساسية تكمن في معرفة الأمور التي نقارع بها هذا الاستكبار، وسنشير فيما يلي إلى العديد منها، والتي أشار إليها سماحة الإمام الخامني دام ظله من خلال توجيهاته المستمرة لأبناء الأمة الإسلامية.

أ- الوحدة والتماسك: من الطبيعي أن منعة القلعة من الداخل تمنع دخول المتسللين إليها، يقول دام ظله: "حافظوا على وحدة الصف وأحيوا ذكرى الإمام والسابقين الأوائل من رجال الثورة، وكذا ذكرى الشهداء العظام، والذكريات الحماسية للثورة

١- من كلام للإمام الخامني، في (١٣ آبان) اليوم الوطني لمقارعة الاستكبار العالمي، ١٧ جمادى الثانية ١٤١٧هـ طهران .

والحرب المفروضة في محيط الحوزات والجامعات وفي ساحات العمل والحياة العامة، فإن أصبح هكذا، فسيتم بفضل الله في العقود المقبلة بناء صرح حضارة رفيعة في إيران وفي أماكن كثيرة أخرى، وستكون للإسلام والمسلمين عظمة ومكانة وقوة لا تبقى أمامها حقيقة وواقع للاستكبار، بل لا يبقى للاستعمار وجود»^(١).

ب - التحلي بالشجاعة: لو شعرنا بالهزيمة قبل أن تقوم المعركة، أو اعترانا الخجل في رفض الطلبات التي يطلبها الاستكبار فسنكون حينئذ مجرد أدوات تخدم مصالحه، وسيدكرنا التاريخ عند ذلك باللغات، وهنا تبرز أهمية الشجاعة في قول كلمة «لا» بأعلى أصواتنا ليفهم العدو أننا من النوع الذي لا تغريه العروض، ولا يُستدرج بأنصاف الحلول، يقول دام ظلّه: «إن الأعداء يضغطون، وهنالك مصاعب يتحتم تحملها من أجل الاستقلال والمحافظة على الهوية الوطنية وتفادي الخجل أمام التاريخ...، لذلك فإن مسؤوليتنا - أنا وأنتم - اليوم في غاية الخطورة، فيجب شق الطريق بعقل وتدبر إلى جانب التوكل على الله والتحلي بالشجاعة وليس الجبن، وأول المهام هو التماسك الداخلي، فلا تدعوا هذه الجدالات والسجلات تتحول إلى مواجهة ونزاع وخصام وهذه وصيتي الوحيدة لكم»^(٢).

ج - اليقظة والحذر: يقول الإمام الخامني دام ظلّه في هذا الإطار: «إن اليقظة والحذر هما من أهم العوامل التي تؤدي إلى إحباط مخططات الأعداء وفشلها، روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «من نام لم يُنم عنه» يعني لا بد لنا من الحذر واليقظة في مقابل المؤامرات التي يحيكها العدو الغادر والحاقد»^(٣).

د - الحفاظ على الالتزام الديني: يقول الإمام الخامني دام ظلّه بعبارة مختصرة ولكنها تتضمن البعد المعنوي الكبير:

١- من كلام للإمام الخامني، في اليوم الوطني لمقارعة الاستكبار العالمي، ٢٧ جمادى الأولى ١٤١٥هـ طهران.
٢- من كلام للإمام الخامني، في لقاء مع أعضاء مجلس الشورى الإسلامي، ٢٦ ربيع الأول ١٤٢٤هـ طهران.
٣- من كلام للإمام الخامني، في الاحتفال بيوم الجيش، ٢ ذي القعدة ١٤١٤هـ طهران.

”إننا إذا سرنا في صراط الله المستقيم والتزمنا طريق التقوى فإن الإمدادات الغيبية الإلهية سوف تتوالى بالنزول علينا لحظةً بعد أخرى؛ لأن الله سبحانه وتعالى يحب عباده الصالحين والمتقين، ويعينهم على قضاء أمورهم“^(١).

* * *

١- من كلام للإمام الخامنّي، في الاحتفال بيوم الجيش، ٢ ذي القعدة ١٤١٤هـ - طهران .

مقاومة العدوان في فكر

العلامة محمد جواد مغنية رحمته الله من خلال تفسير الكاشف

□ الشيخ علي الجمال (*)

تمهيد:

مقاومة الإنسان للعدوان هو أمرٌ فطري ولا يُحتاج إلى الاستدلال عليه إذ يكفي فيه كونه صغرى لدفع المفسدة وجلب المصلحة. ولكن سعيًا إلى استلزام هذا المطلب من آيات القرآن الكريم، كانت هذه المقالة عبارة عن قراءة في فكر العلامة محمد جواد مغنية متّكئةً على تفسيره الكاشف للوقوف على وجهة نظره من المقاومة والعدوان وكيفية مقاومة العدوان والتصدي له، فتّمت الإضاءة على هذه الفكرة ضمن محاور أربعة: فالمحور الأول تناول شرح مصطلحي المقاومة والعدوان كمبادئ تصوّريّة للبحث. ثم تناول المحور الثاني ماهية العدو في تفسير الكاشف حيث تمّ الحديث فيه عن أقسام العدو وصفاته وأساليبه. والمحور الثالث عالج ماهية الجهاد ومسوغاته وأقسامه، والمحور الرابع سلّط الضوء على كيفية التصدي للعدوان وذلك بذكر سبعة أمور مستفادة من تفسير الكاشف وتلقني على كيفية مقاربة العلامة مغنية لهذا الأمر.

من هو العلامة محمد جواد مغنية؟

الشيخ محمد جواد مغنية واحد من أعلام القرن العشرين المميزين. وهو من علماء جبل عامل الذين درسوا في النجف ثم عادوا إلى لبنان وتصدّوا لمعالجة مشكلات

الشباب وهمومهم، فكان يعالج المسائل التي تؤرقهم وتثير قلقهم. ومن الأمور التي كانت تميزه أنه كان يقضي في مكتبته ١٤ إلى ١٨ ساعة^(١) في المطالعة والتأليف. أمام هكذا عالم، فإنه لا يمكن أن تغوص في فكره دون أن يخرج بالآلى من إضاءاته وإشاراتهِ والتفاتاته ومقاربة الآيات القرآنية مع الواقع المعاش. ومع هكذا إنسان على علاقة مباشرة بالأحداث والحياة اليومية للناس، فإن استخراج مقارنته لمقاومة الإنسان للعدوان من خلال تفسيره الكاشف أمرٌ ذو فوائد كثيرة، خاصة أن هذا الموضوع يُلامس حياتنا اليومية ويتوضَّح كل يوم أكثر فأكثر. وسنجد من خلال الموارد التي سيتم التطرق إليها قوة بصيرة العلامة مغنية وتشخيصه للعدو دون مواربة أو خجل، لذا سنشرع في بيان المبادئ التصورية للبحث ومن ثم نغوص في تفاصيله.

أولاً: شرح بعض المصطلحات

١- المقاومة: مصدر قاوم. قال ابن منظور: قاومه في المصارعة وغيرها. وقاوموا في الحرب أي قام بعضهم لبعض^(٢). وذكر في ذيل بيت شعري: يعني أنه قاوم هذا المخاصم في مكان مزل يزلق عنه من قام به، فثبت هو وزلق خصمه ولم يثبت^(٣). فهذه المقاومة المعبرة عن الصمود والثبات والمواجهة هي معنى من معاني الجهاد المستعمل في القرآن؛ لأن مصطلح المقاومة غير مستعمل بمادته في القرآن الكريم. ومن المرادفات للمقاومة والجهاد المستعملة اليوم هي الكفاح والفداء. نعم، كل واحدة فيها مزية عن الأخرى ولكن كلها مستعملة لتفيد معنى الجهاد والمقاومة، فقد ورد مثلاً في كتاب شمس العلوم في معنى الكفاح: المكافحة والكفاح: المقاتلة والمضاربة.^(٤)

١- انظر: مغنية، محمد جواد: في ظلال الصحيفة السجادية، قم المقدسة، دار الكتاب الإسلامي، ١٤٢٨ هـ. ق، ط ٤، ص ١٧.

٢- ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، بيروت، دار صادر، ١٤١٤ هـ. ق، ط ٣، ج ١٢، ص ٤٩٩.

٣- م. ن، ج ١٣، ص ١٦٢.

٤- الحميري، نشوان بن سعيد: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، دمشق، دار الفكر، ١٤٢٠ هـ، ط ١، ج ٩، ص ٥٨٧٠.

٢- العُدَّوَان: قال ابن منظور: العُدَّوَان والاعتداء والعداء، والعدوى والتعدّي: الظلم البراح^(١). وذكر في جمهرة اللغة: وعدا عليه، من العُدَّوَان، يعدو عدوًّا وعدوًّا وعدوًّا، إذا جار.^(٢) وقال في تهذيب اللغة: والعادي: الظالم. يقال لا أشمت الله بك عاديك أي عدوك الظالم لك.^(٣)

ثانياً: العدو

عبّر العلامة مغنية عن العدو في بعض الموارد بـ "المبطلون"، وقد تحدّث في موارد بشكل عام، وفي موارد أخرى كان يسمّي العدو من "دول الاستعمار" إلى "أمريكا" وريبتها "إسرائيل"...

١- أقسام العدو

قد يُظن أن الأصل في العدو أن يكون ظاهراً معلوماً، ولكن العلامة مغنية، وبلاستفادة من آيات القرآن الكريم، خلص إلى وجود قسم آخر، فصار تقسيم العدو عنده كالآتي:

أ- ظاهر.

ب- غير ظاهر.

وصرّح بذلك قائلاً: "قسّم سبحانه أعداء المسلمين إلى نوعين: نوع ظاهر العداء يعرفهم المسلمون بذلك، ونوع غير ظاهر يجهل المسلمون عداوتهم، وإليهم الإشارة بقوله: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾^(٤) وهم كل من يتمنى للمسلمين الفشل والخذلان خوفاً على سلطانه واستغلاله، ومنهم الدول المجاورة كالفرس والروم الذين تغلب المسلمون عليهم حين قوّيت شوكة الإسلام"^(٥).

١- م. ن، ج ٢، ص ٢١٣.

٢- ابن دريد، محمد بن حسن: جمهرة اللغة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٨ م، ط ١، ج ٢، ص ٦٦٦.

٣- الأزهري، محمد بن أحمد: تهذيب اللغة، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢١ هـ، ج ٣، ص ٧٠.

٤- سورة الأنفال، الآية ٦٠.

٥- مغنية، محمد جواد: التفسير الكاشف، قم، دار الكتاب الإسلامي، ١٤٢٤ هـ، ج ١، ط ١، ص ٣٠٠.

٢ - صفات العدو

يمكن ذكر عدة صفات للعدو، وهي:

أ - إضمار الغدر

ب - نقض العهد

ج - ممارسة الجبر والقسوة

د - تذبيح الأبناء واستحياء النساء.

ويمكن استفادة الصفتين الأوليين من قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ^(١)، فقد علّق قائلاً: "إنّ جماعة من الذين كفروا ولا يرجي إيمانهم قد عاهدوا النبي ﷺ على المسالمة وحسن الجوار، ولكنهم أضمروا الغدر ونقضوا العهد أكثر من مرة"^(٢). وصرّح بالصفة الثالثة عندما كان يبحث في الآية الكريمة: ﴿تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾^(٣)، فذكر كتاب الاستراتيجية الأميركية في السياسة العالمية ونقل منه عبارة ثم علّق قائلاً: "ونفّذ القادة في الولايات المتحدة ما جاء في كتاب الاستراتيجية الأميركية، واعتبروه إنجيلهم المقدس دون كتاب الله، ومارسوا جميع أشكال الجبر والقسوة بما فيها حروب الدمار"^(٤)، وأمّا الصفة الرابعة فقد استفادها من قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(٥) عند حديثه عن فرعون، فذكر الفراعنة الجدد قاصداً بهم أميركا وإسرائيل وكيف مشوا على خطى فرعون، فبيّن منهجه قائلاً: "كان فرعون يذبح أبناء بني إسرائيل، ويستحيي نساءهم، وفعلت إسرائيل بأبناء الشعب الفلسطيني أكثر بكثير مما فعله فرعون"^(٦).

١ - سورة الأنفال، الآيتان: ٥٥-٥٦.

٢ - التفسير الكاشف، م. س، ج ٣، ص ٤٩٨.

٣ - سورة الأنفال، الآية ٦٠.

٤ - التفسير الكاشف، م. س، ج ٣، ص ٥٠١.

٥ - سورة يونس، الآية ٩٣.

٦ - التفسير الكاشف، م. س، ج ٤، ص ١٨٩.

٣- أساليب العدو

تتنوع أساليب العدو تبعاً للزمان والمكان والمهمة المطلوبة، ولكن هناك جامع لهذه الأساليب على مرّ الأزمنة هي الكبريات التي تندرج تحتها صُغريات تفرضها الظروف المحيطة. وقد أشار إلى أهمّ هذه الأساليب والتي يمكن اختصارها بمصطلح عصريّ وهو "الحرب الناعمة"، ويمكن الإشارة إلى أمرين أساسيين فيها:

أ- نشر الدعايات المضلّة، أو بعبارة أخرى: التضليل والخداع.

ب- الحرب النفسية.

تعرّض العلامة مغنية عند تفسيره للآية الكريمة: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾^(١) إلى الذين يُتاجرون بالدين والضمير للإضلال عن الحق، وذكر أنّ المثال الأبرز لذلك هي قوى الشرّ، فقال: "وأوضح مثال على ذلك ما تلجأ إليه قوى الشرّ والاستغلال في هذا العصر لتدعيم مكانتها وبثّ دعايتها، حيث تنفق الملايين على الصحف المأجورة لتنتشر الأكاذيب والافتراءات، وتروجّ للخونة والعملاء، وتشكّك بالمخلصين الأحرار، وفوق هذا أنّ تلك الأجهزة الشريرة ألبست عملاءها ثياب أهل الدين ليلصقوا به البدع ويفسّروه بما شاء لها البغي والاستغلال، ويبثّوا الفتن والشقاق بين الطوائف وأهل الأديان".^(٢)

وعندما تعرّض في تفسيره للآية الكريمة: ﴿لَنْ لَمْ يَتَّهِ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾^(٣) ذكر أنّ المرجفين قومٌ من المنافقين كانوا ينشرون الدعايات المضلّة ضدّ النبي ﷺ وقارب ذلك بعصرنا، فقال: "وفي عصرنا يُسمّى الإرجاف بالحرب النفسية، وقد تفنّنت فيها قوى الشرّ، وبلغت الغاية من بثّ الأكاذيب والأباطيل بكلّ وسيلة، بالصحف والإذاعة والتلفزيون وأفلام السينما والخطب والمنشورات والمدارس والجامعات والكتب والقصص وغيرها، وكرّرت

١- سورة لقمان، الآية ٦.

٢- التفسير الكاشف، م. س، ج ٦، ص ١٥٧.

٣- سورة الأحزاب، الآية ٦٠.

هذه الأجهزة الأكذوبة الواحدة على مسامع الناس في كل يوم مرّات ومرّات...^(١) وكذلك ذكر عندما تعرّض للآية الكريمة: ﴿فَاتَّاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾^(٢) بأنّه: "ومن هنا يحرص سفّاحو الشعوب وتجّار الحروب على الحرب النفسية، ويحشدون لها الطاقات والثروات، ونسوا أو تناسوا أنّه لا طريق إلى القلوب إلا الحق والصدق والخير والإحسان، وإذا وجدت الدعايات المضلّلة من يستجيب لها فإلى حين، ثم تتكشف عن عورات صاحبها وأسوائه"^(٣).

وبذلك يكون قد ظهر جلياً أهمية الحرب النفسية عند العدو، إذ تشكّل وسيلة قائمة بنفسها يلجأ إليها في سبيل ضرب صفوفنا من الداخل بكلّ هدوء وانسيابية، إذ يكتفي ببثّ الشبهات والتضليل، فيغرّبها من لا بصيرة عنده ويقع في أفخاخ العدو. وقد قال العلامة مغنية في هذا المضمار عند تفسيره للآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾^(٤): "تذكرت وأنا أفسّر هذه الآية عملاء الصهيونية والاستعمار الذين ينشرون في هذه الأيام الهلع والفرع من قوة إسرائيل، تذكرتهم حيث علمت أنّ لهم أشباهاً ونظائر في الزمان القديم، وأنّ للحرب النفسية جذوراً عميقة في التاريخ، وما هي من بدع الصهيونية والاستعمار، بل شيء بال وعتيق لا ينخدع به إلا ساذج العقل وقاصر النظر"^(٥).

ثالثاً: الجهاد والمقاومة

عبّر العلامة مغنية عن الجهاد بتعابير شتى: المقاومة، الكفاح، الفداء... وقد أشار إلى بعض التعابير التي بيّنها الله سبحانه وتعالى في كتابه وعلى لسان نبيّه عندما ذكر أسباب النصر الطبيعية، فقال: "وحثنا عليها بكلمة الجهاد تارة، والتعاون تارة، وإعداد

١- التفسير الكاشف، م. س، ج ٦، ص ٢٤٠.

٢- سورة الحشر، الآية ٢.

٣- التفسير الكاشف، م. س، ج ٧، ص ٢٨٣.

٤- سورة الأحزاب، الآية ١٣.

٥- التفسير الكاشف، م. س، ج ٦، ص ١٩٩.

العدّة أُخرى، وعدم اليأس حيناً، والصبر والمثابرة أحياناً، وبذل المال واسترخاض كل غال في سبيل الذود عن الدين والوطن، تماماً كما فعل محمد وصحابة محمد ﷺ والذين اتبعوهم بإحسان، وكما يفعل الفدائيون الآن^(١).

ومن المعلوم أنه ليس مطلق قتل وقتال هو مقاومة، بل هو ما كان دفاعاً عن الحق كما هو معروف في أيامنا، فحركات المقاومة أو حركات التحرر - كما قد يُطلق على بعضها - هي عبارة عن تحركات تقوم بها جماعات من الشعب لمناهضة احتلال الأرض أو غير ذلك، وهذا ما يظهر جلياً وما لا يُنكره أحدٌ كبيراً - وإن كان هناك نقاش في الصغريات في هذه الأيام -، فحركة التحرر التي قامت في فرنسا يسمونها المقاومة الفرنسية، وهناك المقاومة الفيتنامية والكوبية^(٢) وفي عالمنا العربي هناك المقاومة الليبية والجزائرية والفلسطينية واللبنانية وغيرها، والجامع بينها أنها كلّها قامت لمواجهة احتلال البلاد.

وقد أشار العلامة مغنية في تفسيره إلى أقسام الجهاد، وعلى من يجب، ومتى يسوغ و... لذا سنحاول ذكرها ضمن عناوين.

١. أقسام الجهاد

يُمكن استخلاص عدّة أقسام للجهاد ذكرها في موارد متعددة؛ فذكر بعضها تصريحاً وبعضها تلويحاً. وبناء على ما استفدناه منه، تمّ الخلوص إلى ثلاثة أقسام:

- أ - الجهاد الشخصي: وهو ذاك الذي يقوم به الشخص للدفاع عن نفسه.
- ب - جهاد الغزو في سبيل الله وانتشار الإسلام.
- ج - الدفاع عن الإسلام وبلاد المسلمين.

١ - التفسير الكاشف، م. س، ج ٥، ص ٢١.

٢ - أنظر: م. ن، ج ٢، ص ٣٧٥.

أما الجهاد الشخصي - أو الفردي -، فقد ذكره عند تفسيره للآية الكريمة: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(١) فقال: "أي: أو غير فساد في الأرض عطفاً على نفس، لا على غير، والمعنى يجوز شرعاً قتل من قتل غيره عدواناً، وأيضاً يجوز قتل من سعى في الأرض فساداً جزاءً وفاقاً، وصيانةً لحياة الناس وأمنهم"^(٢)، ثم أضاف مبيناً التشبيه الذي سيق في ذيل الآية وأنه لماذا استعمله الباري تعالى، ومنه قد يظهر حكمة من حكم الجهاد الفردي ضدّ المفسد: "والذي نفهمه من الآية أنّ الفرد في نظر الإسلام هو غاية بنفسه، لا وسيلة إلى غيره، وأنه ظاهرة إنسانية، له ما لها من الحرمة والكرامة، وأنّ العدوان عليه عدوان على الإنسانية التي تتمثل به وبالناس جميعاً، وأنّ الإحسان إليه إحسان إلى الناس جميعاً"^(٣).

أما التقسيم الثاني والثالث، فقد ذكرهما العلامة عند تفسيره للآية الكريمة من سورة هود: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾^(٤)، فقد نقل بعض الأحاديث عن الأئمة تبين وجوب نصره المؤمن ودفع المنكر ثم أضاف قائلاً: "واستناداً إلى هذه الأخبار وغيرها قسم الفقهاء الجهاد إلى نوعين:

الأول: جهاد الغزو في سبيل الله، وانتشار الإسلام. الثاني: الدفاع عن الإسلام وبلاد المسلمين."^(٥)

ووسّع دائرة الجهاد في سبيل الله عند ذكر الآية الكريمة: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٦) قائلاً: "وكل عمل يسدّ حاجة، أو يدفع ظلاماً فهو جهاد في سبيل الله"^(٧).

١ - سورة المائدة، الآية ٣٢.

٢ - التفسير الكاشف، م. س، ج ٣، ص ٤٧.

٣ - م. ن، ج ٣، ص ٤٨.

٤ - سورة هود، الآية ١١٣.

٥ - التفسير الكاشف، م. س، ج ٤، ص ٢٧٤.

٦ - سورة المائدة، الآية ٥٤.

٧ - التفسير الكاشف، م. س، ج ٣، ص ٧٨.

٢. متى يسوغ الجهاد؟

ذكر أولاً أن الجهاد واجب على كل مكلف حيث نقل كلام صاحب الجواهر: "ودفاع الإنسان عن نفسه واجب، وإن لم يظن سلامتها"^(١) ولم يعلق على ذلك؛ إذ دأبه التعليق إذا كان غير راضٍ عن الكلام. ونقل كلاماً آخر يظهر فيه وجوب الجهاد على كل الناس حتى المرضى وغيرهم ولكن في حالاتٍ معيّنة سنأتي على ذكرها.

ذكر العلامة مغنية ضابطة عامّة عن تسويق الإسلام للقتال، فقال: "إذن، الإسلام سوّغ القتال، حيث سوّغته جميع الشرائع قديماً وحديثاً، وأوجبته جميع العقول"^(٢)، وقد أشار أيضاً إلى أن دعوة محمد ﷺ: "تنادي بالعدل، وترفض الظلم والاستغلال بشتى صورته وأشكاله، وتصدّت للمستغلين من اليهود والمشرّكين بالذات..."^(٣)؛ فالتصدّي للظلم والعدوان ونصرة الحق هي آية من آيات الإسلام وسمة من سماته.

ويمكن الإجابة عن سؤال تسويق الجهاد بذكر مواضع مختلفة من الممكن استفادتها منه:

- أ- إذا كان أصل الإسلام - المعبر عنه ببيضة الإسلام - مهدداً أو بلاد المسلمين.
- ب- في حالة الدفاع عن النفس.
- ج- في حالة الدفاع عن العرض والمال.
- د- في حالة الدفاع عن الآخرين.
- هـ- في حالة الدفاع عن الوطن والحرية ونضال المستعمرين.
- و- من أجل انتشار الإسلام.

١- م. ن، ج ٤، ص ٢٧٥.

٢- م. ن، ج ٢، ص ٤٠٥.

٣- التفسير الكاشف، م. س، ج ٣، ص ١١٤.

وقد ذكره الشيخ الأول عند حديثه عن الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَرْحَمُوهُ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾^(١)، فنقل كلاماً لصاحب الجواهر دون التعليق عليه، والكلام هو التالي: "إذا داهم عدو من الكفار يُخشى منه على بيضة الإسلام، أو يريد الكافر الاستيلاء على بلاد المسلمين، وأسرهم وسبيهم وأخذ أموالهم، إذا كان كذلك وجب الدفاع على الحر والعبد الذكر والأنثى، والسليم والمريض، والأعمى والأعرج، وغيرهم إن احتيج إليهم. ولا يتوقف الوجوب على حضور الإمام، ولا إذنه، ولا يختص بالمعتدى عليهم والمقصودين بالخصوص، بل يجب النهوض على كل من علم بالحال، وإن لم يكن الاعتداء موجهاً إليه، هذا إذا لم يعلم بأن من يراد الاعتداء عليهم قادرين على صدّ العدو ومقاومته، ويتأكد الوجوب على الأقرب من مكان الهجوم فالأقرب"^(٢)، كما ذكر الثاني والثالث والرابع في مورد الآية المتقدمة أيضاً، وكذلك نقل كلاماً لصاحب الجواهر دون تعليق عليه وهو التالي: "ودفاع الإنسان عن نفسه واجب، وإن لم يظن سلامتها، لأنه معرض للخطر على كل حال، أمّا دفاعه عن عرضه وماله فواجب إن غلب على ظنه السلامة بنفسه مخافة أن تذهب النفس مع العرض والمال، وكذا يجب على الإنسان أن يدافع عن حياة الغير وماله وعرضه بشرط أن يغلب على ظنه السلامة بنفسه"^(٣)، وقد ذكر الدفاع عن الحرية والمال والوطن والنفس ونضال المستعمرين عند حديثه عن الآية الكريمة: ﴿فَاتْلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ﴾^(٤) فقال: "أجل، إن جهاد الإنسان ودفاعه عن حريته وماله ووطنه لا يتوقف على وجود دولة إسلامية، ولا يحتاج إلى الإذن من المعصوم وغير المعصوم؛ لأنّ الدفاع عن النفس والوطن، ونضال المستعمرين والمستثمرين حق تقدّسه جميع الشرائع والقوانين"^(٥).

١ - سورة هود، الآية ١١٣.

٢ - التفسير الكاشف، م. س، ج ٤، ص ٢٧٤.

٣ - م. ن، ص ٢٧٥.

٤ - سورة التوبة، الآية ١٤.

٥ - التفسير الكاشف، م. س، ج ٤، ص ١٧.

ويُلاحظ أنّ كلّ أنواع الجهاد والدِّفاع والنِّضال مشروعةٌ ومطلقةٌ، إلّا الجهاد من أجل نشر الإسلام - أي الجهاد الدَّعوي - فإنَّه مقيدٌ بالإذن من الإمام العادل حيث قال العلامة مغنية معلقاً على الآية الكريمة: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾^(١): "أي إنّ الجهاد من أجل الإيمان بالله، والقضاء على الجحود واجبٌ ما دام على وجه الأرض أثرٌ للشرك والإلحاد، فإذا زال الإلحاد، وآمن الناس جميعاً بالله سقط وجوب الجهاد.

وتجمل الإشارة إلى أنّ وجوب الجهاد من أجل انتشار الإسلام مشروطٌ بإذن الإمام العادل، ولا يجوز بحال من غير أمره، أمّا الجهاد دفاعاً عن الدين والنفس فإنّ وجوبه مطلق غير مقيد بشيء^(٢).

٣. عواقب ترك الجهاد

بعدما عرفنا على من يجب الجهاد، ومسوغاته، لا بدّ من لفت النظر إلى عواقب تركه والتخلي عنه؛ ليتّضح بذلك ما قد يطرأ على ذهن البعض بعدم أهميّة الجهاد أو عدم جدوائيته، ويمكن تلخيص عواقبه بالتالي:

أ - إلقاءٌ للنفس في التهلكة.

ب - من ترك الجهاد هو من أولياء الشيطان.

ج - تؤنّبهُ الملائكة.

د - هو خائن للأمانة.

هـ - ألبسه الله ثوب الذلّ في الدنيا.

و - تركُ الجهادِ فسادٌ.

١- سورة البقرة، الآية ١٩٣.

٢- التفسير الكاشف، م. س، ج ١، ص ٢٩٩.

نقل العلامة مغنية في ذيل الآية الكريمة: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(١) قولاً: "إِنَّ معنى لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بترك جهاد أعداء الدين، وبذل المال لتجهيز المجاهدين، لأن ذلك يضعفكم، ويمكن العدو منكم فتهلكون وتذلون..."^(٢) ثم عقب على ذلك مؤكداً على هذا القول، ومقارناً لما حصل في زمانه، فقال: "وهذا ما أثبتته التجارب التي مرّ بها المسلمون، فلقد فقدوا حريتهم وكرامتهم منذ أن تركوا الجهاد والبذل في نصرة الحق والعدل، وطمع فيهم كل غاصب وسالب، حتى عصاة الصهاينة عميلة الاستعمار، فإنها احتلت فلسطين سنة ١٩٤٨، وبعد سكوتهم عنها وعن جهادهم لها عشرين عاماً أغارت على سيناء، والضفة الغربية من الأردن، واحتلتها بمساعدة أمريكا وبريطانيا وألمانيا الغربية، وقتلت الرجال، وشردت النساء والأطفال.. ولو أن المسلمين جاهدوها من قبل لكانوا في منجى من هذه التهلكة، وهذا الذلّ المشين، ولم يكن لدولة إسرائيل عين ولا أثر"^(٣) وقد أشار العلامة إلى القول الثاني عند حديثه عن الآية الكريمة: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٤) فقال: "فإنّ معناه من ترك جهاد أهل الفساد والضلال خوفاً منهم فهو من أولياء الشيطان، وليس من الله في شيء"^(٥)، أمّا القول الثالث فقد ذكره عند تفسيره الآية ٩٧ من سورة النساء قائلاً: "إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ" بترك الجهاد والهجرة إلى دار الإسلام، والرضا بالبقاء في دار الكفر والإذلال والإخلال بواجبات الدين، وتكثير الكافرين وتقليل المؤمنين ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾^(٦) أي قال ملائكة الموت للذين تركوا الهجرة: في أي شيء كنتم؟.. وليس هذا سؤالاً في واقعه، وإنما هو تأنيب وتوبيخ، وبديهة أن التأنيب يكون على شيء واقع ومعلوم، وهو هنا تخلّفهم عن إخوانهم

١- سورة البقرة، الآية ١٩٥.

٢- التفسير الكاشف، م. س، ج ١، ص ٣٠١.

٣- م. ن، ج ١، ص ٣٠١.

٤- سورة آل عمران، الآية ١٧٥.

٥- التفسير الكاشف، م. س، ج ٢، ص ٢٠٨.

٦- سورة النساء، الآية ٩٧.

المهاجرين الذين أطاعوا الرسول في تنفيذ خطته لتحطيم الشرك وإعلاء كلمة الله^(١)، وقد شرح القول الرابع حين ذكر أنواع الأمانة في تفسيره للآية الكريمة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾^(٢) قائلاً: "وليست خيانة الله والرسول بترك لصوم والصلاة فقط، وإنما الخيانة العظمى هي خيانة الأمة والوطن، هي أن يتولى الطغاة مركز القوة والقيادة، ويتحكموا بالبلاد ومقدراتها، وأن نصبر عليهم وعلى طغيانهم، ونسكت عن حربهم وجهادهم ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَتَكُمْ﴾ أي: ولا تخونوا أماناتكم. وقال كثير من المفسرين: إن هذا نهى عن خيانة الأمانة فيما بين الناس من المعاملات المالية.. وليس من شك أن رد الأمانة واجب، وأن خيانتها حرام، ولكن من الخيانة، بل من أعظمها عدم التعاون مع المستضعفين لاسترداد حقوقهم من الأقوياء الظالمين ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ولا أحد أجراً على الله ممن يقدم على معصيته عالماً متعمداً."^(٣)

وتطرق العلامة إلى القول الخامس لعواقب ترك الجهاد عند تفسيره الآية الكريمة: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾^(٤)، فقال: "أشفقوا على أنفسهم من حر الدنيا، ولم يُشفقوا عليها من نار جهنم، وهي أشد حراً، وأطول أمداً.. هذا، إلى أن من ترك جهاد الطغاة ألبسه الله ثوب الذل في الدنيا، وسيم الخسف ومُنْع النصفة.. وما غزي العرب والمسلمون في عقر دارهم إلا حين تواكلوا وتخاذلوا، وآثروا الخزي والمذلة على الاستشهاد من أجل العزة والكرامة"^(٥) وقد ذكر القول السادس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٦) فقال: "ظاهر اللفظ يدل على أن المعنى ولا تفسدوا في الأرض مفسدين، لأنّ العثو والفساد بمعنى واحد، فوجب إما تأويل كلمة العثو بالسعي، ويكون المعنى ولا تسعوا في الأرض

١ - التفسير الكاشف، م. س، ج ٢، ص ٤١٨.

٢ - سورة الأنفال، الآية ٢٧.

٣ - التفسير الكاشف، م. س، ج ٣، ص ٤٦٩.

٤ - سورة التوبة، الآية ٨١.

٥ - التفسير الكاشف، م. س، ج ٤، ص ٧٧.

٦ - سورة هود، الآية ٨٥.

مفسدين، وإما تأويل كلمة مفسدين بمتعمدين، ويكون المعنى ولا تفسدوا في الأرض متعمدين أو معتدين، وذلك بأن تثيروا الحرب وتسفكوا الدماء بلا سبب موجب، أما إذا كانت الحرب للقضاء على الفساد والحرب فيكون تركها، والحال هذه، هو الفساد، ومن هنا كان الجهاد من أفضل الطاعات، وهذا التأويل أرجح من غيره^(١).

رابعاً: كيفية التصدي للعدوان:

بعد أن تبلور معنى العدو ومعنى الجهاد أو المقاومة وما يتصل بكلّ منها، كان لا بدّ من الانتقال إلى مرحلة أخرى وهي كيفية التصدي للعدوان وكيفية مواجهة الإنسان له؟ لذا سنستعرض فيما يأتي أساليب التصديّ تبعاً لما ذكره العلامة مغنية في تفسيره الكاشف، وبتتبع تلك الموارد نجد عدّة أمورٍ منها:

١. الروح المعنوية والعزم

إحدى أهم الوسائل التي يعتمد عليها العدو في حربه أو في مواجهته لخصمه هي الحرب النفسية. وقد تقدّم الحديث عنها، لذا كان لا بدّ من وجود أسلوب يتمّ التصديّ به لهذه الحرب القاسية، والتي يسيطر العدو على أدواتها من وسائل إعلام وصحف ومجلات، إضافة إلى التطور التكنولوجي في أيامنا هذه من محطات بثّ فضائي ووسائل تواصل اجتماعي وغيرها العديد من الوسائل التي يستحدثها تبعاً لتغيّر ظروف الزمان. فقد ذكر العلامة مغنية عند تفسيره للآية الكريمة: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾^(٢) كيفية التصديّ لهذه الحرب فقال: "من أهمّ ما يحرص عليه القائد الحكيم أن تكون الروح المعنوية في جُنده قوية عالية، وأن يدرأ عن أنفسهم الوهن والخوف؛ لأنّ الغلب لا يرجع إلى القوّة فحسب، وإنما يرجع قبل كلّ شيء إلى الثبات وقوّة العزيمة .. إنّ عدوك يخشى من عزمك وتصميمك على مقاومته أكثر من تسليحك بأفتك الأسلحة،

١- التفسير الكاشف، م. س، ج ٤، ص ٢٥٨.

٢- سورة آل عمران، الآية ١٣٩.

لأن هذه لا تجدي نفعاً، مع عدم العزم والتصميم على المقاومة، وقد رأينا صحف الاستعمار وإذاعاته وعملاءه يثّون الدعاية له وللصهيونية عن طريق الحرب النفسية، وتفتيت عزيمة العرب، والتشكيك في مقدرتهم على المقاومة .. إن احتلال النفوس هو الركيزة الأولى للاستعباد، واحتلال البلاد؟^(١) وبالتالي فإنّ انهزام هذه الروح المعنوية والوهن هو الذي يقتل مقاومة العدوان ومواجهته فتبتلى بالانهيار والانكسار. وقد قال في تفسيره للآية الكريمة: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾^(٢): "لقد أثبتت الحوادث أنّ من وهن أمام عدوّه وتهيب سطوته، وخاف مجابهته فقد زوّده بالسلاح الذي يقتله به ويخضعه لأمره، قال الإمام علي عليه السلام: قرنت الهيبة بالخيبة، والحياء بالحرمان.^(٣) والسياسة الحكيمة في الحرب عند قادتها وأهل الاختصاص أن لا ينهار الإنسان أمام عدوّه، وأيضاً أن لا يستهين بقوته، بل يعدّ له العدة ويجابهه بثبات مستهيناً بكل ما يصيبه من مشاق وآلام، وقد رسم القرآن الكريم هذه السياسة بقوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ أي لا تنهاروا أمام أعدائكم وتستسلموا لقوتهم وطغيانهم، وبقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾^(٤) أي: لا تستهينوا بقوتهم، واحشدوا لحربهم كلّ ما تملكون من طاقات بشرية واقتصادية"^(٥).

٢. وحدة الصف

عندما فسّر العلامة مغنية آية: ﴿وَأَنْتُمْ أَلْعَلُونَ﴾^(٦) قال: "إذا كنتم صفّاً واحداً، ويداً واحدة على عدوّ الله وعدوكم وإلا فشلتكم وذهبت ريحكم كما نصّت الآية ٤٦ من

١- التفسير الكاشف، م. س، ج ٢، ص ١٦٣.

٢- سورة محمد، الآية ٣٥.

٣- الشريف الرضي، محمد بن حسين: نهج البلاغة (صبحي، الصالح)، قم، الهجرة، ١٤١٤ هـ، ط ١، ص ٤٧١.

٤- سورة الأنفال، الآية ٦٠.

٥- التفسير الكاشف، م. س، ج ٧، ص ٧٨-٧٩.

٦- سورة الأنفال، الآية ٦٠.

سورة الأنفال^(١)..^(٢)، وقد ذكر أيضاً عند تعرضه للآية الكريمة: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾^(٣) تحت عنوان الدولة الإسلامية ما يلي: "لقد عانى المسلمون الكثير من الهزائم والإذلال، وكفى بهزيمة ٥ حزيران^(٤) وهنا وإذلالاً، والسبب الأول والأخير هو التمزق والتفرق، والعلاج معروف عند الجميع، وهو الوقوف صفّاً واحداً ضدّ العدوّ المشترك الذي حدّته حرب حزيران، وأبرزته واضحاً للعيان، فمن أخلص لله وأراد النصح للإسلام والمسلمين حقّاً وصدقاً فعليه أن يحصر جهوده كلّها في العمل من أجل تعاون المسلمين على الخلاص والتحرّر من القوى الفاسدة الداخلية والخارجية، ومتى تمّت التصفية وتحقّقت الحرية الكاملة فكّر المخلصون في دولة إسلامية أو غيرها مما فيه لله رضا، وللمسلمين صلاح."^(٥) وكذلك أشار إلى هذا المعنى عندما تعرّض للآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرصُوصٍ﴾^(٦) فذكر أنّه: "محكم ثابت كأنه بُني بالرصّاص"^(٧) ثم قال: "ومن نافذة القول: إنّ الله سبحانه يحبّ تماسك الجماعة وتعاضدها في كلّ ما يعود عليها بالخير والصلاح"^(٨)، ومما لا شك فيه أنّ التعاون والتماسك ووحدة الصفّ من الأمور التي

١- ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَوَّعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

٢- التفسير الكاشف، م. س، ج ٧، ص ٧٩.

٣- سورة محمد، الآية ٧.

٤- "حرب ١٩٦٧ وتعرف أيضاً في كلّ من سوريا والأردن باسم نكسة حزيران وفي مصر باسم نكسة ٦٧ وتُسمّى في إسرائيل (الكيان الصهيوني الغاصب) حرب الأيام الستة هي الحرب التي نشبت بين إسرائيل (الكيان الصهيوني الغاصب) وكلّ من مصر وسوريا والأردن بين ٥ حزيران/يونيو ١٩٦٧ والعاشر من الشهر نفسه، وأدّت إلى احتلال إسرائيل (الكيان الصهيوني الغاصب) لسيناء وقطاع غزة والضفّة الغربية والجولان وتعتبر ثالث حرب ضمن الصراع العربي الإسرائيلي." انظر: ١٩٦٧- <https://ar.wikipedia.org>، تاريخ الزيارة: ٢٠١٨/٠٦/٠٤.

٥- التفسير الكاشف، م. س، ج ٧، ص ٦٥.

٦- سورة الصف، الآية ٤.

٧- التفسير الكاشف، م. س، ج ٧، ص ٣١٣.

٨- م. ن.

تعود بالنفع إلى الأمة جمعاء لا سيما عند ترئص العدوان بها ومحاولته تمزيق أوصالها، فإنّ ذلك يحول دون نجاح مخططات الاستعمار، وإنا فالمآل إلى الهزيمة والانكسار.

٣. الفدائيون

الفداء هو تعبير آخر عن الجهاد والمقاومة والاستعداد للاستشهاد في سبيل القضية الحقّة التي دفعته للقيام بهذا العمل. قال في تفسيره للآية الكريمة: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾^(١): "ولكن إذا نظرنا إلى سيرة الأصحاب الخلص وبطولاتهم في الجهاد والفداء من أجل الدين، وسيطرته على مشاعرهم، وكيف استهانوا بالحياة طلباً للاستشهاد، حتى أنّ من كان ينجو من القتل، ويرجع من الجهاد سالماً يرى نفسه شقياً سيئ الحظّ..."^(٢) ومع مرور الأيام، بات مصطلح الفدائيين يُطلق على المجاهدين ضدّ الاستعمار لا سيما ضدّ العدو الصهيوني، وخصوصاً على الفلسطينيين منهم.

فبعد أن كان العلامة يفسّر الآية ١٠٠ من سورة النساء: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ تعرّض إلى مقارنة بين هجرة الرسول ﷺ من مكة المكرمة وهجرة الفلسطينيين من الأرض المقدسة، ثم ختم هذا العنوان قائلاً: "ونختم هذه الكلمة بالتحية والإكبار لأبنائنا الفدائيين الأشاوس الذين ضربوا أروع الأمثلة للبطولة والفروسية، والفداء والتضحية في أرضنا المحتلة، وأثبتوا للعالم كلّه أننا في مستوى عصر الكفاح والنضال من أجل الحرية والكرامة"^(٣) وقد وصفهم أيضاً بقوله: "...في هذا الوقت الذي يقضّ فيه الفدائيون مضجع إسرائيل، ويقلقون راحتها، ويعبّرون عن إرادة كلّ حرٍّ، ورغبة كلّ مخلص في تحرير الأرض المحتلة."^(٤) وقد

١- سورة البقرة، الآية ٢١٦.

٢- التفسير الكاشف، م. س، ج ١، ص ٣٢٣.

٣- م. ن، ج ٢، ص ٤٢٣.

٤- م. ن، ج ٣، ص ٤٩٢.

دافع عن الفدائيين كثيراً فأفرد مطلباً للرد على من يقول بأنّ الفدائيين مخربون، وذلك عند تفسيره للآية ٤٩ من سورة الأنفال: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وعند رده على من يدعي ذلك، فقد سأل من ينعتهم بذلك مستنكراً لماذا هذا النعت: "ألأنهم متمسكون بحقهم، وفي سبيله يقتلون ويقتلون، أو لأنهم غيروا وبدّلوا اسم اللاجئين باسم الفدائيين؟ (...) وأي دين من الأديان يحرم التضحيات من أجل دفاع الإنسان عن وطنه وإرادة الحياة فيه حرّاً كريماً، وإن عظم الثمن؟"^(١) وقارن ما يقوم به الفدائيون بالسرايا التي كان يرسلها رسول الله ﷺ لتقطع الطريق على أعدائه المشركين، وتنهب أموالهم، وتقتل وتأسر رجالهم، وتسلبهم الراحة والأمن في ديارهم"^(٢).

٤. النفير العام

وهو أحد الوسائل التي يتم الاعتماد عليها لمواجهة العدوان لا سيما إذا كان على نطاق واسع، وهو نوع من الجهاد والمقاومة، ولكن الشريحة المخاطبة فيه هي كافة الناس، وأشار إلى ذلك قائلاً: "أما الأصحاء منهم فيُنظر: فإن قعدوا عن الجهاد الذي وجب عليهم وعلى غيرهم، كما في النفير العام فإنهم غير معذورين، بل مَلُومين مستحقّين للعقاب؛ لأنهم تمرّدوا وعصوا"^(٣) ولقد ذكر ذلك صراحةً أيضاً عند تفسيره للآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾^(٤) فقال: "هذه الآية من آيات الحث على الجهاد، وسبق منها كثير، وما يأتي أكثر، ولكن هذه الآية توجب النفير العام، وحشد الأمة كلّها إلى الحرب، إن أحوج الحال .. وإن دلّ هذا الاهتمام على شيء فإنما يدلّ على ما كان للإسلام من أعداء، يدبرون له المكائد والمصائد، وما للمسلمين من خصوم يناصبونهم ويفتنونهم عن دينهم .. وإلى اليوم يقاسي الإسلام

١ - التفسير الكاشف، م. س، ج ٣، ص ٤٩٣.

٢ - م. ن.

٣ - التفسير الكاشف، م. س، ج ٢، ص ٤١٣.

٤ - سورة النساء، الآية ٧١.

والمسلمون الكثير من أهل الكفر والطغيان، فمن الطبيعي - إذن - أن يحث الله سبحانه المسلمين على الحذر والتعرف على قوة العدو والاستعداد له بسلاح أمضى وأقوى.^(١) وكذلك ذكر هذا الأمر عند تفسيره للآية الكريمة: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾^(٢) فقال: "هذا هو الداء الشافي والعلاج السليم .. النفير العام، والجهاد الشامل سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، أما أنصاف الحلول فخضوع واستسلام للظلم والعدوان"^(٣)، وقد ذكر ذلك في مواضع أخرى أيضاً^(٤).

٥. الثورة

ذكر تعريف الثورة عند تفسيره للآية الكريمة: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(٥) فقال: "ويعنون بالثورة تعاون المخلصين ونضالهم ضدّ التخلف والأوضاع الفاسدة"^(٦) وهذه الثورة، وكذا الروح الثورية، هي التي تقضّ مضجع العدو وتورقه وتجعله يحسب كل الحسابات قبل المواجهة. وقد صرح بذلك عند تفسيره للآية الكريمة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٧) فقال: "أما نحن فنرى أنّهم قد عقلوا الإسلام، وأدركوا أهدافه، وأنّ الذين حاربوه إنّما حاربوه لأنّهم أدركوا خطره على منافعهم وامتيازاتهم .. فلقد أدركوا أنّ الإسلام ثورة على الظلم والاستغلال، وعلى الفقر والتخلف، وعلى تقسيم الناس إلى سيّد ومسود، وأنّه لا فضل لمخلوق على غيره إلا بخدمة الناس، والعمل لصالحهم ومنافعهم .. هذا هو ذنب الإسلام عندهم، ومن أجله حاربوه بجميع ما يملكون من وسائل، حتى الهزء

١ - التفسير الكاشف، م. س، ج ٢، ص ٣٧٤.

٢ - سورة التوبة، الآية ٣٦.

٣ - التفسير الكاشف، م. س، ج ٤، ص ٤٠.

٤ - التفسير الكاشف، م. س، ج ٤، ص ٤٦-٤٧.

٥ - سورة المائدة، الآية ٢.

٦ - التفسير الكاشف، م. س، ج ٣، ص ٨.

٧ - سورة المائدة، الآية ٥٨.

والسخرية.^(١) وقال في موضع آخر مؤكداً على جدوائية الثورة فيما لو استمرت وأكملت طريقها: "وعلى أية حال، فإن الثورة تواصل الزحف ولا بد أن تصل وتنتصر على الاستعمار وعملائه آجلاً أو عاجلاً"^(٢) وكذلك علّق عند تفسيره للآية الكريمة: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾^(٣) بقوله: "أنكروا رسالة محمد ﷺ رغم البينات والدلائل .. لأنها حرب وثورة على الظلم والطغيان، وعلى كل تقليد يحول دون الإنسان وحرية وأمنه وسعادته"^(٤) وبالنتيجة، فإن الثورة التي تربك العدو وتجعله يراجع حساباته هي علاج ناجع وفعال في التصدي للعدوان ولأشكاله.

٦. معرفة العدو

ممّا لا شك فيه أنّ وسائل العدو قد اختلفت مع مرور الزمان. ومن المعلوم أيضاً أنّ العدو كان ولا يزال وسيبقى يتربّص بالأحرار والمؤمنين شرّاً ويحاول اختراقهم والتفنن في محاربتهم. فإذا كان الحال كذلك، فلا بدّ للمؤمنين أن يكونوا يقظين ويتابعوا تطوّر عدوّهم وتنوّع أساليبه واختلافه؛ ليتمكّنوا من التصديّ والمواجهة عندما تدعو الحاجة لذلك. وقد نبّه العلامة مغنية إلى ذلك عند تعرّضه لتفسير الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾^(٥) فقال: "وإلى اليوم يقاسي الإسلام والمسلمون الكثير من أهل الكفر والطغيان، فمن الطّبيعي - إذن - أن يحثّ الله سبحانه المسلمين على الحذر والتعرّف على قوة العدو والاستعداد له بسلاح أمضى وأقوى"^(٦) ثم أضاف قائلاً تحت عنوان "الحرب بين الأمس واليوم": "كانت الحرب فيما مضى بالرجال، وتعبئة الجنود والكتائب، أمّا اليوم فقد أصبح العلم قوّة في كلّ ميدان، وحوّل السيف والرمح،

١ - التفسير الكاشف، م. س، ج ٣، ص ٨٥

٢ - م. ن، ص ٤٩١.

٣ - سورة الرعد، الآية ٤٣.

٤ - التفسير الكاشف، م. س، ج ٤، ص ٤١٧.

٥ - سورة النساء، الآية ٧١.

٦ - التفسير الكاشف، م. س، ج ٢، ص ٣٧٤.

وغيرهما من أدوات الحرب إلى صواريخ موجهة، وقاذفات القنابل، وغواصات نووية، ودبابات برمائية، وحاملات طائرات، وغازات سامة، ومخترعات للتجسس جواً وبراً وبحراً^(١).. إلى ما لا يعلمه إلا الله والراسخون في علم التخریب والتدمير^(٢) ثم ذكر أساليب العدو واستغلاله للعلم في سبيل اختراع آلات الحرب والدمار والاستفادة من كل ما من شأنه أن يسيطر علينا، ثم سأل عن كيفية المواجهة وأجاب: "لا شيء- ونحن الآن على ما نحن- إلا أن نعرف من هو عدونا؟ وما هي قدرته؟ ونحذر منه ومن أساليبه وألاعيبه، ولا نطمئن إليه في شيء، وأن نتعلم من أخطائنا، ونتحرر من الخونة، ونعمل جاهدين يداً واحدة على تقويتنا في شتى الميادين، وبهذا نستطيع أن نقف في وجه العدو.. وعلى الأقل لا يصل بنا الأمر إلى الحد الذي وصلنا إليه الآن"^(٣) ثم إنه أشار في موضع آخر بأن صاحب القرار في الحرب هو القائد الأمين الذي يكون على معرفة بالعدو وبجهيزاته وإمكانياته ولا يرجع بذلك إلى رجال الفقهاء لأن صاحب القرار هو من يكون على احتكاك ومعرفة بالعدو، فقال: "وقد أفتى الفقهاء بتحريم الفرار من الزحف إلا إذا كان عدد جيش العدو أكثر من ضعف عدد جيش المسلمين.. وفي رأينا أن الفقهاء لا يملكون هنا الفتوى بوجوب الثبات، ولا بجواز الفرار، وأن الأمر في ذلك يجب أن يترك لتقدير القائد الأمين الخبير، لأنه هو المسؤول عن الحرب، وليس الفقهاء، فيجب أن يترك له تقدير وجوب الثبات أو الفرار، فقد يرى الثبات مع زيادة عدد العدو ثلاثة أضعاف، وقد يرى لزوم الفرار والانسحاب من المعركة مع زيادة عدد المسلمين أضعافاً مضاعفة، لأن الثبات عملية انتحارية، وفي جميع الحالات يجب الأخذ بقوله، لا بقول الفقهاء الذين يفتنون، وهم على الوسائد

١- يدور الآن ٤٠ قمراً صناعياً حول الأرض بحجة بحوث الفضاء، ومهمتها في الواقع التجسس، والأمريكا وحدها ٣٠ سفينة للتجسس، و ألفا محطة على الأرض للغلاية نفسها. (منه)

٢- التفسير الكاشف، م. س، ج ٢، ص ٣٧٤-٣٧٥.

٣- م. ن، ج ٢، ص ٣٧٥.

مَتَكُون .. هذا، إلى أن قول الفقهاء في الحروب قد ذهب بذهاب وقته الذي كانت تُقاس فيه القوة بالكم لا بالكيف، وبعدد الجيش لا بمعداته الجهنمية الحديثة^(١).

٧. التهيؤ وإعداد العدة

الدنيا هي واحدة من العوالم التي لا بد للإنسان أن يمرّ بها، وهي دار الاختبار والامتحان. ومن لوازم هذه الدنيا هي المادية؛ لذا فإنّ أحد أبرز وسائل التصديّ للعدوان في هذه الدنّيا، إضافة إلى البعد المعنوي الذي لا بدّ من تحصيله، هو التهيؤ والاستعداد المادي لمواجهة العدوان. وقد أنزل الله سبحانه وتعالى آية واضحة في محكم كتابه الكريم تأمر صراحةً بالاستعداد من هذه الجهة حيث قال عزّ من قائل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾^(٢)، فعلق العلامة مغنية قائلًا: "وفي هذه الآية أمر الله سبحانه المسلمين بإعداد القوة واستكمال العدة للأعداء، والمراد بالقوة كلّ ما يُتقوَّى به على العدو رمحاً كان، أو صاروخاً، أو أيّ شيء.. وخصّ سبحانه الخيل بالذكر، لأنّها كانت من أعظم مظاهر القوة آنذاك، ورؤي عن النبي ﷺ أنّه تلا هذه الآية، وقال: ألا إنّ القوة الرمي، ألا إنّ القوة الرمي، ألا إنّ القوة الرمي^(٣) كرّرها ثلاثاً، والقصد بيان أهمية الرمي وتأثيره في الحروب وقد أثبت تاريخها صحة هذه النظرية التي نطق بها الرسول ﷺ منذ أكثر من ألف وثلاثمائة سنة، حيث لا قاذفات قنابل ولا صواريخ موجهة، وقد اتجهت عباقره العقول في كل عصر إلى تقوية الرمي وتطويره من السهم إلى الرصاص، ومنه إلى القنابل، ومنها إلى الصواريخ والقذائف الذرية والهيدروجينية .."^(٤) وقد ذكر الترغيب في إنفاق المال

١- م. ن، ج ٣، ص ٤٦١.

٢- سورة الأنفال، الآية ٦٠.

٣- ابن إدريس، محمد بن أحمد: السرائر الحاوي لتحرير الفتاوي، قم، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة

المدرسين بقم، ١٤١٠ هـ ق، ط ٢، ج ٣، ص ١٤٦.

٤- التفسير الكاشف، م. س، ج ٣، ص ٥٠٠.

لإعداد القوة الرادعة للعدوان عندما كان يفسر الآية الكريمة: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(١) فقال: "وقيل: إن معنى لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بترك جهاد أعداء الدين، وبذل المال لتجهيز المجاهدين، لأن ذلك يضعفكم، ويمكن العدو منكم فتهلكون وتذلون.. وهذا ما أثبتته التجارب التي مرَّ بها المسلمون، فلقد فقدوا حريتهم وكرامتهم منذ أن تركوا الجهاد والبذل في نصرة الحق والعدل، وطمع فيهم كل غاصب وسالب..."^(٢).

٨. محرمات القتال في نظر الإسلام

على الرغم من تجويز الإسلام للدفاع والجهاد وحثه عليه في مواضع كثيرة لا سيَّما لدفع الظلم والعدوان المحدث والمتربص للشعوب الشرور، إلا أن شريعة الإسلام السمحاء لم تترك الأمور على عواهنها، فهي لا تبيح تدمير كل شيء عند العدو من زرع وماشية وغيرها من الصناعات و... فالإسلام دين له ضوابط حتى في القتال والحرب. وقد أشار العلامة مغنية إلى ذلك عندما كان يفسر الآية الكريمة: ﴿وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾^(٣) فقال: "الحَرْثُ الزرع، والنَّسْلُ ما تناسل من الحيوان، والمراد بهما جميع المصالح الاقتصادية من زرع وصناعة وماشية، ومواد أولية، وما إليها مما يتصل بحياة الناس ومعيشتهم، وإنما خصَّ الزرع والماشية بالذكر، حيث لم يكن للصناعة وتوابعها أهميتها وخطرها آنذاك كما لها اليوم.

وحرمة هذه المقدرات في نظر الإسلام، تماماً كحرمة الدماء، ومن اعتدى على شيء منها فقد اعتدى على الإنسانية نفسها، حتى ولو كان ذلك ملكاً للعدو المحارب، فلقد نهى رسول الله ﷺ عن قطع الأشجار، والتعرض للزرع والعمار، وعن إلقاء السموم في بلاد المشركين أيام الحرب وغيرها.. ولو قارنا بين شريعة الإسلام، وبين ما

١ سورة البقرة، الآية ١٩٥.

٢ التفسير الكاشف، م. س، ج ١، ص ٣٠١-٣٠٢.

٣ سورة البقرة، الآية ٢٠٥.

تفعله الدول الاستعمارية «المتحضرة!» اليوم، وما تشنه من الحروب الكيماوية على ما تنبته الأرض من زرع وأشجار، ويدبّ عليها من إنسان وحيوان، ومن تسميم الجوّ بالقنابل الذريّة، وإلقائها على النساء والأطفال، لو قارنا بينهما لعرفنا إنسانية الإسلام وعدالته ورحمته، وتوحّش الغرب، وإفراطه في الظلم والاعتصاب^(١).

وهناك أسلوب تشترك فيه الأمور المذكورة ولكن له أكثر من صورة، وقد ذكره عند تفسيره لمعنى الدفع بالأحسن الوارد في الآية الكريمة: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾^(٢) فقال: "إنّ الدّفاع يختلف باختلاف الموارد، فقد يكون استعمال القوة والعنف لردع المعتدي دفاعاً بالأحسن، وذلك إذا كان المعتدى عليه يملك القوة الرّادعة، وكان السكوت عن المسيء يغريه بالإساءة والعدوان، قال الإمام علي عليه السلام: الوفاء لأهل الغدر غدر، والغدر بأهل الغدر وفاء^(٣).. وقد يكون السكوت عن المعتدي والصبر على أذاه دفاعاً بالأحسن إذا أدّى الإغضاء عنه إلى ندمه وتوبته من إساءته، أو كان المعتدى عليه عاجزاً عن الردع.. فإنّ المقاومة = وهذه هي الحال = تحدث ما لا تحمد عقباه من تمادي المعتدي في غيّه وغير ذلك من ردود الفعل"^(٤)، وهناك سبب آخر غاية في الأهمية ويلعب دوراً أساسياً في التصدي للعدو وهو تحصين الساحة الداخلية من إفشاء الأسرار، فقد ذكره في تفسيره قائلاً: "ولا شيء أضرّ على الأمن الداخلي والخارجي من إفشاء الأسرار العسكرية، بخاصة مع عدم تثبت المذيعين من صدق الخبر، فإنّ الكثير من أنباء الحرب يختلقها ويروجها العدو بقصد الاستفادة منها، وإشاعة الفتن والفتن والقتل في صفوف المسلمين."^(٥) وقد ذكر العلامة مغنية أيضاً أسلوبين

١ - التفسير الكاشف، م. س، ج ١، ص ٣٠٩.

٢ - سورة المؤمنون، الآية ٩٦.

٣ - نهج البلاغة (الصبحي صالح)، م. س، ص ٥١٣.

٤ - التفسير الكاشف، م. س، ج ٥، ص ٣٨٧.

٥ - م. ن، ج ٢، ص ٣٩١.

للتعاطي مع العدو في الحرب وذلك في تفسيره للآيتين الكريمتين: ﴿فَإِمَّا تَثَقَّفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾^(١) فقال فيما يتعلق بالآية الأولى: "الخطاب للنبي ﷺ بين الله فيه حكم هؤلاء الكفرة الغدرة، وأنه إن ظفر بهم فليقس عليهم، حتى يتعظ بهم غيرهم ممن تراوده نفسه بالخيانة والغدر"^(٢)، وأما بالنسبة للآية الثانية فقال: "المراد بالخوف هنا العلم، وعلى سواء أي تكون أنت وهم سواء في العلم بنقض العهد، والمعنى إذا كان بينك يا محمد وبين قوم عهد، وعلمت يقيناً أنهم خائنون بظهور أمارات قاطعة على أنهم يُضْمِرُونَ الغدر والاعتيال، ويتخذون من العهد ستاراً يدبرون من ورائه المكر السيء، إذا كان كذلك فألقِ إليهم عهدهم، وأعلمهم أنك قد نقضته، بحيث تكون أنت وهم في العلم بالنقض سواء، ولا تبدأهم بقتال قبل أن تعلمهم بذلك كي لا تُنسب إلى الغدر والخيانة"^(٣).

وفي نهاية المطاف لا بدّ من الإشارة إلى أنّ العلامة محمد جواد مغنية قد أشار في تفسيره الكاشف إلى عوامل النصر وكيفية تحقيقه إلّا أنّ ذلك ليس موضع البحث هنا.

النتيجة:

- ذكر الشيخ مغنية مصاديق كثيرة للعدو: دول الاستعمار، أميركا، إسرائيل، انكلترا،... ففي أغلب الأحيان كان الشيخ مغنية يطبق بعض الموارد المذكورة في الآيات على المصاديق مباشرة لئلفت إلى أنّ هذا هو العدو الحقيقي الذي لا بدّ من مواجهته والتصدي له. ولعله كان ذكره للمصاديق بعينها كي لا يُلبس الأمر على من لا بصيرة له أو من لديه الكثير من الشبهات.

١- سورة الأنفال، الآية ٥٧-٥٨.

٢- التفسير الكاشف، م. س، ج ٣، ص ٤٩٩.

٣- م. ن.

- صرّح العلامة بأنّ دول الاستعمار هي التي أسّست الكيان الغاصب المسمّى بـ"إسرائيل" حيث ذكر ذلك في الجزء الثاني في الصفحة ٣٤٦: "إنّ دول الاستعمار هي التي صنعت إسرائيل لحماية مصالحها في الشرق، وليس لليهود من الدولة إلا الاسم".
- عندما ذكر صفات العدو وأساليبه كان يستفيد من الآيات والموارد التي وردت فيها مثلاً للإضاءة على الأعداء في زمن النبي ﷺ أو غيره ثم ينتقل بعدها للإشارة بأنّ ما ورد غير مختصّ بهذا المورد، ولا تستغربوا فإننا نعيش تلك النظائر ونشاهدها بأعيننا.
- أساليب العدو جوهرها واحد يختلف بحسب التطور الذي طرأ عليها كي يتناسب مع مقتضيات الزمان. وأبرز أساليبه هو الحرب النفسية التي كان لها شكل معيّن ثم تغيّرت لتشمل الراديو والتلفزيون و...
- دول الاستعمار وحوش مفترسة تردد شعارات السلام والحرية في نفس الوقت الذي تضرب فيه الشعوب المستضعفة بالمدافع وقنابل النابالم، هكذا وصفها في الجزء الرابع في الصفحة ٤٨٥.
- أقسام الجهاد عديدة ويُمكن استفادتها من الآيات الكريمة.
- أصل شريعة محمد ﷺ قائمة على محاربة الظلم وبالتالي تكون منادية بالجهاد.
- هناك مسوِّغات كثيرة للجهاد وكذا عواقب على المتخلّف عنه.
- أهم أساليب التصدي للعدو هي في التهيؤ المعنوي والمادي؛ فالأول هو المحفّز نحو الانطلاق والاستمرار، والثاني هو إعداد للعدة للمواجهة والعمل بالأسباب.
- طبّق العلامة فكرة الكفاح والجهاد والمقاومة على مصاديقها؛ فقد ذكر مقاومة الفيتناميين والكوبيين للاحتلال الأميركي لبلادهم، كما ركّز كثيراً على المقاومة الفلسطينية التي قامت في وجه اغتصاب أرض فلسطين.
- دافع كثيراً عن الفدائيين الفلسطينيين الذين كانوا يُنعتون بالمخربين وأظهر حقانية عملهم وتحركهم.

- ركّز على وحدة الصّف في مواجهة العدوان وأشار إلى أنّ تمزّق الأمة الإسلامية هو الذي أوصلها إلى الهزيمة التكرّاء في ٥ حزيران ١٩٦٧.
- أكّد على أنّ مقاومة العدوان ودول الاستعمار والكيان الغاصب ستؤتي نتائجها عاجلاً أم آجلاً ومهما طال الزمان.

* * *

النسخ المشروط والنسخ المتدرج عند آية الله معرفت رحمته الله عليه . نقد ودراسة .

□ الشيخ إبراهيم حسن (*)

شاخصاً للبيان، يغترف من معينه
الباحثون المتخصصون وغيرهم من
طلاب الحق والحقيقة.

هذا، وقد بحث الشيخ معرفت
مسألة النسخ بالتفصيل، في الجزء
الثاني من كتابه القيم "التمهيد في علوم
القرآن"، حيث عمد إلى شرح حقيقة
النسخ وأقسامه، وشرائط النسخ،
والشبهات المثارة حوله، وموارده، وقد
ارتضى في نهاية المطاف
سبعة موارد للنسخ في القرآن
الكريم^(١) ، ...

مقدمة

لا شك في أن مسألة النسخ في
القرآن الكريم من أهم المسائل التي
أخذت حيزاً واسعاً من مباحث علوم
القرآن، حيث نجد اتفاق العلماء على
أصل وقوع النسخ وإن كانوا قد
اختلفوا في تفاصيله. ومن جهة أخرى،
لا شك في الدور البارز والكبير لآية
الله محمد هادي معرفت رحمته الله عليه في
البحث في علوم القرآن، ولا زال
كتابه "التمهيد في علوم القرآن"

١ - معرفت، الشيخ محمد هادي: التمهيد في
علوم القرآن، منشورات ذوي القربى، قم، ط ٣،
٢٠١١م، ج ٢، ص ٣٠٠.

(*) باحث في مجال الدراسات القرآنية.

لكنّه في السنوات الأخيرة من حياته كان شكّك^(١) في هذه الموارد، ولم يعد يقبل بغير النسخ المشروط؛ هذا المصطلح الذي تارةً يعبر عنه بهذا التعبير، وتارةً أخرى يعبر عنه بالنسخ التدريجي أو التمهيدي، وتارةً ثالثةً يفرّق بينه وبين النسخ التدريجي، كما في كتاب التمهيد الذي سرنا على أساسه في التعامل مع هذين المصطلحين في هذه المقالة. وقد ذكر سماحته في كتاب "شبهات وردود" أمثلةً وموارد متعدّدة للنسخ المشروط، ومنها: مسألة ضرب المرأة الناشز، الاسترقاق، آيات الصفح والعفو عن الكفار والمشرّكين، وسنوضح هذه المسائل وتفصيلها في طيّات هذه المقالة.

١- في كلماته الشفهية وفي مقالات متفرّقة، منها مقالة "النسخ" التي كتبها لموسوعة "قرآن شناسی". راجع: الرضائي الأصفهاني، محمد علي: النسخ المشروط (جولة في نظرية الشيخ معرفت)، ترجمة: حسن علي مطر الهاشمي، مجلة نصوص معاصرة، العدد ٤٢-٤٣، ربيع وصيف ٢٠١٦م، بيروت، ص ١٠١-١٠٢.

أولاً: مفهوم النسخ، شروطه، وأنواعه

مفهوم النسخ

النسخ لغةً يعني «الإزالة، وإبطال الأمر القائم»^(٢)، و«استبدال شيء مكان شيء آخر يأتي بعده»^(٣). وأمّا اصطلاحاً، فقد طرحت للنسخ تعاريف عدّة، نعرضها على النحو التالي:

تعريف ابن حزم (٤٥٦هـ): «هو انتهاء زمن الأمر الأوّل في الأشياء التي لا تتكرّر»^(٤).

تعريف الشاطبي (٧٩٠هـ): «هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعيّ متأخّر»^(١).

٢- الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق: تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، القاهرة، ط ٣، ٢٠١٠م، ج ٤، ص ٣١٩.

٣- الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤١٢هـ.ق، ص ٤٩٠؛ ابن منظور، محمد بن مكرم الأفيقي: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط ٣، ١٤١٤هـ.ق، ج ٣، ص ٦١.

٤- ابن حزم الأندلسي، علي بن أحمد: الإحكام في أصول الأحكام، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لا ط، ١٤٢٦هـ.ق، ج ١، ص ٤٦٣.

تعريف العلامة الطباطبائي رحمته الله:
«هو الإبانة عن انتهاء أمد الحكم
وانقضاء أجله»^٢.

تعريف آية الله معرفت رحمته الله: «هو
رفع تشريع سابق - كان يقتضي الدوام
حسب ظاهره - بتشريع لاحق، بحيث
لا يمكن اجتماعهما معاً، إمّا ذاتاً، إذا
كان التنافي بينهما بَيِّناً، أو بدليل
خاص، من إجماع أو نص صريح»^٣.
وقد صاغ رحمته الله تعريفه بهذا
الشيء من التفصيل لينبه إلى أن النسخ
في حقيقته لا يعني "نشأة رأي جديد"؛
فهذا المعنى مستحيل عليه تعالى؛ وإنما
النسخ المنسوب إليه تعالى نسخ في
ظاهره، أما الواقع فلا نسخ أصلاً، وإنما
«هو حكم مؤقت وتشريع محدود من
أول الأمر، ولم يشرعه تعالى حين

١ - الشاطبي، إبراهيم بن موسى: الموافقات، دار
ابن عفان، القاهرة، ط ١، ١٤١٧هـ.ق، ج ٣،
ص ٩٥.

٢ - الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير
القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٢م،
ج ١، ص ٢٤٩.

٣ - معرفت: التمهيد في علوم القرآن، مصدر
سابق، ج ٢، ص ٢٦٧.

شرّعه إلا وهو يعلم أن له أمداً ينتهي
إليه، وإنما المصلحة الواقعية اقتضت
هذا التشريع المؤقت»^٤.

هذا، ولا خلاف بين المسلمين في
وقوع النسخ؛ فإن كثيراً من أحكام
الشرائع السابقة قد نسخت بأحكام
الشريعة الإسلامية، وإن جملة من
أحكام هذه الشريعة قد نسخت
بأحكام أخرى من هذه الشريعة نفسها،
«فقد صرح القرآن الكريم بنسخ حكم
التوجه في الصلاة إلى القبلة الأولى،
وهذا ممّا لا ريب فيه. وإنما الكلام في
أن يكون شيء من أحكام القرآن
منسوخاً بالقرآن، أو بالسنة القطعية، أو
بالإجماع، أو بالعقل»^٥. وفي كتب
التفسير وغيرها آيات كثيرة ادّعي
نسخها، وقد جمعها أبو بكر النحاس
في كتابه "الناسخ والمنسوخ" فبلغت
١٣٨ آية، فيما ذهب السيد
الخوئي رحمته الله إلى عدم وجود أي آية

٤ - المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٦٨.

٥ - الخوئي، أبو القاسم الموسوي: البيان في
تفسير القرآن، أنوار الهدى، قم، ط ٨،
١٤٠١هـ.ق، ص ٢٩٧.

منسوخة، واقتصر على مناقشة النسخ في ٣٦ آية عرضها، في حين أن المسألة في «سائر الآيات أوضح من أن يستدل على عدم وجود نسخ فيها» حسب تعبير السيد الخوئي رحمته الله (١).

وخلاصة الكلام، أن علماء الإسلام متفقون - في الجملة - على أصل وقوع النسخ وأنه - بالمعنى الذي تقدم توضيحه - لا يستحيل على الله تعالى، وإنما وقع الخلاف في مصاديق النسخ وعدد الآيات الناسخة والمنسوخة.

الفرق بين النسخ والتخصيص

لا بد في هذا المجال من التفريق بين مصطلحي النسخ والتخصيص، وبخاصة أن «إطلاق النسخ على التخصيص كان شائعاً في متداول السلف، ومن ثم أكثروا القول في عدد

الآي المنسوخة» (٢)، فلا يستغربين الباحث إذا ما لاحظ أن مصاديق النسخ عند القدماء كثيرة وشاملة لآيات لا تشتمل على أكثر من التخصيص، «فقد كثر استعماله في هذا المعنى في السنة الصحابة والتابعين، فكانوا يطلقون على المخصّص والمقيّد لفظ "الناسخ"» (٣). وهذا بخلاف الاصطلاح المعاصر الذي يظهر فيه الفرق الشاسع والكبير بين كلٍّ من النسخ والتخصيص، ووجه الفرق بينهما: «أن الأول قطع لاستمرار التشريع السابق بالمرّة، بعد أن عمل به المسلمون في فترة من الزمن طويلة أم قصيرة. أمّا التخصيص فهو قصر الحكم العام على بعض أفراد الموضوع وإخراج البقية عن الشمول، قبل أن يعمل المكلفون بعموم التكليف» (٤).

٢ - معرفت: التمهيد في علوم القرآن، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٧١.

٣ - الخوئي: البيان، مصدر سابق، ص ٢٩٥.

٤ - معرفت: التمهيد في علوم القرآن، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٧١.

١ - مركز الثقافة والمعارف القرآنية: علوم القرآن عند المفسرين، قم، ط ١، ١٤١٧ هـ ق، ج ٢، ص ٦٢١.

ونذكر من باب المثال قوله تعالى: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ..﴾^(١)، حيث الآية عامة ترخص في النكاح من عامة النساء، لكن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ...﴾^(٢) تخصص الآية الأولى بإخراجه لطائفة من النساء عن شمول الحكم الأول (حلية الزواج منها). وكذلك قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾^(٣) تخصص الآية الأولى كما هو واضح، فلا يقال إن ثمة نسخاً بين هذه الآيات، بل إن ثمة قصراً للحكم العام على بعض أفراد الموضوع وإخراج البقية عن الشمول، وهذا من التخصيص وليس من النسخ في شيء.

كما لا بد من الإشارة إلى أن أحكام الضرورة ليست من النسخ، «إذا ارتفع تكليف عند مصادفة حرج

أو اضطرار أو ضرر شخصي أو لمصلحة وقتية - على ما فصلها الفقهاء - لا يكون من النسخ في شيء؛ إذ جميع ذلك لم يكن من ارتفاع التشريع، وإنما هو تبدل الموضوع بطروء أحد هذه العناوين. كما لو جاز للمضطر أن يأكل من الميتة بقدر ما يسد رمقه، فإن مثل هذا الجواز لا يكون نسخاً للحرمة الأصلية»^(٤).

شروط النسخ

ذكروا للنسخ شروطاً خمسة لا بد من توافرها كاملة لتحقيق النسخ، ونعرضها هنا باختصار^(٥):

الأول: تحقق التنافي بين تشريعين وقعا في القرآن بحيث لا يمكن اجتماعهما في تشريع مستمر، تنافياً ذاتياً، كما في آيات وجوب الصفح مع آيات القتال، أو بدليل قاطع دل على نقض التشريع السابق بتشريع لاحق، كما في آية الإمتاع إلى الحول

٤- معرفت: التمهيد في علوم القرآن، مصدر

سابق، ج ٢، ص ٢٦٨.

٥- راجع: معرفت: التمهيد في علوم القرآن،

مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٧٢-٢٧٥.

١- سورة النساء، الآية ٣.

٢- سورة النساء، الآية ٢٢.

٣- سورة النساء، الآية ٢٣.

مع آية الاعتداد بأربعة أشهر وعشرة أيام وآية المواريث، فقد قام الإجماع على نسخ الأولى بالأخيرتين.

الثاني: أن يكون التنافي كلياً على الإطلاق، لا جزئياً وفي بعض الجوانب، فإنّ هذا الثاني تخصيص في الحكم العام، وليس من النسخ في شيء؛ فأية القواعد من النساء^(١) لا تصلح ناسخةً لآية الغض^(٢) بعد أن كانت الأولى أخص من الثانية.

الثالث: أن لا يكون الحكم السابق محدداً بأمْد صريح، حيث الحكم بنفسه يرتفع عند انتهاء أمده من غير حاجة إلى نسخ. فمثل قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا آلَ بَنِي نَفِيءٍ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾^(٣) لا يصدق عليه النسخ عندما تفيء الفئة الباغية وترجع إلى رشدّها والتسليم لحكم الله.

الرابع: أن يتعلّق النسخ بالتشريعات، فلا نسخ في ما يتعلّق

بالأخبار فقولہ تعالیٰ: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾^(٤) لا يصلح ناسخاً لقوله: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾^(٥).

الخامس: التحفّظ على نفس الموضوع؛ إذ عندما يتبدّل موضوع حكم إلى غيره فإنّ الحكم يتغيّر لا محالة، حيث الحكم قيد موضوعه، وليس هذا نسخاً. فمثل قوله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا...﴾^(٦) لا يصلح ناسخاً لقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ...﴾^(٧)؛ لأنّ الذي يبيّن غير الذي يكتم^(٨).

نسخ الحكم دون التلاوة وأنحائه ذكروا للنسخ صنوفاً ثلاثة متصوّرة، هي: نسخ الحكم والتلاوة معاً، ونسخ التلاوة دون الحكم، ونسخ الحكم

٤- سورة الواقعة، الآية ٣٩-٤٠.

٥- سورة الواقعة، الآية ١٣-١٤.

٦- سورة البقرة، الآية ١٦٠.

٧- سورة البقرة، الآية ١٥٩.

٨- راجع: ابن حزم الأندلسي، علي بن أحمد: رسالة النسخ والمنسوخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٦ هـ، ج ٢، ص ١٦٠.

١- سورة النور، الآية ٦٠.

٢- سورة النور، الآية ٣١.

٣- سورة الحجرات، الآية ٩.

دون التلاوة. أمّا الصنفين الأول والثاني، فهما باطلان ومرفوضان حتماً؛ لكونهما يوافقان القول بالتحريف بالنقيصة، وهو ما ثبت بطلانه جزماً. فلا يبقى إلا الصنف الثالث؛ وهو نسخ الحكم دون التلاوة، وهو محلّ بحثنا في الحديث عن النسخ، حيث اتفق العلماء على أصل وقوع هذا النسخ في القرآن وإن اختلفوا في عدد آياته، ثم إن هذا الصنف بدوره ينقسم إلى أنحاء ثلاثة:

الأول: أن ينسخ مفاد آية كريمة بسنة قطعية أو إجماع محقق، مع التأكيد على كون السنة قطعية، كما يقول آية الله معرفت: «مفروض الكلام ما إذا كانت السنة متواترة وقطعية الصدور أيضاً، ودعمها إجماع الأمة في جميع العصور»^(١).

الثاني: أن ينسخ مفاد آية بآية أخرى، بحيث تكون الثانية نازلة إلى مفاد الأولى ورافعة لحكمها بالتنصيص، ولولا ذلك لم يكن موقع

١ - معرفت: التمهيد في علوم القرآن، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٨٣.

لنزول الثانية وكانت لغواً، وهذا كآية النجوى^(٢) أوجبت التصديق بين يدي مناجاة الرسول ﷺ، ونسختها آية الإشفاق: ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ...﴾^(٣) وهذا النحو من النسخ لم يختلفوا فيه.

الثالث: أن تنسخ آية بأخرى من غير أن تكون إحداها نازلة إلى الأخرى سوى أنهم وجدوا التنافي بين الآيتين كلياً - على وجه التباين الكلي - لا جزئياً وفي بعض الوجوه؛ لأن الأخير أشبه بالتخصيص منه إلى النسخ المصطلح^(٤). وقد أكد آية الله معرفت على أن هذا القسم الثالث «يشترط فيه وجود نص صحيح وأثر قطعي صريح، يدعمه إجماع القدامى»^(٥).

٢ - سورة المجادلة، الآية ١٢.

٣ - سورة المجادلة، الآية ١٣.

٤ - معرفت: التمهيد في علوم القرآن، مصدر

سابق، ج ٢، ص ٢٥٧-٢٨٤.

٥ - المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٤.

ثانياً: النسخ المشروط

بعد الذي تقدّم، نأتي إلى عنوان "النسخ المشروط"، الذي ذكر آية الله معرفت رحمته الله أنه تنبّه عليه خلال التدريس على الطلبة في مطلع القرن الخامس عشر للهجرة^(١)، وسوف نعرض تعريفه، جذوره التاريخية، أمثلته، ومن ثمّ نتعرّض إلى نقده ومناقشته:

تعريف النسخ المشروط

يذكر آية الله معرفت للنسخ المشروط التعريف الآتي: «هو ما إذا كان الحكم المنسوخ رهن ظروف وأحوال تغيّرت إلى حالة أخرى استدعت تشريع حكم جديد، لكنها مع ذلك صالحة للعود إلى حالتها الأولى، إمّا في رقعة أخرى من الأرض أو في فترة آتية من الزمان، فإنّ من الحكمة أن يعود الحكم المنسوخ إلى ساحة الوجود...»^(٢).

وسيتّضح المراد من النسخ المشروط أكثر مع ذكر المثالين

الآتين، لكن نلفت النظر إلى أنّ التعريف الذي أوردناه إنما هو من كتاب التمهيد، وقد وجدنا أنّ آية الله معرفت يستخدم في مواضع أخرى مصطلح النسخ المشروط للتعبير عن الأعم من النسخ المشروط (بالتعريف المذكور هنا) ومن النسخ المتدرّج الآتي توضيحه، وللتمييز بين المعنيين، سنعمد مصطلحي "النسخ المشروط بالمعنى الأخص"، و"النسخ المشروط بالمعنى الأعم".

الجذور التاريخية للنسخ المشروط

إنّ عنوان "النسخ المشروط" من ابتكارات آية الله معرفت، وإن كنا نجد لهذا المصطلح جذوره التاريخية عند بعض المتقدمين وقليل من المعاصرين؛ فقد ذكر الزركشي (٧٩٣هـ) هذه المسألة تحت عنوان "النسأ"، حيث ذهب إلى الاعتقاد بأنّ الحكم إذا كان له سبب فإنّه يجب لذلك السبب، وإذا زال ذلك السبب سوف يتبدّل الحكم بدوره إلى حكم آخر، وإن عاد السبب الأول عاد الحكم الأول أيضاً، وهذا هو

١- المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٥ (الحاشية).

٢- المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٥.

"النساء"^(١). وقد أشار إلى قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾^(٢)، حيث نزل في بداية الدعوة إلى الإسلام، وبعد ذلك قويت شوكة المسلمين في المدينة المنورة، وأصدر الله الأمر بالجهاد، وفرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولو فُرض أن المسلمين عادوا إلى الضعف عاد ذلك الحكم الأول من جديد^(٣).

كما إن لجلال الدين السيوطي (٩١١-٩٩١هـ.ق.) كلاماً مشابهاً لهذا الكلام، وقد عبّر عنه بـ "المنساء" (طبقاً للآية ١٠٦ من سورة البقرة)^{(٤) (٥)}.

١ - الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله:

البرهان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب

العربية، بيروت، ط ١، ١٩٥٧م، ج ٢، ص ١٧٣.

٢ - سورة المائدة، الآية ١٠٥.

٣ - الزركشي، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٧٣.

٤ - في قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٥ - السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: الإتقان في علوم القرآن، الهيئة المصرية

وأما من المعاصرين، فقد ذهب جمعٌ إلى أن بعض الآيات المنسوخة هي من قبيل النسخ المشروط (وإن لم يستخدموا هذا المصطلح بالدقة)، منهم: صحيحي الصالح^(٦)، عبد الكريم الخطيب^(٧)، ونصر حامد أبو زيد^(٨)، فضلاً عن آية الله معرفت الذي نحن بصدد البحث عنه.

من أمثلة النسخ المشروط

للسنخ المشروط أمثلة عديدة، ذكرها آية الله معرفت في كتاب التمهيد وفي عدد من المقالات المتفرقة، ونشير هنا إلى مثالين منها:
المثال الأول: الصدقات الواجبة في سبيل الله، وفي توضيحه يقول آية

العامّة للكتاب، القاهرة، لا ط، ١٩٧٤م، ج ٢، ص ٤١.

٦ - الصالح، صحيحي: مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢٤، ٢٠٠٠م، ص ٢٦٩.

٧ - الرضائي الأصفهاني، مصدر سابق، ص ١١٠.
٨ - أبو زيد، نصر حامد: مفهوم النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠١٤م، ص ١٢٣.

الله معرفت يعلمه ما يلي: «كان على المسلمين أن يقوموا بتجهيز بنية الدولة المالية مهما كلف الأمر، وهو الوارد في القرآن كثيراً باسم الإنفاق في سبيل الله. كان ذلك واجباً حتماً ما دامت الحاجة باقية. ثم لما فرضت الزكاة وأخماس الغنائم والخراج ونحو ذلك، وزالت حاجة الدولة إلى مؤونة غيرها، زال ذلك التكليف، لكن إذا ما دهمت الأمة حادثة أو كارثة تحتاج إلى مؤونة زائدة، أو عرض ما يستدعي صرف مال أكثر، فإن المصلحة تقتضي فرض ضرائب متناسبة مع حاجة الدولة، ويكون على عهدة المسلمين القيام بوظيفتها. وعليه، فمثل هذه الأحكام لا تعد منسوخة بقول مطلق، بل هي باقية مستمرة لكن قيد شروط وأحوال، متى ما تحققت تنجزت أحكامها، كسائر الأحكام المترتبة على مواضعها، على نحو القضايا الحقيقية»^(١).

المثال الثاني: مسألة الصفح والمداراة مع الكفار، وتوضيحه أن

١ - معرفت: التمهيد في علوم القرآن، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٨٥.

مداراة الكفار «كانت فريضةً واجبةً في صدر الإسلام ويوم كان المسلمون في حالة ضعف. فإذا ما عاد الإسلام غريباً -لا سمح الله- كما بدأ غريباً، فإن ذلك الحكم يعود لا محالة»^(٢).

وبعبارة أخرى: كان على المسلمين في شروط خاصة أن يسكتوا مقابل تعرض الأعداء لهم، ثم جاء حكم آخر يقول: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾^(٣)، أي إذا تعرضوا لكم فأنتم كذلك قابلوهم بالمثل^(٤). أما إذا عادت الشروط والظروف المتناسبة مع الحكم الأول (المداراة) فإن الحكم الأول يعود.

٢ - المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٥-٢٨٦.

٣ - سورة البقرة، الآية ١٩٤.

٤ - معرفت، محمد هادي مقابلة عبر الموقع الإلكتروني [aftabnews](http://aftabnews.com) بتاريخ ١٧ / ٩ / ١٣٨٤ هـ. ش، وأصل المتن الفارسي: نوع دیگر، نسخ به اصطلاح تدریجی است که ما اسم آن را نسخ مشروط گذاشتیم و در واقع نسخ نیست. مثلاً مسلمانان در شرایط خاصی باید در برابر تعرض دشمنان سکوت می کردند بعد حکم دیگری آمد که «فمن اعتدي عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدي عليكم» [١٩٤ / بقره] یعنی اگر تعرضی کردند، شما هم مقابله به مثل کنید.

النقد والمناقشة:

إنّ المتأمل في أمثلة النسخ المشروط يدرك دقّة آية الله معرفت رحمته في تحليله للأحكام المتغيرة في الإسلام بحسب الظروف الزمانية والمكانية، وهذا ما دفعه إلى ابتكار هذا الاصطلاح. هذه الدقّة في التحليل من شأنها أن تكون مدخلاً لحلّ كثير من الإشكالات.

لكن في المقابل يلاحظ أنّ إطلاق النسخ على هذا النوع من التشريع فيه كثيرٌ من المسامحة؛ إذ تقدّم في تعريف النسخ أنّه إنّما يكون بين حكمين ذاتيين وأوليين، وأنّ الحكم الثانوي في مسألة ما، وإن اختلف عن الحكم الأولي، لا يكون ناسخاً له. وهذا ما صرّح به آية الله معرفت بنفسه حيث قال: «إذا طرأ عنوان ثانوي يختلف حكمه عن العنوان الذاتي الأولي، كالاضطرار والحرّج والتقيّة، تعرّض شيئاً فتجعله جائزاً بعد أن كان بعنوانه الذاتي حراماً مثلاً (كالخمر

تحلّ إذا اضطرّ إلى شربها)، وهذا لا يسمّى نسخاً في الاصطلاح»^(١).

ولتوضيح المسألة أكثر، نذكر الفرق بين كلّ من الحكم الأولي والحكم الثانوي: «أما الحكم الأولي فالمراد منه ما يثبت لموضوعه ابتداءً ويقطع النظر عمّا يطرأ على الموضوع من عوارض تقتضي تبدّل الحكم الأولي بنحو يتناسب مع العنوان الطارئ على الموضوع، فأكل الميتة - ويقطع النظر عن الاضطرار إلى أكلها - حرام، كما إنّ الطهارة المائية - ويقطع النظر عن الحرّج والضرر - شرط في صحّة الصلاة...»^(٢).

وأما الحكم الثانوي، «فهو الحكم الواقعي الذي يثبت لموضوعه بسبب طروء بعض العوارض المقتضية لحمل هذا النحو من الحكم عليه، ولولا طروء هذه العوارض لكان الموضوع

١ - معرفت: التمهيد في علوم القرآن، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٧٤.

٢ - سنقر، الشيخ محمد: المعجم الأصولي، منشورات الطيار، البحرين، ط ٣، ٢٠٠٧م، ج ٢، ص ٤٤.

مقتضياً لحكم آخر هو المعبر عنه بالحكم الأولي. فأكل لحم الميتة بقطع النظر عن الطوارئ والعوارض يقتضي بنفسه ثبوت الحرمة له، إلا أنه وبسبب طروء حالة الاضطرار لأكلها يتبدل الحكم الثابت لأكل الميتة إلى حكم آخر يتناسب مع الحالة الطارئة»^(١).

والمتمثل في المثالين المذكورين يدرك بوضوح أن الصدقات، وإن صارت واجبة في بعض الظروف الخاصة، فإن وجوبها لن يعدو كونه ثانوياً في حين أن الحكم الأولي لدفع الصدقات هو الاستحباب. كما يدرك أن حكم مداراة الكفار المعتدين، حتى لو فرضته بعض الظروف الزمانية والمكانية، لا يعدو كونه حكماً ثانوياً عارضاً، في حين أن الحكم الأولي هو وجوب مواجهتهم في الظروف العادية. وتقديم الحكم الثانوي في بعض الظروف على الحكم الأولي الثابت ليس نسخاً كما ذكر آية الله معرفت رحمته. وبالتالي فإطلاق النسخ

١- صنفور، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٦.

على هذين المثالين وما شابههما فيه إشكال، ولا يصح، اللهم إلا من باب المسامحة أو المجاز.

ولهذا نجد آية الله معرفت رحمته يشير إلى هذه المسألة فيقول: «ثمة نوع آخر من النسخ، وهو ما يكون تدريجياً، وقد وضعنا له اسم "النسخ المشروط"^(٢) وهو ليس نسخاً في الواقع»^(٣).

وفي موضع آخر يذكر رحمته أن "النسخ المشروط" يقع في قبال "النسخ المطلق"، بما يؤكد أن النسخ المشروط (بالمعنى الأعم) ليس من أقسام النسخ

٢- مصطلح "النسخ المشروط" هنا هو "النسخ المشروط بالمعنى الأعم" الذي سبق أن ذكرناه.

٣- معرفت، مقابلة affabnews، مصدر سابق، وأصل المتن الفارسي: نوع ديگر، نسخ به اصطلاح تدريجي است که ما اسم آن را نسخ مشروط گذاشتیم و در واقع نسخ نیست. مثلاً مسلمانان در شرایط خاصی باید در برابر تعرض دشمنان سکوت می کردند بعد حکم دیگری آمد که «فمن اعتدي عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدي عليكم» [١٩٤ / بقره] يعني اگر تعرضي کردند، شما هم مقابله به مثل کنید.

وإنما سمّي نسخاً تسامحاً وتجاوزاً، كما نجد في كلامه الآتي: «بعض الأحكام شرعت تدريجياً، بحيث ابتدئ ببيان الحكم فيها بلهجة لطيفة، ثم صارت شديدة فأشدّ، من قبيل آيات تشريع القتال، حيث بدأت بمرحلة الإذن في القتال^(۱)، ثم صارت شاملة لمقاتلة الكفار المعتدين والطغاة^(۲). بعدها امتدت إلى الكفار المجاورين والقريبين من المنطقة الإسلامية^(۳)، وفي النهاية صدر الإعلام باستئصال الكفار والمشرّكين مطلقاً^(۴). هذه المراحل قد تقع اليوم أيضاً، وكلّ حكم يكون حاكماً بما يتناسب مع ظروفه الزمانية والمكانية، ولذا ففي آيات من هذا القبيل لم يتحقّق النسخ المطلق. آيات تحريم الخمر كذلك تعدّ من هذا القبيل، وكذلك جميع

۱- سورة الحج، الآية ۳۹.

۲- سورة الأنفال، الآية ۶۱؛ سورة النساء، الآية ۹۱.

۳- سورة التوبة، الآية ۱۲۳.

۴- سورة التوبة، الآية ۵ و ۳۶.

الأحكام التي تشرّع تدريجياً ومرحلة بمرحلة، ليس في أيّ منها نسخ مطلق، وإنما نسخ مشروط^(۵).

ثالثاً: النسخ المتدرّج

المصطلح الآخر الذي يعدّ من ابتكارات آية الله معرفت رحمته الله هو مصطلح "النسخ المتدرّج"، والذي ذكر أنّه تنبّه له ضمن تحقيقه عن شؤون

۵- معرفت، محمد هادي: علوم قرآني، قم، مؤسسه فرهنگي تمهيد، ۱۳۷۸ هـ.ش، ص ۲۶۷. والمتن بالنصّ الفارسي: «برخی احكام را تدريجاً تشريع نموده است. به اين ترتيب كه ابتدا با لحنی ملایم حکمی بیان شده، سپس شدید و شدید تر گردیده است. مانند آیات تشريع قتال كه از مرحله اذن در قتال شروع شده، سپس مقاتله با كفار معتدی و متجاوز را شامل شده است. آنگاه كفار مجاور و نزديك به حوزه اسلامي را در برگرفته و بالاخره اعلام استيصال (ناپود کردن مطلق) كفار و مشرکین صادر شده است. اين مراحل ممكن است امروز هم اتفاق يافتد و هر دستوری متناسب با شرایط زمانی و مکانی خود حاکم است. لذا در اين قبيل آیات، نسخ مطلق انجام نگرفته است. آیات مراحل تحريم خمر نیز از همین قبيل شمرده می شود. همچنين مطلق احكامی كه تدريجاً و مرحله به مرحله تشريع گردیده، در هيچ کدام نسخ، مطلق نيست و همه آنها نسخ مشروط اند».

المرأة في الإسلام^(١)، وقد ذكره في كتاب التمهيد بعنوان مستقل عن النسخ المشروط، فيما ذكره في بعض المقابلات الشفهية على أنه جزء من النسخ المشروط بالمعنى الأعم^(٢).

وعلى أي حال، نعرض هنا تعريف النسخ المتدرج، أمثله، الفرق بينه وبين النسخ المشروط، ومن ثم نتعرض إلى مناقشته بشيء من التفصيل:

تعريف النسخ المتدرج

يقول آية الله معرفت رحمته الله عليه في تعريف النسخ المتدرج: «وهو نوع آخر من النسخ، لم ينسخ الحكم فيه صريحاً وفي بداية الأمر، وإنما عُرض للنسخ بتمهيد أسبابه المؤاتية نسخاً تدريجياً. وذلك في ما إذا دعت المصلحة الإقرار على شريعة كانت سائدة على الحياة العامة، بحيث لا

١ - معرفت: التمهيد في علوم القرآن، مصدر

سابق، ج ٢، ص ٢٨٦ (الحاشية)

٢ - قد ذكرنا توضيح المقصود من النسخ المشروط بالمعنى الأعم.

يمكن قلع جذورها بسهولة، إلا بتمهيد مقدمات هي توهن من شأنها وتزعزع من شأوتها، لتنهار بنفسها نهائياً وفي نهاية المطاف، نظير التدرج في التشريع في مسألة محاربة الخمر وغيرها^(٣).

وهذا التعريف أيضاً يتضح أكثر بذكر المثالين الآتيين:

من أمثلة النسخ المتدرج

للنسخ المتدرج أمثلة عديدة، نكتفي بذكر مثالين^(٤) منها:

المثال الأول: ملك اليمين، حيث أمضاه الإسلام ظاهراً تمهيداً إلى إلغائه في نهاية المطاف، وبالتالي فالغاؤه جاء بشكل تدريجي، ولذا عدّه آية الله

٣ - معرفت: التمهيد في علوم القرآن، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٨٦.

٤ - ذكر آية الله معرفت رحمته الله عليه هذين المثالين وفصل الكلام فيهما، في الجزء الثاني من كتاب التمهيد، كما ذكرهما مرتين في كتاب شبهات وردود، لكن تارة تحت مصطلح النسخ المشروط، وتارة أخرى تحت مصطلح النسخ التمهيدي، وتارة ثالثة تحت عنوان النسخ التدريجي.

معرفت عليه السلام مثلاً للنسخ المتدرج، حيث يقول موضحاً: «جاء الإسلام والرقّ نظامٌ معترف به في جميع أنحاء العالم؛ بل كان عملةً اقتصادية واجتماعية متداولة تعارفها الجميع ولا يستنكرها أحد، ولا يفكر في إمكان تغييرها - فضلاً عن إلغائها - أحد. لذلك كان تغيير هذا النظام أو محوه أمراً في حاجة إلى تدرج ومهل وربّما في فترة غير قصيرة»^(١).

ثم ينقل عليه السلام جملةً من الأحاديث المرتبطة بأداب التعامل مع الرقيق في الإسلام، فقد جاء في رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام: «وأما حقّ مملوكك فأن تعلم أنّه خلق ربّك وابن أهلك وأمّك ولحمك ودمك...»^(٢)، ورغب في مخاطبتهم خطاب الإخاء وأن يقول السيّد لعبده: يا أخي، فلا يقول أحدهم: هذا عبدي

١ - معرفت: التمهيد في علوم القرآن، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٨٩.
٢ - الصدوق، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه: الخصال، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرّسين، قم، ط. ١٤١٥ هـ. ق.، أبواب الخمسين فما فوق، ص ٥٦٨.

وهذه أمتي، وليقل فتاي وفتاتي^(٣). ويساهموهم في العمل المضني ويساووهم في الملبس والمأكل وسائر معاش الحياة، كما كان يفعل أمير المؤمنين عليه السلام مع غلامه قنبر^(٤). وقال الصادق عليه السلام: «من افترى على مملوك عزر؛ لحرمة الإسلام»^(٥).

وما نستنتجه من الروايات المتقدمة أنّ الرقيق أصبح في ظلّ الإسلام إنساناً له كرامته الكاملة وحقوقه كسائر المسلمين على سواء، كلّ ذلك خطوات واسعة لتحرير الرقيق روحياً. «والأمر الأساس الذي قام به الإسلام منذ البدء: أن جفّ منابع الرقّ كلّها، فيما عدا منبعاً واحداً لم يكن من المصلحة تجفيفه آنذاك؛ وذلك هو رقّ الحرب. فلم يلجأ الإسلام إلى هذا

٣ - ابن حنبل، أحمد بن محمد: مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ٢٠٠١م، ج ٢، ص ٤٢٣ وفي غير موضع.
٤ - المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٨م، ج ٧٤، ص ١٤٣-١٤٤، برقم ١٩.
٥ - المجلسي، المصدر نفسه، ج ٧٩، ص ١١٩، رقم ١٥.

الطريق ولم يسترقّ الأسرى لاعتبار أنّهم ناقصون في آدميتهم؛ وإنما لجأ إلى المعاملة بالمثل فحسب، فعلق استرقاقه للأسرى على اتفاق الدول المتحاربة أو تبادل الأسارى^(١).

وخلاصة الكلام أنّ التشريع الإسلامي أراد أن يلغي ظاهرة الرقّ من المجتمع، لكن عملية الإلغاء جاءت بشكل تدريجي بما يتناسب مع طبيعة ترسخ هذه العادة في زمن التشريع، فرفع الإسلام بالرقّ إلى مستواه الإنساني أولاً، وجعله مساوياً للسادة في جميع الحقوق الإنسانية ثانياً، ثم مهّد السبيل لإلغاء هذه الظاهرة في نهاية الأمر.

المثال الثاني: تشريع جواز ضرب المرأة الناشز: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾^(٢). يقول آية الله معرفت رحمته عليه: «هذا إقرارٌ لتشريع جاهليّ سابق، كان الرجال يتحكّمون

في أمر النساء، ومن غير مبالاة، فجاء الإسلام ليحدّ من تلك السنّة الجاهلية، بتضعيفها أولاً شيئاً فشيئاً، ثمّ هدمها رأساً وبقلع جذورها من الأساس... فقد أقرّ شريعة ضرب النساء لا ليثبتها؛ بل ليمهّد السبيل إلى رفعها وقمعها»^(٣).

لا يخفى على القارئ الكريم أنّ هذه الآية قد شكّلت مثار جدل واسع في هذا العصر، حيث وجّه بعض مدّعي الحضارة والإنسانية سهام النقد إلى الإسلام بتشريعه لضرب المرأة. وفي المقابل طرح علماء الإسلام تفاسير عديدة لهذه الآية الكريمة، سنأتي على ذكر نماذج منها. لكن الأهمّ في هذا المجال أن نقف عند رؤية آية الله معرفت رحمته عليه، فاعتقاده بالنسخ التدريجي لحكم ضرب المرأة الناشز يشكّل ضربة قاصمة للإشكالات المطروحة في هذا المجال، وهذا ما سنوضحه في السطور الآتية.

١ - معرفت: التمهيد في علوم القرآن، مصدر

سابق، ج ٢، ص ٢٩٠-٢٩١ (بتلخيص).

٢ - سورة النساء، الآية ٣٤.

٣ - معرفت: التمهيد في علوم القرآن، مصدر

سابق، ج ٢، ص ٢٨٦-٢٨٧.

يرى آية الله معرفت أنّ تشريع ضرب المرأة الناشز في الآية المذكورة ليس تشريعاً تأسيسياً؛ بل هو تشريعٌ إمضائيٌّ مؤقت، يهدف إلى إلغاء هذه العادة الجاهلية (ضرب المرأة) بالتدريج. وتأييداً لهذه الفكرة يحشد في كتاب التمهيد الأحاديث الكثيرة التي ورد فيها النهي الصريح عن ضرب المرأة، والتي نورد منها ما يلي:

- قال عليه السلام موبخاً من أهان زوجته: «أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد، يضربها أول النهار ثم يضاجعها آخره؟»^(١).

- قال عليه السلام: «ولن يضرب خياركم»، وهو نفي تأييد تأكيداً على تلازمه مع الإيمان. وقال في من ضربوا نساءهم: «ليس أولئك خيارهم»^(٢).

- وعنه عليه السلام: «إني أتعجب ممّن يضرب امرأته وهو بالضرب أولى منها. لا تضربوا نساءكم بالخشب فإنّ فيه القصاص، ولكن اضربوهنّ (أي أذبوهن) بالجوع والعري، حتى تريحا في الدنيا والآخرة»^(٣).

- وعنه عليه السلام: «احفظوا وصيّتي في أمر نساءكم حتى تنجوا من شدة الحساب، ومن لم يحفظ وصيّتي فما أسوأ حاله بين يدي الله»^(٤).

- عن أبي جعفر الباقر عليه السلام عن النبي عليه السلام: «أيضرب أحدكم المرأة ثم يظلّ معانقها؟!»^(٥).

- عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله عليه السلام: «إنّما المرأة لعبة، من اتخذها فلا يضيّعها»^(٦).

- قال عليه السلام: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»^(٧)، وفي

٣- المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار، مصدر سابق، ج ١٠٣، ص ٢٤٩، رقم ٣٨، عن جامع الأخبار للصدوق (ط نجف)، ص ١٥٨.

٤- المصدر نفسه.

٥- الحر العاملي، محمد بن الحسن: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، مؤسسة آل البيت عليه السلام، قم، لا ط. ١٤٣٢ هـ، ج ١٤، ص ١١٩.

٦- المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١١٩.

٧- المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١١٩.

١- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: الدر المشور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٧ م، ج ٢، ص ١٥٥.

٢- السيوطي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥٥.

رواية أخرى: «ألا خيركم خيركم لنسائكم وأنا خيركم لنسائي»^(١).

-وعنه عليه السلام: «ملعون ملعون من ضيَّع من يعول»^(٢).

-وعنه عليه السلام: «كفى بالمرء هلاكاً أن يضيَّع من يعول»^(٣).

-وفي حديث الحولاء قال عليه السلام: «لم يزل يوصيني جبرائيل بالنساء حتى ظننت أن لا يحلّ لزوجها أن يقول لها: أف»^(٤).

هذا، وثمة بعض الأحاديث التي تفسّر طبيعة الضرب المذكور في الآية الكريمة، حيث إنّ ترخيص الضرب قد فسّره النبي صلى الله عليه وآله ضرباً غير

مبرّح^(٥). والمبرّح: المتعب المجهّد، وبرّح به الأمر: آذاه شديداً. والبرحاء: الشدّة والأذى. قال قتادة: ضرباً غير مبرّح أي غير شائن، والشائن: ما غير لون الجلد. وسئل ابن عباس: ما الضرب غير المبرّح؟ قال: السواك وشبهه يضربها بها»^(٦)، وهكذا روي عن الإمام أبي جعفر عليه السلام^(٧).

وجاء في فقه الرضا لابن بابويه: «والضرب بالسواك وشبهه ضرباً رقيقاً»، أي برفق ومدارة^(٨). وقد علّق آية الله معرفت رحمته الله على هذه الرواية بقوله: «إذا فهي ضربة عتابٍ ينبئك عن

٥- في خطبته في حجة الوداع. ابن هشام، عبد الملك: السيرة النبوية، دار الكتب العربية، بيروت، ط ٣، ١٩٩٠م، ج ٤، ص ٢٥١.

٦- الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان في تأويل القرآن (المعروف بتفسير الطبري)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م، ج ٥، ص ٤٣-٤٤.

٧- الطبرسي، الفضل بن الحسن: مجمع البيان في تفسير القرآن، دار العلوم، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥م، ج ٣، ص ٤٤.

٨- المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار، ج ١٠٤، ص ٥٨، باب التشوز والشقاق، رقم ٧.

١- المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٢٢.

٢- الصدوق، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي: من لا يحضره الفقيه، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط ١، ١٩٨٦م، ج ٣، ص ١٠٣، رقم ٤١٧.

٣- القاضي نعمان المغربي: دعائم الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٣م، ج ٢، ص ١٩٣، رقم ٦٩٩.

٤- النوري، الميرزا حسين: مستدرک الوسائل ومستنبط المسائل، مؤسسة آل البيت عليه السلام، قم، ط ١، ١٤٠٨هـ.ق، ج ١٤، ص ٢٥٢، رقم ١٦٦٢٦.

وداد، لا ضربة عقاب يتعقبها شقاق! ^(١). ثم نقل عن الشيخ أبي جعفر الطوسي رحمته الله قوله: «وأما الضرب فإنه غير مبرح بلا خلاف» ^(٢)، وعلّق قائلاً: «وهذا دليل» على إجماع الفقهاء على هذا التفسير» ^(٣).

ثم يصل إلى نتيجة يقول فيها: «وعليه، فالحكم في الآية ترخيصٌ ظاهري في الضرب، تمهيداً للتأكيد على المنع منه نهائياً... إذاً، فالآية في ظاهرها منسوخة، وكان تفسيرها من قبل النبي هو النسخ لهذا الظهور البدائي في واقع الحال» ^(٤).

١ - معرفت: التمهيد في علوم القرآن، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٨٨.

٢ - الطوسي، محمد بن الحسن: التبيان في تفسير القرآن، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ط ١، ١٤٠٩ هـ، ج ٣، ص ١٩١.

٣ - معرفت: التمهيد في علوم القرآن، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٨٨.

٤ - المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٩.

النقد والمناقشة:

إن المتأمل في المثالين المذكورين وما ورد في تفصيلهما، لا يستطيع إلا أن يقرّ بأن الإسلام أراد أن يواجه ظاهرتي الرق وضرب المرأة، لكنّ مواجهته لهما كانت تمهيديةً وتدرجيةً على مراحل ودفعات، ومن خلال تقنين تلكما الظاهرتين بعد أن كانت في الجاهلية متروكةً حسب شريعة الغاب! وفي هذا المجال فإنّ التحليل الذي طرحه آية الله معرفت رحمته الله يبيّن حكمة الإسلام في التشريع بأبهى صورها، لكن ما قد يتوقّف عنده هو إطلاق مصطلح "النسخ" على هذا النوع من التشريع.

ومحل الإشكال أنّه قد مرّ في تعريف النسخ أنّه «رفع تشريع سابق - كان يقتضي الدوام حسب ظاهره - بتشريع لاحق، بحيث لا يمكن اجتماعهما معاً، إمّا ذاتاً، إذا كان التنافي بينهما بيّناً، أو بدليل خاص، من إجماع أو نصٍّ صريح» ^(٥). والحال أنّنا

٥ - المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٦٧.

في المثالين المذكورين لا نجد تشريعاً لاحقاً جاء عن طريق الإجماع أو النصّ الصريح، يصلح أن يكون ناسخاً لتشريع صريح في القرآن الكريم. يقول السيد الخوئي رحمته الله: «إن الحكم الثابت بالقرآن ينسخ بالسنة المتواترة، أو بالإجماع القطعي الكاشف عن صدور النسخ عن المعصوم عليه السلام، وهذا القسم من النسخ لا إشكال فيه عقلاً ونقلاً، فإن ثبت في مورد فهو المتبع، وإلا فلا يلتزم بالنسخ»^(١).

أما في المثال الأول، فليس في القرآن آية صريحة تدعو إلى الاسترقاق، اللهم إلا آية واحدة مرتبطة بأسرى الحرب: **فَأَمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا**^(٢)، وهي لا تدعو إلى الاسترقاق؛ وإنما ذكرت الفداء أو إطلاق السراح بلا مقابل. وبالتالي فليس ثمة آية تدعو إلى الاسترقاق ليقال إنها نسخت. فإن قيل إن ثمة آيات تمضي ملك اليمين وتذكر له

أحكاماً فإن السؤال يأتي عن الآية الناسخة، أين هي؟ فإن قيل إن الناسخ هو الروايات، فإنّ الجواب أنّ الروايات لا تتنافي مع الآيات المرتبطة بملك اليمين ليكون ثمة موضوع للنسخ.

وحاصل الكلام أنّ إطلاق النسخ على هذا المثال فيه إشكال، وإن كانت الحكمة في هذا النوع من التشريع في الإسلام، من جهة التمهيد لإزالة هذه الظاهرة من المجتمع ليست بعيدة أبداً.

وكذلك في المثال الثاني، فهل يمكن أن يقال إن من يضرب زوجته الناشز مراعيّاً الشروط المذكورة في الآية الكريمة والروايات الشريفة يكون آثماً، والحال أنّه يفعل بما هو مطابق لصريح القرآن الكريم؟

نعم؛ قد يقال: إنّ حكم الضرب في الآية منسوخ في السنة، كما ذكر آية الله معرفت رحمته الله: «فالأية في ظاهرها منسوخة، وكان تفسيرها من قبل النبي هو الناسخ لهذا الظهور البدائي في

١- الخوئي، مصدر سابق، ص ٣٠٥.

٢- سورة محمد، الآية ٤.

واقع الحال»^(١). لكن يأتي الإشكال بأن السنة إنما تنسخ إذا كانت متواترة، كما ذكر السيد الخوئي رحمته الله، والتواتر في مقامنا هذا مفقود. نعم، قد نظمنا بصحة الروايات الناهية عن ضرب المرأة، لكن في مقام الاستنباط يقال إن بينها وبين الآية الكريمة تعارضاً غير مستقر، فيقال إن تلك الروايات مخصصة للآية الكريمة، ويؤيد هذا القول الروايات التي حددت الضرب بالضرب بالسواك.

ولذا يمكن القول إن التعارض الظاهري بين آيات ملك اليمين وضرب المرأة مع الروايات المرتبطة بهذين الموضوعين إنما هو من باب التخصيص، فصلاحيات السيد العامة في التعامل مع ملك يمينه إنما تتخصص بالمعاملة التي تتناسب مع ما ذكر في الروايات، وكذلك حكم ضرب المرأة يتخصص بما ذكر في الروايات من طبيعة الضرب وشروطه وحدوده... مع الإقرار بوجود حكمة

١ - معرفت: التمهيد في علوم القرآن، مصدر

مستبطنة تتمثل في التمهيد لإلغاء هذه الظاهرة وتلك من المجتمع الإسلامي. وخلاصة الكلام أنه لا يمكن أن يقال إن في الآية نسخاً، وإن كان لا ينبغي الشك في أن التشريع الإسلامي في ما يرتبط بضرب المرأة جاء ليمهد الطريق أمام إلغاء هذه الظاهرة من المجتمع الإسلامي.

فالإشكال الوارد هنا ليس على أصل التحليل الذي تفضل به آية الله معرفت رحمته الله؛ وإنما هو على إطلاق مصطلح "النسخ" على هذا النوع من التشريع. ولهذا يقول الدكتور محمد علي الرضائي عن النسخ المتدرج والنسخ المشروط: «إن هذا القسم في الحقيقة ليس هو النسخ المطابق للمصطلح المشهور، بل هو عبارة عن أحكام متعددة يرتبط كل واحد منها بظروف وشرائط خاصة، وإن لحاظ تغير الحكم بتغير الشرائط والظروف في صلب الحكم لا يعد نسخاً؛ بل هو مجرد تغير في الموضوع، يستتبعه تغير في الحكم أيضاً. وهذه المقولة تسمى بالنسخ المشروط؛ لأن رفع وإعادة

الحكم يرتبط بالشرائط والظروف، كما يسمّى بالنسخ التدريجي والتمهيدي أيضاً؛ إذ يمكن للشارع أن يرفع التشريع أو الحكم عبر عدة مراحل، ويبين الحكم الجديد بعد توفّر عدد من المقدمات، كما هو الحال بالنسبة إلى تحريم الخمر، ونسخ الاسترقاق»^(١).

واللطيف في هذا المجال أنّي قد وجدت أثناء البحث نصّاً لآية الله معرفت رحمته الله يصريح فيه بأنّ هذا النوع من التشريع ليس من النسخ، فبعد أن يقول: «بيّنت الروايات أنّ الضرب تأديبي وليس إيلامياً، وهدفه بعث المرأة على الرجوع [عن الشوز]؛ فلو كان الضرب للإيلام لكان باعثاً على المزيد من النفور. تقول الآية عظمهن، فإن لم تؤثّر الموعظة فعاتبوهنّ واحملوهن على الصلاح، ولا تقول: "عذبوهن". لقد جاءت الآية حتى يسأل الناس عن معنى الضرب وتتحقّق

١ - الرضائي الأصفهاني: النسخ المشروط، مصدر سابق، ص ١٠١-١٠٢.

الأرضيّة المناسبة للإلغاء عادة سيّئة؛ من خلال تجويز نوع من الضرب ليس واقعه من الضرب في شيء»^(٢). يسأله أحد الحاضرين: إذاً فهنا ليس لدينا إزالة لحكم سابق، فلا يكون هذا من النسخ بالمعنى المصطلح؟ أجاب: «عندما أردت أن أضع اسماً لهذا النوع من النسخ فكّرت كثيراً؛ لأن اسمه الأصلي كان "تمهيد النسخ"، أي تهية الأرضية لنسخ شيء، لكن لما كانت هذه العبارة غير عريية، فقد أسميته "النسخ التمهيدي"»^(٣).

٢ - معرفت، مقابلة aftabnews، مصدر سابق، وأصل المتن الفارسي: |روايات| بيان كرده اند ضرب توهيني است نه ايلامي و زن را به بازگشت تحريك مي كند. چون اگر ضرب ايلامي باشد، باعث ازدياد نفرت مي شود. آيه مي فرمايد موعظه كنيد اگر مؤثر نبود، عتاب كنيد و به قهر بگيريد تا اصلاح شوند، نمي گويد شكنته كنيد. اين آيه آمد تا مردم از معنای ضرب بپرسند و زمينه اي باشد براي حذف يك عادت زشت چون ضربي را تجويز مي كند كه در واقع ضرب نيست

٣ - معرفت، مقابلة aftabnews، مصدر سابق، وأصل المتن الفارسي: من وقتي مي خواستم =

فالمستنتج من هذا الكلام أن النسخ المتدرج ليس نسخاً؛ وإنما أطلق عليه مصطلح النسخ مع مسامحة وتجاوز. لكن الأهم هنا أن ما طرحه آية الله معرفت رحمته الله في مسألة ضرب المرأة يعدّ من أروع ما كتب في تفسير الآية المذكورة. وليان هذه الميزة عنده لا بأس بأن نتعرض لجملته من التفاسير المطروحة حول الآية المذكورة.

ضرب المرأة الناشز بين المفسرين

ارتضينا في هذا المجال أن ننقل بعض آراء المفسرين حول الآية المذكورة وحكم ضرب المرأة الناشز فيها:

مجمع البيان: ذكر العلامة الطبرسي رحمته الله المرتبة الثالثة من التعامل مع المرأة الناشز، وهي «ضربها

ضرباً غير مبرح، وقيل في معنى غير المبرح أن لا يقطع لحماً ولا يكسر عظماً ونقل الرواية عن أبي جعفر عليه السلام: أنه الضرب بالسواك»^(١).

تفسير الميزان: نقل العلامة الطباطبائي رحمته الله في تفسيره للآية عن أبي جعفر عليه السلام قال: «يحول ظهره إليها»، وفي معنى الضرب عن أبي جعفر عليه السلام: «أنه الضرب بالسواك»^(٢).

تفسير الأمثل: ذكر آية الله مكارم الشيرازي تفسيراً لطيفاً للآية، فقال: «فاضربوهن لدفعهن إلى القيام بواجباتهن الزوجية لانهصار الوسيلة في هذه الحالة في استخدام شيء من العنف»، ثم ذكر نقاطاً ثلاثاً توضيحاً للمسألة: «الأولى: أن الآية تسمح بممارسة التنبيه الجسدي في حق من لا يحترم وظائفه وواجباته، وجميع القوانين العالمية تتوسل بالأساليب

= براي اين نوع نسخ اسم گذارى كنم خيلى فكر كردم، چون اسم اصلي آن «تمهيد النسخ» بود، يعنى زمينه سازى براي نسخ چيزي اما اين عبارت عربى نبود، لذا نام آن را «النسخ التمهيدى» گذاشتم

١- الطبرسي، مجمع البيان، مصدر سابق، ج: ٣

ص: ٦٩

٢- الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير

القرآن، مصدر سابق، ج: ٤، ص ٣٤٩.

الغنيمة في حق من لا تنجح معه الوسائل والطرق السلمية لدفعه إلى تحمل مسؤولياته والقيام بواجباته. والثانية أن التنبيه الجسدي المسموح به هنا يجب أن يكون خفيفاً، كما هو مقرر في الكتب الفقهية. والثالثة أن علماء التحليل النفسي -اليوم- يرون أن بعض النساء يعانين من حالة نفسية هي " المازوخية " التي تقتضي أن ترتاح المرأة لضربها وأن هذه الحالة قد تشتد في المرأة إلى درجة تحس باللذة والسكون والرضا إذا ضربت ضرباً طفيفاً. وعلى هذا يمكن أن تكون هذه الوسيلة ناظرة إلى مثل هؤلاء الأفراد الذين يكون التنبيه الجسدي الخفيف بمثابة علاج نفسي لهم^(١).

تفسير المنار: ينقل محمد رشيد رضا عن أستاذه محمد عبده قوله:

«إن مشروعية ضرب النساء ليست بالأمر المستنكر في العقل أو الفطرة، فيحتاج إلى التأويل، فهو أمر يحتاج إليه في حال فساد البيئة وغلبة الأخلاق الفاسدة، وإنما يباح إذا رأى الرجل أن رجوع المرأة عن نشوزها يتوقف عليه، وإذا صلحت البيئة، وصار النساء يعقلن النصيحة، ويستجبن للوعظ، أو يزدجرن بالهجر، فيجب الاستغناء عن الضرب، فلكل حال حكم يناسبها في الشرع»^(٢)، ثم ذكر محمد رشيد رضا رأيه بعد أن ينقل جملة من الأحاديث التي ذكرناها سابقاً، حيث علق على الحديث النبوي «ولن يضرب خياركم» بقوله: فما أشبه هذه الرخصة بالحظر! وجملة القول أن الضرب علاج مر، قد يستغني عنه الخير الحر، ولكنه لا يزول من البيوت بكل

١- مكارم الشيرازي، الشيخ ناصر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، دار الأمير، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥م، ج ٣، ص ٢٢١-٢٢٢.

٢- رضا، محمد رشيد: تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، لا ط، ١٩٩٠م، ج ٥، ص ٦٢.

حال، أو يعم التهذيب النساء والرجال»^(١).

تفسير في ظلال القرآن: قال سيّد قطب في تفسيره "في ظلال القرآن": «واستصحاب المعاني السابقة كلها واستصحاب الهدف من هذه الإجراءات كلها يمنع أن يكون هذا الضرب تعذيباً للانتقام والتشفي. ويمنع أن يكون إهانة للإذلال والتحقير، ويحدد أن يكون ضرب تأديب، مصحوباً بعاطفة المؤدب المربي. ومعروف أن هذه الإجراءات كلها لا موضع لها في حالة الوفاق بين الشريكين في المؤسسة الخطيرة. وإنما هي لمواجهة خطر الفساد والتصدّع، فهي لا تكون إلا وهناك انحراف ما هو الذي تعالجه هذه الإجراءات. وحين لا تجدي الموعظة، ولا يجدي الهجر في المضاجع، لا بد أن يكون هذا الانحراف من نوع آخر، ومن مستوى آخر، لا تجدي فيه الوسائل

الأخرى، وقد تجدي فيه هذه الوسيلة! وشواهد الواقع، والملاحظات النفسية، على بعض أنواع الانحراف، تقول: إن هذه الوسيلة تكون أنسب الوسائل لإشباع انحراف نفسي معين، وإصلاح سلوك صاحبه وإرضائه في الوقت ذاته»^(٢).

من هذه الجولة على آراء المفسرين نخرج بنتيجة مفادها أن أحداً منهم لم ينظر إلى الآية الكريمة والحكم فيها بمنظار آية الله معرفت عليه السلام؛ فبعض التفاسير اقتصر على تفسيرها بالمنهج الروائي، وبعضها من ذوات الاتجاه الاجتماعي حلّل فيها وقدم نتائج جيّدة ومفيدة، لكنها لم تنظر إلى ما وراء الحكم فيها وتطبيقها في المجتمع على مسار التاريخ، كما فعل آية الله معرفت عليه السلام؛ حيث قرأ الآية وهي

٢ - سيد قطب، إبراهيم الشاربي: في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط ١٧، ١٤١٢ هـ.ق، ج ٢، ص ٦٥٤.

١ - المصدر نفسه، ج ٥، ص ٦٢.

تطبق في المجتمع على مرّ التاريخ، مع ما تبعها من روايات وأحكام إسلامية أصيلة، ومع تحليل نفسي اجتماعي لطبيعة الحياة الأسرية والعلاقات الزوجية، وفي ظلّ حكمة الإسلام وتشريعه الكامل والشامل والرحيم، قال إنّ هذا الحكم لا بدّ من أن يكون وراءه حكمة تتمثّل في قلع هذه العادة السيئة من الجذور، لكن بالشكل التدريجي بطبيعة الحال.

خاتمة

نشير إلى أنّ ما ذكرناه من الآراء إنما هو على سبيل المثال لا الحصر، حيث يمكن للنسخ المشروط والمتدرّج أن ينطبقا على كثير من الأحكام الشرعية الأخرى، كما يقول آية الله معرفت رحمته: «وهكذا يجد الباحث كثيراً من أعراف جاهلية جاراها الإسلام، ولكن لغرض إحداثها لا ليسايرها، كما في مثل الظهار

والإيلاء واللعان، وضع لها الإسلام أحكاماً شديدة ليكافحها ويقلع جذورها، وكذا مسألة ولاء العتق وضمان الجريرة والإمتاع بالميراث وغيرها»^(١).

ومما تقدّم، يمكن القول إنّ ما طرحه آية الله معرفت رحمته يمكن أن يكون منطلقاً لحلّ كثير من الإشكالات المطروحة حول بعض الأحكام، على أنّ هذا الطرح ينسجم مع مرونة الإسلام وتكيّفه مع الظروف الزمانية والمكانية بفتحه لمساحة الأحكام الثانوية مضافاً إلى الأحكام الأولية.

نعم، قد أشرنا إلى أنّ إطلاق مصطلح النسخ (وإن لم يكن نسخاً مطلقاً؛ بل كان نسخاً مشروطاً أو تمهيدياً أو تدريجياً) فيه مسامحة وتجاوز؛ إذ إنّ المعنى المراد من المصطلحات ليس من النسخ أصلاً

١- معرفت: التمهيد في علوم القرآن، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٩١.

ليظهر على أنها فرعٌ من فروع النسخ. ومن جهة أخرى فإن هذه النظرة إلى بعض الأحكام الإسلامية في غاية الأهمية كما ذكرنا، لكن إطلاق النسخ عليها قد يوهم التشويش فيها، ولذا فلعل من الأجدر أن يطلق عليها تسميةً أخرى تخلو من التشويش، كأن يعبر عنها بـ "التشريع التمهيدي" أو "التشريع المتدرّج" وما شابه؛ باعتبار أنها جزءٌ من عملية التشريع الأعم من النسخ وغيره.

وخلاصة الكلام أنّ نظرية آية الله معرفت رحمته الله ينبغي أن تكون منطلقاً لفهم جديد للإسلام وتشريعه، ومفتاحاً لحلّ كثيرٍ من الإشكاليات، كما «إنّ مسألة النسخ المشروط يمكن لها أن تكون طريقاً لتوجيه كثيرٍ من الآيات الناسخة والمنسوخة طبقاً للمصطلح المشهور، كما يمكن لها أن تكون آلية لتطبيق آيات القرآن على العصور والأجيال الجديدة، بمعنى أنّه من الممكن على أساس الشرائط

والمقتضيات والموضوع والمكان والأفراد أن يتمّ تطبيق أحد أحكام الإسلام، وعلى أساس الشرائط الأخرى يتمّ تطبيق حكمٍ آخر»^(١).

* * *

١ - الرضائي الأصفهاني، مصدر سابق،

”التصميم العظيم قراءة نقدية“ لأراء ستيفن هوكينج

□ الشيخ هاشم الضيقة (*)

خلاصة

يُعَدُّ الإلحاد من الآفات التي تأبأها الفطرة الإنسانية والمنطق العقلي، وإنَّها ظاهرة متجذرة في تاريخ البشرية، قد بدأت تستشري في الآونة الأخيرة في بعض الدول الغربية لتنتقل العدوى إلى بلادنا الإسلامية، فكان لا بد من قول كلمة عميقة وعلمية في وجه هذا المرض الفكري. من هنا كُتِبَت هذه القراءة النقدية لكتاب ”التصميم العظيم“، حيثُ بدأت بتصنيفه بحسب أسباب الإلحاد، ثمَّ يَنتُ مفصل الكتاب بخلاصة سُلْط الضَّوء خلالها على مكان النِّقد، وبعد ذلك تناولت النِّقد من جهات ثلاث: علم المعرفة، علم الفلسفة، وعلم الفيزياء، وخُتِمت ببيان مسيرة البحث وأهمَّ الخلاصات والنتائج.

الكلمات المفتاحية: هوكينج، العلوم الطبيعية، التصميم، الإله، الإلحاد، الطَّواهر.

(*) باحث في مجال الدراسات الفكرية.

تمهيد

حين انكشفت الساحة الإسلامية غزت بلادنا شلالات من المبادئ والتيارات الفكرية الغربية والشرقية، وتعدّ التيارات الإلحادية واللا دينية من أمهات الأمراض الخبيثة التي ما برحت تتسرب إلى مجتمعاتنا، بدوافع وأسباب مختلفة، فتظهر تارة بدوافع تجريبية مرتبطة بالعلوم الطبيعية تخالفها يقينية! وأخرى تصطبغ بصبغة فلسفية مرتبطة بالعلوم العقلية تظنها واجبة القبول! وثالثة تكون نتيجة لانفعالات نفسية لا يصح الاعتماد عليها في مقام اتخاذ موقف فكري أو رؤية عن الكون.

وما نحن بصدد مناقشته هو كتاب "التصميم العظيم" للفيزيائي المعروف ستيفن هوكينج^(١) (Stephen Hawking) وليونارد ملودينو^(٢) (Leonard Mlodinow)، الذي يعدّ حلقة من مسلسل الدعوة إلى الإلحاد بدافعه الأول، أي المرتبط بالعلوم الطبيعية، وبالفيزياء على نحو الخصوص، ويصنّف هذا الكتاب بالإضافة إلى ما ألفه الأحيائي ريتشارد دوكنز^(٣) (Richard Dawkins) "وهم الإله" من أشهر ما صنّف في الإلحاد في أوساط الطبيعيين المعاصرين.

بعد مسيرة من العطاء العلمي، والمصنّفات القيّمة ككتاب "تاريخ موجز للزمن" خرج ستيفن هوكينج إلى الساحة العالمية وبرز اسمه من خلال كتاب "التصميم العظيم" -الناسخ لبعض الأفكار الواردة في كتابه المتقدّم - كواحد من المبشرين بالإلحاد باللغة العلمية! مع أنّ هناك العديد من العلماء الكبار - حتّى الطبيعيين - قد

١ - ستيفن هوكينج: عمل كأستاذ للرياضيات في جامعة كامبريدج لمدة ثلاثين عاماً، وحصل على عدد كبير من الجوائز، له كتب منها: "تاريخ موجز للزمن" و"الكون في قشرة جوز" ومجموعة من المقالات. (راجع: هوكينج، ستيفن، التصميم العظيم، ص ٢٢٣)

٢ - ليونارد ملودينو: عالم فيزياء في جامعة كالتيك، وله العديد من المؤلفات، يعيش في ولاية كاليفورنيا (راجع: المصدر نفسه)

٣ - ريتشارد دوكنز: عالم أحياء جزئية، ولد في كينيا ويعمل لأكثر من جهة منها جامعة أكسفورد البريطانية، وهو يقدم نفسه على أنّه ملحد (راجع: دوكنز، ريتشارد، وهم الإله، ص ٢).

أنكروا عليه بعض المقدمات واستغربوها فضلاً عن النتائج التي آل إليها كما سيوافيك، من قبيل ريتشارد دو كينز (Richard dawkins) وجون لينكس (John Lennox)^(١) وجون بولكينجهورن (John Polkinghorne)^(٢) وفرانك كلوز (Frank Close)^(٣). فهل يا ترى نجح أحد أشهر الفيزيائيين المعاصرين بآلته العلمية في إثبات عدم وجود قوة ما وراثية أخرجت العالم من العدم والظلمة إلى حيز الوجود والنور؟ وهل كانت أجوبته على الأسئلة المرتبطة بالرؤية الكونية متسقة علمياً؟ أم أنه خبطَ خبطَ عشواء عندما تدخل في قضايا لا تنالها آلته التجريبية؟

هذا ما سنتعرف إليه من خلال هذه القراءة النقدية لكتاب "التصميم العظيم". قبل أن نشرع في القسم الأول، لابد أن أتبه القارئ العزيز على أمر بالغ الأهمية وينفع كدستور في الحياة العلمية: "الهراء يبقى هراء، حتى لو صدر من مشاهير العلماء"^٤، لذا، لابد من النظر والتأمل في الكلام نفسه وإخضاعه للموازن العلمية والمنطقية بمعزل عن هالة قائله، خصوصاً أن البعض يحاول الاستفادة من صيت العلوم الطبيعية لترويج تخميناته.

أولاً: جولة في كتاب "التصميم العظيم"

صدرت الترجمة العربية للكتاب عام ٢٠١٣م بثمانية فصول موزعة على مئتين واثنين وعشرين صفحة. مع الصفحة الأولى من الكتاب يرسم المؤلف النتيجة التي

١ - جون لينكس: عالم رياضيات في جامعة أكسفورد، وعالم في فلسفة العلم، وهو متخصص في نقد الإلحاد الجديد، له العديد من المؤلفات (راجع: أقوى براهين د. جون لينوكس في تفنيد مغالطات منكري الدين، جمعه وعلق عليه أحمد حسن، المقدمة تحت عنوان هذا الكتاب).

٢ - جون بولكينجهورن: عالم فيزياء نظرية ومفكر ديني وكاتب، كان أستاذاً للفيزياء الرياضية في جامعة كامبريدج.

٣ - فرانك كلوز: هو فيزيائي، وكاتب غير روائي، وأستاذ جامعي، وعالم أدار جامعة أكسفورد (مقتبس من ويكيبيديا الموسوعة الحرة بتاريخ ٢٣-٥-٢٠١٨ فرانك - كلوز <https://ar.wikipedia.org/wiki>)

٤ - عبارة حكيمة منسوبة لجون لينكس في كتاب أقوى براهين د. جون لينكس في تفنيد مغالطات منكري الدين لأحمد حسن، ص ١٠١.

تفوح منها رائحة إنكار الفاعل الموجد، قال: "إنَّ للكون تصميمًا، و كذلك هذا الكتاب. لكن على خلاف الكون فإنَّ الكتاب لا يظهر تلقائيًا من العدم. فالكتاب يحتاج إلى خالق"^(١).

يصدر المؤلفُ الفصلَ الأولَ المعنون بـ "لغز الوجود" بأسئلة محورية: كيف يتصرف الكون؟ ما حقيقة الواقع؟ من أين أتى كل ذلك؟ هل الكون بحاجة لخالق؟ ثم يعلن زاعماً موتَ الفلسفة التي كانت تجيبُ على هذه الأسئلة، ويُسند مهمّة الإجابة إلى علماء الطّبيعيّات فإنَّهم المعنيون اليوم بالإجابة.

وفي ذيل هذا الفصل يذكر هدف الكتاب وهو تقديم الإجابة التي تفرضها الاكتشافات العصرية، ويسأل: هل سيصل اليوم الذي يبيّن فيه نظرية نهائية تفسّر كل شيء؟ ثم يقول لا يوجد إجابة محدّدة، لكن هناك نظرية مرشّحة وهي نظرية "إم" المؤلّفة من عدّة نظريّات و التي تحدّث عنها الكاتب في فصول لاحقة.

وأما في الفصل الثاني الذي يحمل عنوان "سيادة القانون"، يقول إنَّ إرجاع أفعال الطّبيعة إلى الآلهة لم يكن إلا لعدم معرفة أسبابها، فإنَّ للكون سيّداً ألا وهي القوانين، والطّبيعة محكومة بها.

فيظهر من عبارات هذا الفصل أنَّ المصنّف يعتقد بقضيّة مفادها كلّما تطوّر العلم وفُسّر الظواهر كلّما قلّت أو انتفت الحاجةُ إلى الإله.

وأما الفصل الثالث فقد حملَ عنوان "ما الواقع؟" وقد أكثر الكاتبُ من الأمثلة ليقول: إنَّ كلَّ النّظريّات أو النّماذج المقترحة لتفسير الواقع هي ناجحة في بعض الجوانب وغير ناجحة في جوانب أخرى كتلك التي طرحها بطليموس^(٢) ونيوتن^(٣) وغيرهما، وعليه إنَّ أيَّ نظريّة أو فرضيّة تُطرح لتفسير الواقع سيكون تفسيرها تقريبياً وليس واقعياً بالكامل. وبعد ذلك يعرض الكاتب لمعايير تمييز النّموذج المناسب من

١- هو كينج، ستيفن، التصميم العظيم، ص ٧.

٢- كلوديوس بطليموس: رياضي وعالم فلك من القرن الثاني الميلادي.

٣- إسحاق نيوتن: عالم رياضيات وفيزياء مشهور جدًا له العديد من النّظريّات.

غيره؛ كالأناقة و الاحتواء على عدد أقلّ من العناصر القابلة للتّعديل، واتّفاقه مع الملاحظات التجريبية، والقدرة على تقديم تنبؤات مستقبلية.

وأما الفصل الرابع فقد تناول الكاتب فيه مبدأً جديداً في "نظرية الكوانتم" (Quantum Theory) وهو "التواريخ البديلة" (Alternative Histories)، يبدأ الفصل بعرض تجربة "شقي يونج" المشهورة، حيث تُطلق الإلكترونات على لوحة ذات شقين خلفها لوح حسّاس، لتظهر نتيجة غير مألوفة^(١)، حيث إنّ كل إلكترون كان يسلك من كلا الشقين معاً وفي آن واحد!

ثمّ يذكر الكاتب مبدأً مهماً في فيزياء الكمّ وهو مبدأ الشكّ (اللاحتمية)، ليرتب على ذلك كلّ استنتاجاً فلسفياً مفاده عدم خضوع الطبيعة لنظام عللٍ وأسبابٍ حتميةٍ وثابتة، بنحو تكون معرفتنا بالعلّة موجبةً لعلمٍ حتميٍّ بالمعلول.

في الفصل الخامس الموسوم بـ "نظرية كل شيء" قسّم قوى الطبيعة بحسب التقسيم المدرسيّ إلى أربعة: الجاذبية، الكهرومغناطيسية، النووية الضعيفة، والنووية القوية، ثمّ أردف قائلاً إنّ العلماء قد فكروا في نظرية "كل شيء" التي توحد الفئات الأربع في قانون واحد يتوافق مع نظرية الكمّ، وقد استفاد في هذا الفصل في الحديث حول الجمع بين هذه القوى ليقول في النهاية: "إنّ الأمل الرئيسيّ لدى علماء الفيزياء في إنتاج نظرية واحدة، تقوم بتفسير القوانين الظاهرية كنتيجة فريدة محتملة لعدد قليل من الافتراضات ربّما يجب التخلّي عنه. أين يتركنا ذلك؟ إذا سمحت النظرية - إم " بوجود ١٠ جذر ٥٠٠ مجموعة من القوانين الظاهرية، فكيف سيكون مآلنا في هذا الكون، بتلك القوانين الظاهرية لنا؟ وماذا عن تلك العوالم الأخرى المحتملة؟"^(٢).

١- للتوسّع راجع كتاب القوى الأربع الأساسية في الكون لبول ديفيز، ص ٦٦ تحت عنوان: الطبيعة الغريبة لحقيقة الكمّ.

٢- هو كينج، ستيفن، التصميم العظيم، ص ١٤٦-١٤٧.

من الفصل السادس "اختيار كوننا" يبدأ في بيان المستند النظري للنتيجة التي يرومها، والتي تشكل الإجابة على الأسئلة التي صدر بها الكتاب؛ لماذا يوجد الكون؟ ولم هو بهذه الهيئة؟

يمهد للإجابة بعرض مختصر عن تاريخ نشوء الكون، يذكر خلاله ما اكتشفه العلماء من توسعه السريع الذي يلازمه أن يكون الكون قد انطلق من نقطة، كان منها الانفجار العظيم.

من المسائل المهمة التي أخرجت العالم الفيزيائي هو كينج في مسيرته التفسيرية لنشأة الكون هي مسألة بدايته الزمانية، فهو يزعم عدم وجود الفاعل وذلك من خلال طريقتين:

الأول: نفى بداية زمانية للكون، فإن تخلصه من اللحظة الزمانية التي يدعى نشوء الكون فيها، يسهل عليه خطب نفى الفاعل الموجد. أمّا كيف نفى الكاتب زمن البداية؟ فيقول إن الزمان عند بداية الكون كان بعداً مكانيّاً رابعاً بالإضافة إلى الطول والعرض والارتفاع، وسميت هذه الأبعاد بـ "الزمكان"، وعلى هذا الافتراض يكون الكاتب قد تخلص من بُعد الزمان، فانتفت جدوائية السؤال عن الزمان الذي نشأ فيه الكون وانطلق منه: "إن إدراك أن الزمن يتصرف كاتجاه آخر للمكان يعني أن المرء يمكنه التخلص من مشكلة أن الزمن له بداية"^(١)، وهكذا تفقد فرضية الفاعل جدوائيتها. يقول: "على مدار قرون فإن الكثيرين، ومنهم أرسطو، اعتقدوا أن الكون يجب أن يكون موجوداً دائماً ليتجنبوا موضوع كيف تم إنشاؤه. وقد اعتقد آخرون أن للكون بداية، واستخدموا ذلك كحجة على وجود الله. إن إدراك أن الزمن يتصرف مثل المكان يقدم بديلاً جديداً، فهو يزيل الاعتراض القديم بأن للكون بداية.."^(٢)

١- المصدر السابق، ص ١٦٤-١٦٥.

٢- هو كينج، ستيفن، التصميم العظيم، ص ١٦٥.

الثاني: سيادة القوانين، حيث إنَّ بداية الكون كانت محكومة بقوانين قد تقدّمت الإشارة إليها، وبالتالي فإنَّ الطبيعة غنيّة بقوانينها عن الإله في وجودها، قال: "لكنّه يعني أيضاً أنّ بداية الكون كانت محكومة بقوانين العلم وأنَّ الكون ليس بحاجة للانطلاق بمعرفة إله ما"^(١).

ثمَّ يذكر مشيراً إلى التفسير الكُمومي لبداية الكون: "إذا كانت بداية الكون حدثاً كُمومياً، فيجب أن توصف بدقّة بواسطة محصّلة فاينمان عبر التّواريخ [...] لقد رأينا [...] جسيمات المادّة التي يتمّ إطلاقها على شاشة ذات فتحتين قد تظهر شكل تداخل [...] وقد أوضح فاينمان [...] أنّه أثناء تحرّكه من النّقطة (أ) إلى النّقطة (ب) فإنّه لا يتّخذ مساراً واحداً محدّداً، وبالتالي فإنّه يتّخذ بالتّزامن كلّ مسار يحتمل أن يصل بين هاتين النّقطتين، ومن وجهة النّظر تلك فإنّ التّداخل لا يثير الدهشة؛ لأنّ الجسيم على سبيل المثال يمكنه الانتقال خلال تلك الفتحتين في الوقت نفسه وأن يتداخل مع نفسه"^(٢).

ونستعين بما ذكره في كتاب "تاريخ أكثر إيجازاً للزّمن": "فإنّ ميكانيكا الكمّ تقدّم عنصراً لا يمكن إغفاله للعشوائية"^(٣)، ولكن لن نقول كما قال أينشتاين "إنّ الرّبّ لا يلعب التّردّد"، بل نتأمّل: ألا ينبغي أن توجد الأشياء في الرّتبة السّابقة كي تتصرّف بعشوائية فيما بعد؟ وعند ذلك من حقّ أيّ منّا أن يسأل من الموجد؟

وفي الفصل السّابع "المعجزة الظّاهريّة" يبيّن الكاتب الجوانب المميّزة لكوننا التي جعلته صالحاً لنشوء الحياة على كوكب الأرض، فإنّه وبعد سرده لجوانب الإبداع الكونيّ يذهب إلى فرضيّة مغايرة لفرضيّة الإله والمصمّم الذّكي! وهي فرضيّة "تعدّد الأكوان" أو ما يسمّيه بعنوان عام "التّصميم العظيم".

١- المصدر نفسه.

٢- المصدر السابق، ص ١٦٦.

٣- تاريخ أكثر إيجازاً للزّمن، ستيفن هوكينج وليفونارد ملودينوو، ص ١٠١.

هذا، وشكك في بعض الرؤى الكونية الدينية، التي تفسر مبدأ الكون بوجود الإله والمصمم الذكي. ثم عكف على الحديث حول نظرية "إم" مدعياً أنها نموذج مرشح لتفسير كل شيء!

وأما الفصل الأخير الذي حمل عنوان الكتاب "التصميم العظيم" فقد لخص فيه الإجابات المقترحة على الأسئلة الأساسية التي صدر بها الكتاب: لماذا يوجد هناك شيء بدلاً من لا شيء؟

لماذا نحن موجودون؟

لماذا توجد هذه المجموعة من القوانين العلمية بدلاً من غيرها؟

يدعي هو كينج أن الإجابة على هذه الأسئلة ليس بالضرورة أن تكون بفرض وجود إله، خصوصاً أنه سينقلب السؤال: من خلق الإله؟ وكأن هذا يشكّل تحدياً أمام الكاتب مع أنه فلسفياً سهل المؤونة.

واختصاراً للكلام وتجنباً للإسهاب ننقل هذا المقطع من كتابه والذي يلخص إجابته على الأسئلة: "فإنّ الكون يمكنه أن يخلق نفسه من لا شيء، وسوف يفعل ذلك بالطريقة التي تمّ وصفها في الفصل السادس، والخلق التلقائي هو السبب في أن هناك شيئاً من اللاشيء، فلماذا يوجد الكون؟ ولماذا نوجد نحن؟ ليس من الضروري أن نستحضر إلهاً لإشعال فتيل الخلق، ولضبط استمرار الكون"^(١).

لعله قد خطر في بالك أيها القارئ - للوهلة الأولى - سؤال تتوجّه به إلى الكاتب: ما هو الشيء الذي يجعل الكون ينوجد تلقائياً من اللاشيء؟ لقد أجاب عليه في هذا الفصل بأنّ الجاذبية أمر مهمّ في فرضية إيجاد الكون بكّله من اللاشيء بشكل تلقائي، قال: "لأنّ هناك قانوناً مثل الجاذبية، فإنّ الكون يُمكنه أن يخلق نفسه من لا شيء وسوف يفعل ذلك..."^(٢).

١ - هو كينج، ستيفن، التصميم العظيم، ص ٢١٦.

٢ - المصدر نفسه.

إذا اتضح ما تقدّم بيّنه باختصار لمحتويات كتاب "التصميم العظيم" في هذه الإطالة السريعة على أهمّ ما فيه، يجدر بنا نقلُ الكلام إلى القسم الثاني الذي يشكّل عمدة المقالة "القراءة النقدية"، حيثُ سنسلطُ الضوءَ على مكانن الخلط والخطأ في المقدمات والنتائج التي طرحها الكاتب.

ثانياً: القراءة النقدية

النقد المعرفي (مناقشة في المنهج وآلة البحث من زاوية علم المعرفة)

الخلط بين المنهج العقلي والمنهج التجريبي

من أهمّ الأبحاث التي يتناولها علم المعرفة (Epistemology) بالتحقيق هي الأدوات المعرفية، حيثُ يُنقح فيه الأدوات التي يمكن الاستناد إليها في الكشف عن الواقع، ويُحدّد حقل إدراكها وقيمة كلّ واحدة منها، وبناء على تعدّد هذه الأدوات انقسمت المناهج وتعدّدت، فنشأ المنهج التجريبي والمنهج العقلي. اعتمد المنهج التجريبي -الذي تأخذ به العلوم الفيزيائية والأحيائية والكيميائية - على التجربة كأداة حصرية في الكشف عن الواقع وتفسير الظواهر واعتبرها المصدر الأول لجميع المعارف، وقد ذكر أرباب هذا العلم أنّ نطاق هذه الآلة ودائرة هذا المنهج هي المحسوسات فقط، وهو عاجز عن تخطّي الظواهر الماديّة، ولا سلطان له على ما وراءها.

وأما المنهج العقلي فقد اعتمد على العقل القياسي البرهاني في الكشف عن الواقع والتعرّف على الظواهر، وهو من لديه أهليّة دراسة العلل البعيدة وبعض الأمور الميتافيزيقية.

يقول أنتوني فلو (Antony Flew)^(١) مشيراً للنشائيّة النطاقية بين البحثين التجريبي والعقلي: "فعدّد دراسة التفاعل بين اثنين من الأجسام الماديّة، على سبيل المثال، أو اثنين

١ - أنتوني فلو: فيلسوف بريطاني، له العديد من المؤلّفات، وأكثرها حول فلسفة الأديان، كان طول حياته ملحدًا وألّف كتباً لنفي وجود الإله، ولكنّه في أواخر حياته عدل عن إلحاده وألّف كتاباً نسخ فيه كلّ كتبه السابقة و أسماه "هناك إله". (راجع: المصري، أيمن، نهاية حلم وهم الإله، ص ٦٣).

من الجسيمات ما دون الذرة، فإنك تتحدث في العلوم، وعندما تسأل كيف وُجدت تلك الجسيمات ما دون الذرة - أو أي شيء مادي - ولماذا، فأنت تتحدث في الفلسفة. عندما تستخرج استنتاجات فلسفية من البيانات العلمية، فأنت عندئذ تفكر كـ"فيلسوف"^(١).

وقد ذكر الدكتور عمرو شريف^(٢) في كتابه رحلة عقل^(٣): "الفيلسوف هو الذي يخرج من المعلومات العلمية باستنتاجات معرفية، وربما لا يعرف الكثيرون من علماء الأحياء عن هذه الاستنتاجات أكثر مما يعرف بائع الآيس كريم عن القواعد التي تحكم البورصة وقوانين السوق الحرة"^(٤).

واللافت أن السيد هو كينج نفسه في كتابه "تاريخ موجز للزمن" المتقدم على "التصميم العظيم" قد أشار إلى هذه الحقيقة الميَّنة في علم المعرفة؛ قال: "وحتى الآن فإن معظم العلماء كانوا مشغولين جدًا بإنشاء نظريات جديدة توصف "ما هو الكون" بحيث لم يسألوا عن "لماذا". وعلى الجانب الآخر، فإن الأفراد الذين كانت مهمتهم أن يسألوا "لماذا" أي الفلاسفة، لم يتمكنوا من ملاحقة تقدم النظريات العلمية"^(٥). وكذا أشار في كتاب "التصميم العظيم" لهذا المعنى قبل زعمه موت الفلسفة، فراجع^(٦).

إذن، إن طبيعة السؤال المطروح تحدّد طبيعة الإجابة، ولكلّ إجابة آلة وأسلوب معنيّ بتقديمها، وبعبارة أخرى: إن طبيعة الموضوع هي التي تشخّص آلة وأسلوب بحثه، فلو كانت الظاهرة المبحوث عنها ظاهرةً مميّزةً بيقية أو تتناول العلل البعيدة فإن

١ - المصري، أيمن، نهاية حلم وهم الإله، ص ٦٢، وقد اقتبسه من كتاب (There is a God, p١١٥).

٢ - عمرو شريف: أستاذ مصري وطبيب و رئيس قسم الجراحة في كلية الطب في جامعة عين شمس، مع التخصص الدقيق في جراحة الكبد، له العديد من المؤلفات. (راجع: شريف، عمرو، رحلة عقل، ص ٢٨٧).

٣ - "رحلة عقل: هكذا يقود العلم أشرس الملاحظة إلى الإيمان" ألف الدكتور عمرو شريف هذا الكتاب عن الملحد الذي عدل عن إلحاده في أواخر حياته أنتوني فلو.

٤ - شريف، عمرو، رحلة عقل، ص ٧٦.

٥ - هو كينج، ستيفن، تاريخ موجز للزمن، ص ١٥٠.

٦ - هو كينج، ستيفن، التصميم العظيم، ص ١٣.

العالمَ يلتمسُ الأسلوبَ الفلسفيَّ التَّعَقُّليَّ في تقديم الإجابات والتفسيرات، أو يمكن الإتيانَ بالمجردات إلى المختبر لتفسيرها؟!

نعم، لو كانت الظاهرة ماديّة حسيّة يمكن اختبارها، فلا بدّ من التسلّح بالتَّجربة في مقام معالجتها، كما لا يمكن التَّغافل عن الاستفادة من بعض المقدمات التَّجريبية في البحث الفلسفيّ العقليّ، أو الأخذ بها كأصول موضوعة.

يقول السَّير بيتر مدور (Peter Medawar)^(١): "إلا أن محدودية العلم تتضح في عجزه عن إجابة الأسئلة البدائية التي تتعلّق بالأشياء الأولى والأخيرة، مثل: كيف بدأ كل شيء؟ ما غرض وجودنا؟ ما مغزى الحياة؟"^(٢).

لقد كانت أولى السَّقطات المدوية للكتاب كلفة أنّه استخدم الفيزياء المعتمدة على التَّجربة في بحثه عن العلل البعيدة وتفسيره لظواهر ميتافيزيقيّة وإجابته على أسئلة "لماذا"، وتدخّله في إثباتها أو نفيها مع العلم أنّه لا بدّ أن تكون الفيزياء ساكنة عن مثل هذه القضايا. وفي المواضيع التي كان يحتاج إلى استنتاجات فلسفيّة كان الكاتب يواجه الإخفاق، ذلك لأنّه لا باع له في هذا الحقل من العلوم.

ولعمري إنّ الذي يريد تفسير الظواهر الميتافيزيقيّة أو الحكم عليها بالوجود والعدم من خلال علم الفيزياء، كمن يريد أن يسمع بعينه أو يبصر بأذنه! فلا يمكن لعقل أن يتصوّر النتائج التي سينتهي إليها.

المحيط بمطالب نظريّة المعرفة، يعي تماماً حاكميّة القوانين العقلية على استنتاجات الطَّبيعيّ، فإنّ الفيزيائيّ عندما يريد أن يستنتج نموذجاً ما من تجربة ما، عليه أن يراعي عدم لزوم خُلف أحد القوانين العقلية الثابتة: قانون التناقض، قانون الهوية، وقانون العلّية، وإلاّ فسينتهي إلى استنتاجات لا منطقية، كما أنّ طعنه بهذه القوانين سينجرّ إلى كليّاته التي يخرج بها من خلال التَّجربة.

١- بيتر مدور: طبيب بريطاني مشهور من أصل لبنانيّ، حصل على جائزة نوبل في الطّب لعام ١٩٦٠.

٢- لينكس، جون، العلم ووجود الله، ص ٥٣.

ثبت موتُ هوكينج و لم يثبت موتُ الفلسفة

قال الكاتب: "[...] كانت تلك الأسئلة التقليدية للفلسفة، لكن الفلسفة قد ماتت [...] وأصبح العلماء هم من يحملون مصابيح الاكتشاف في رحلة التنقيب عن المعرفة"^(١).

يمكن القول إن الكاتب كان ملتفتاً لدائرتي البحث الفلسفي والبحث التجريبي، لذا نجدّه يكرّر المسألة نفسها في أهم كتبه، ثم يزعم في كتابه الأخير موتها دون أن يقدم دليلاً أو برهاناً أو حتى تجربة على الأقل تثبت للقارئ هذه الدّعوة! لينفد من ذلك مباشرة إلى البحث التجريبي متسللاً. وقد ثبت لك أيها القارئ أنّ التجربة لا تفلح في تفسير الظواهر الميتافيزيقية.

من المحتمل أن يكون الكاتب في دعواه هذه مقلداً لما قدّمه كلُّ من المدرستين الوضعية والماركسية وأتباع المذاهب التجريبية، وقد أتخمت كتب علماء الإسلام - المصنفة في نظرية المعرفة خصوصاً - تفنيداً ونقداً لهذه المدارس، لذا نعرض عن تكرار ما سطرته أعلامهم^(٢).

تعتمد الفلسفة في معالجتها للظواهر على الأسلوب العقلي البرهاني، وتكتسب حياتها من حجّة هذا المنهج المستفادة من "الخصائص الذاتية للبرهان المؤلف من الصورة البديهية الإنتاج، والمادة الواجب قبولها"^(٣). ثم إنَّ التجريبي نفسه لا يمكنه أن يخرج بنتيجة دون الاستفادة من القياس البرهاني الذي يقوم على أساسه الأسلوب العقلي والفلسفة، فلو مات هذا المنهج لما قام للتجربة قائمة، باعتبار أنّ النتيجة المستفادة منها تنهض على مقدمتين مجتمعتين: الأولى حسية والأخرى عقلية.

١- هوكينج، ستيفن، التصميم العظيم، ص ١٣.

٢- يمكن مراجعة كتاب "فلسفتنا" للسيد محمد باقر الصدر و"الإيديولوجيا المقارنة" للشيخ مصباح الزيد.

٣- المصري، أيمن، أصول المعرفة والمنهج العقلي، ص ١٤٤.

من هنا نقول لهو كينج إن الفلسفة لا تزال حيّة ترزق تستمد وجودها من المنهج العقليّ الذي لولاه لما وصل التجريبيّ إلى نتيجة.. وعلى أيّ حال لابد أن نرجع هو كينج خطوة إلى الوراء ونسأله: ما هو دليلك الفيزيائيّ على موت الفلسفة؟

الصّبغة الميتافيزيقية

إذا بحثنا عن آراء علماء الفيزياء والكيمياء والأحياء فيما يتعلّق بالقضايا الوجوديّة المرتبطة بالإله أو يوم الجزاء أو أيّ عنصر من عناصر الرّؤية الكونيّة لوجدناهم يختلفون فيما بينهم إثباتاً ونفيّاً وتوقفاً.. فكلّ يدعيّ أن المقدمات العلميّة التي يتكئ عليها تفيد الاستنتاج الذي يعتقد به، وهذا على الأقلّ يعدّ شاهداً على أنّ النتائج التي ينتهي إليها الطّبيعيّ في هذا الحقل الميتافيزيقيّ ليست نتاج تجربة حتميّة ولا معادلة رياضيّة إنّما هي مجرد استنتاجات وتخمينات، وغالباً ما تكون مصطبغة بالموقف النّفسيّ الميتافيزيقيّ المسبق الذي يتّخذه العالم الطّبيعيّ حول عناصر الرّؤية الكونيّة^(١).

وهذا الأحيائيّ والكيميائيّ كريستيان دودوف (Christian de Duve)^(٢) يقول: "[...] إلا أنّ الكثير من العلماء لا يشغلون أنفسهم بهذا الفارق، فيتعاملون ضمناً مع الفرضيّة على أنّها حقيقة مؤكّدة، وهم سعداء جداً بما يقدّمه العلم من تفسيرات. وهم في ذلك مثل «لابلاس» لا يحتاجون إلى فرضية الله ويعتبرون الموقف العلميّ موقفاً لا أدريّاً، إن لم يكن إلحاديّاً صريحاً". ويعلّق عالم الرياضيات جون لينكس على هذا المقطع: "وهذا اعتراف صريح أنّ العلم عند الكثيرين لا ينفصل فعليّاً عن موقف ميتافيزيقيّ لا أدريّ أو إلحاديّ يصرّ أصحابه على التمسك به..."^(٣).

١- الإنسان، الإله، الكون.

٢- كريستيان دو دوف: عالم متخصص في علم الأحياء الخلويّ والكيمياء الحيويّة.

٣- لينكس، جون، العلم ووجود الله، ص ٥٩.

ولعل أرنوبنزياس (Penzias Arno)^(١) محققاً في قوله: "البعض لا يشعرون بارتياح لفكرة العالم المخلوق بقصد. وحتى يأتوا بأفكار مضادة للقصد، يضطرون لتخمين أشياء لم يروها"^(٢).

إذن، إن الاستنتاجات التي يخرج بها الطبيعيّ تكون في بعض الأحيان مصطبغة بموقفه الميتافيزيقيّ المسبق. ويتبنّى هو كينج نظرة مشابهة: "الكثيرون لا يحبّون الفكرة التي تقول إن الزمن له بداية، غالباً من أجل أنه يدلّ بوضوح على التّدخل الإلهي"^(٣).

والأنكى من ذلك، حين يقوم الطبيعيّ بحياكة قناع علميٍّ لرؤية فلسفيّة ماديّة إلهاديّة مال إليها أو أعجب بها!

النقد الفلسفيّ (مناقشة في بعض الملازمات والاستنتاجات)

أ. نفي البداية الزمانيّة لا يلازمه انتفاء دور الخالق

يقول هو كينج في إشارة إلى احتماليّة انتفاء دور الخالق في حال انتفاء البداية الزمانيّة للكون:

"وطالما اعتقدنا أن للخلق بداية فإن دور الخالق يبدو واضحاً هنا، أمّا إذا كان الكون بالفعل مغلقاً على نفسه [أي مكتفياً بنفسه بشكل كامل]، وليس له حدود أو حواف، وليس له بداية أو نهاية، فإن الإجابة ليست واضحة: ما هو دور الخالق؟"^(٤).

في هذا الكلام يظهر جانب من الضعف الفلسفيّ لدى عالم الفيزياء حيث إنّ العديد من العلماء والحكماء الكبار على مرّ التاريخ كانوا يعتقدون بأزليّة العالم وقدمه،

١ - أرنو بنزياس: عالم فيزياء أمريكيّ مشهور، وله بعض الاكتشافات، وحائز على جائزة نوبل للفيزياء عام ١٩٧٨.

٢ - لينكس، جون، العلم ووجود الله، ص ١٣٠.

٣ - المصدر السابق، ص ١١٧.

٤ - تاريخ أكثر إيجازاً للزمن، ستيفن هو كينج وليونارد ملودينوو، ص ١١١.

ومع ذلك آمنوا بوجود الإله، وفقاً لأدلة عقلية فلسفية محكمة، ليس محلّ بسطها في هذه المقالة.

فأرسطو طاليس يؤمن بأزليّة المادّة ومع ذلك يؤمن بوجود الإله الصّانع - كما أشار الكاتب^(١) - وكذلك ينسب هذا القول إلى العديد من الفلاسفة المشائين.

قال الشّهستاني: [....] وإنما القول بقدم العالم وأزليّة الحركات بعد إثبات الصّانع، والقول بالعلّة الأولى إنّما ظهر بعد أرسطو طاليس [....] وأبدع هذه المقالة على قياسات [....]^(٢).

وكذلك ابن رشد في كتابه "تهافت التهافت" حيث أقام أدلة أربعة على قدم العالم وهو مع ذلك يؤمن بالإله عن دليل.

إذن، إنّ نفي البداية الزمانيّة للعالم أو القول بقدمه لا يلازمه انتفاء دور الخالق كما يعتقد بعض الفيزيائيين.

ب. نفي الإله الذي تصفه بعض الديانات لا يلازمه نفي المبدأ المجرّد
حاول الكاتب في الفصل السّابع أن يشكّك في فرضيّة وجود الإله من خلال الطّعن بما يقدّم من رؤى ثيولوجيّة، وتفسيرات بعض الأديان التي تؤمن بالإله.. ولكن مهلاً! بغضّ النّظر عن الأسلوب الذي حاول من خلاله تهमيش فكرة الإله وتعويم الأسلوب التجريبيّ في الإجابة.. لو سلّمنا مع هوكينج بأنّ الإله الذي تصفه بعض الديانات أو الملل والنحل غير واقعيّ، هل يلزم من ذلك عدم وجود صانع لهذا الكون؟!
إنّه لا ملازمة عقلية بين نفي الإله الذي تنظر له بعض الديانات وبين نفي فكرة الإله، باعتبار أنّه ليس بعزیز علينا أن ننفي القراءة التي تقدّمها بعض الديانات عن الإله، مع اعتقادنا بالمبدأ الماورائيّ.

١- هوكينج، ستيفن، التّصميم العظيم، ص ١٦٥.

٢- الأحمدی، قاسم: وجود العالم بعد العدم عند الإماميّة، ص ٢٥-٢٦.

وهذا ألبرت آينشتاين (Albert Einstein)^(١) كما ينقل عنه هوكينج في كتابه "تاريخ موجز للزمن" كان يرفض الصورة اليهودية للإله: "ورغم أنه [أي أينشتاين] ينحدر من أصول يهودية، إلا أنه كان يرفض الفكرة التوراتية عن الله"^(٢)، ومع ذلك فإنه من المسلم بين العلماء أنه كان يعتقد بوجود الإله؛ قال: "أريد أن أعرف كيف خلق الله العالم؟"^(٣).

ج. هل يتوجد شيء من المألشيء تلقائياً؟

يقول هوكينج: "فإن الكون يمكنه أن يخلق نفسه من لا شيء، وسوف يفعل ذلك بالطريقة التي تم وصفها في الفصل السادس، والخلق التلقائي هو السبب في أن هناك شيئاً بدلاً من المألشيء، فلماذا يوجد الكون؟ ولماذا نوجد نحن؟ ليس من الضروري أن نستحضر إلهاً لإشعال فتيل الخلق، ولضبط استمرار الكون"^(٤).

في الواقع تمس هذه المسألة حقيقة كتاب "التصميم العظيم".

بدايةً لا بد من بيان المراد من المألشيء؛ فاللأشيء عند المبتايزيقيين يعني العدم المطلق، وأما اللأشيء باصطلاح الطبيين - الذي نرجح أن يكون مراد الكاتب - فهو بمعنى الفراغ الكمي^(٥)؛ قال: "قد تعتقد لوهلة أنه لو أنزلنا كل الذرات والجزيئات من مكان ما؛ فإننا سنخلق فراغاً كاملاً في ذلك المكان؛ بحيث إنه يصلح أن نسمي ذلك المكان بـ "لأشيء".

١- ألبرت أينشتاين: عالم كبير في الفيزياء النظرية، وله اكتشافات عديدة.

٢- هوكينج، ستيفن، تاريخ موجز للزمن، ص ١٥٢.

٣- ديفيز، بول، الله و الفيزياء الحديثة، ص ٣٧.

٤- هوكينج، ستيفن، التصميم العظيم، ص ٢١٦.

٥- "يمكن أن يكون تغيير الفراغ الكمي مضللاً لمن لم يألف المصطلحات الفيزيائية، وذلك لأن كلمة "فراغ" توحي بالعدم. ولكن الفراغ الكمي مصطلح يستخدمه الفيزيائيون للإشارة إلى أقل حالة من حالات الطاقة أو أدناها في حق كمي معين. وهذه الحالة طبعاً لا تكون عدماً. (لينكس، جون، العلم ووجود الله، ص ٣٧٠، الهامش رقم ٣٣).

وقد تسرّع بعض الباحثين عندما حملوا "اللاشيء" على المعنى الفلسفي، فحسب^(١). وعلى أي حال، إن أراد من اللاشيء المعنى الفلسفي، فقلوله واضح البطلان، بداهة امتناع صدور الوجود من العدم.

وإن أراد به "الفراغ الكمّي" وهو كذلك، عندها لا بد أن نسأل: هل الفراغ الكمّي كافٍ في انتفاء الحاجة إلى خالق ما ورائي؟ كيف يمكن لشيء طاقته صفر أن يفيض هذا الوجود كله؟!

نطوي كشحاً عن التفاصيل العلميّة التي ذكرها الكاتب في حقيقة الفراغ الكمّي ونأخذها كأصل موضوع لتبني عليها؛ إن أقصى ما فعله هو إثبات سبق شيء على العالم وهو الفراغ الكمّي، وعمل على تفسير آليّة نشوء الكون، وهذا السبق والآليّة لا تنفي وجود خالق ما ورائي، غاية الأمر أنّه بيّن علّة قريبة أخرى وقدم تفسيراً. ومن باب المثال لو فسّر لك الكيميائيّ كيفيّة خروج هذه الورقة التي بين يديك من المصنع، وكيف اختلطت المواد الكيميائية مع الخشب، وأثبت لك أنّ هناك شيئاً ما قد سبقها، هل يغنيك ذلك عن سؤال من أحضر هذه الورقة؟ ومن خلط مكوناتها ودفعها إليك؟

حتماً سيكون الجواب: «لا».. ولو بقي يشرح لك الآليات، ويذكر لك القوانين من الآن إلى يوم الدين لن ينتهي سؤال "من؟" و"لماذا؟" وكل ما ذكره الكاتب هو في دائرة "كيف؟".

الفيزيائيّ الشهير بول ديفيز (Paul Davies)^٢ يقول لنا: "أيمكن خلق شيء من اللاشيء؟ لقد رأينا إمكانيّة خلق جسيمات من الفضاء الخالي، لكن السبب يعود - في

١ - المصري، أيمن، نهاية حلم وهم الإله، ص ٧٠.

٢ - بول ديفيز: عالم بريطانيّ، وأستاذ الفيزياء بجامعة أريزونا، وعمل بجامعة كامبريدج متخصص في علوم الكون وفيزياء الكم، حائز على جائزة تمبرتون عام ١٩٩٥ (راجع: شريف، عمرو، رحلة عقل، ص ٩٠ الهامش

هذه الحالة = إلى اعوجاج الفضاء^(١). ويبقى أمامنا تفسير السؤال: من أين جاء الفضاء (إن لم يكن موجوداً دائماً)؟^(٢).

ويقول أيضاً: "فبصرف النظر عن أن هذه التفسيرات تنطوي على قدر كبير من التخمين، فالقول بنشأة الكون من تموج في فراغ كمي يرجع بالمسألة الأصل خطوة للوراء، ويجعلنا نتساءل عن مصدر الفراغ الكمي"^(٣).

إذن، إن مقولة "فإن الكون يمكنه أن يخلق نفسه من لا شيء"، إن حملناها على المعنى الفلسفي فهي ممتنعة، وإن حملناها على المعنى الذي أراده هوكينج فإنها لا تثبت عدم الحاجة إلى الخالق الماورائي، بل ينتقل السؤال ذاته إلى مربع آخر كما عرفت.

وقبل أن نتقل إلى المناقشة العلمية تحسن الإشارة إلى أن هوكينج ليس أول من تحدث بهذا حول تفسير نشوء الكون، فإن بيتر آتكينز (Peter Atkins)^(٤) يعتقد بشيء مشابه وهو صلاحية الزمكان لإيجاد مادته من خلال التجميع الذاتي، وهذا القول دفع كيث ورد (Keith Ward)^(٥) للرد عليه بأنه من المحال تأثير السبب في الرتبة اللاحقة ما لم يكن موجوداً في الرتبة السابقة!^(٦) وعندها يبقى السؤال السيد: من أوجده؟ ولماذا؟

د. نفي الإله يخدش في علمية النموذج

أشرنا في آخر فقرة "الخلط بين المنهج العقلي والمنهج التجريبي" إلى أن نتائج التجربة مبنية على الأخذ بالقوانين العقلية الثابتة، وإن هذه القوانين نفسها تنتج فكرة ضرورة وجود الإله، فكيف يمكن للتجربة أن تخرج بتنبؤ يتعارض مع أحد القوانين

١ - [...] حقل الجاذبية اعوجاج فضائي" (ديفيز، بول، الله والفيزياء الحديثة، ص ٤٦).

٢ - ديفيز، بول، الله والفيزياء الحديثة، ص ٤٨-٤٩.

٣ - لينكس، جون، العلم ووجود الله، ص ١١٩.

٤ - بيتر آتكينز: بروفيسور الكيمياء في جامعة أكسفورد.

٥ - كيث ورد: فيلسوف، وعمل كأستاذ في جامعتي كامبريدج و ويلز.

٦ - لينكس، جون، العلم ووجود الله، ص ١١١ (بتصرف).

التي تستند إليها؟ كقانون العلّية مثلاً؟! إنّ هذا ليخدش في علميّة النموذج أو الافتراض الذي يقدمه العالم الطّبيعيّ.

النّقد العلميّ (مناقشة في بعض المقدمات الفيزيائيّة)

أ. الزّمكان لا يحلّ المعضلة

حاول هوكينج في الفصل السادس أن ينقل فرضيّة الزّمكان التي تجعل الزّمان بعداً رابعاً من أبعاد المكان، وأنّه بدأ مع الانفجار العظيم، ويدّعي أنّ السّؤال سيصبح لغواً عن سبب البداية الأولى.

إنّ هذا التّصريح لا يخلو من تدليس أو نقص في دائرة الاطّلاع على أحسن التقادير، باعتبار أنّه بناء على كلّ ما تقدّم من شروع الزّمان مع الكون، قد نستنتج أنّ السّؤال العيبيّ هو عن السّبب الفيزيائيّ للكون، لا عن السّبب مطلقاً! يقول بول ديفيز: "فإذا لم يكن هناك زمان قبل الانفجار الكبير فالسّؤال عندها لا معنى له. وبالطّريقة ذاتها فإنّ التّخمين حول ما الذي سبّب الانفجار الكبير لا معنى له أيضاً؛ لأنّ الأسباب عادةً تسبق التّأثيرات. فإذا لم يكن هناك زمان (أو مكان) قبل الانفجار الكبير لوجود وسيط مسبّب فيمكننا أن نعزو عدم وجود سبب فيزيائيّ للانفجار الكبير"^(١). عندها يتعيّن على عالم الفيزياء السّكوت حيال السّبب غير الفيزيائيّ. ويُعطى المنبر إلى المتخصّص في الإجابة على الأسئلة غير الفيزيائيّة المتعلّقة بأمور لا تخضع للتّجربة. قال هوكينج في كتاب آخر له: "إذا كنّا كما هو الحال نعلم فقط ما حدث منذ الانفجار الكبير - فإنّنا لا نستطيع تحديد ما حدث قبل ذلك، [...] الأسئلة التي تدور حول من الذي هيأ الظروف لهذا الانفجار الكبير ليست بالأسئلة التي يتناولها العلم"^(٢).

١- ديفيز، بول، الجائزة الكويّية الكبرى، ص ١٠٠.

٢- تاريخ أكثر إيجازاً للزّمن، ستيفن هوكينج وليونارد ملودينو، ص ٧٨.

وفي مورد آخر من الكتاب نفسه: "ويعني ذلك أن كل نظرياتنا تتحطم عند لحظة الانفجار الكبير؛ [...] وهكذا وحتى لو كانت هناك أحداث قد وقعت قبل الانفجار الكبير؛ فلن نستطيع استخدامها لتحديد ما يمكن ما يمكن أن يحدث بعد الانفجار؛ لأنّ التنبؤ ذاته سيتحطم منذ لحظة الانفجار الكبير"^(١).

إذن، سواء ثبتت فرضية الزمكان أم لم تثبت، ذلك لا ينفي الإله، وقد علمنا أنّ الفيزياء مغلوطة اليد عن تفسير ما قبل الانفجار العظيم.

ب. القانون سيّد غير فاعل

يقول هو كينج في كتابه "تاريخ موجز للزمن": "وطالما اعتقدنا أنّ للخلق بداية فإنّ دور الخالق يبدو واضحاً هنا، أمّا إذا كان الكون بالفعل مغلقاً على نفسه [أي مكتفياً بنفسه بشكل كامل]، وليس له حدود أو حواف، وليس له بداية أو نهاية، فإنّ الإجابة ليست واضحة: ما هو دور الخالق؟!"^(٢).

كان يعتقد بأنّ فكرة البداية الزمانيّة للكون نفيّاً أو إثباتاً لها ارتباط وثيق في تفسير ظاهرة وجود الخالق على حدّ تعبيره كما ورد في الترجمة، فإنّه وبحسب تصريحه في كتاب "تاريخ موجز للزمن" إذا كان للكون بداية زمانيّة فدور الخالق واضح، وإلّا فدوره غير واضح. وقد نقلنا قوله فيما تقدّم تحت عنوان "الصبغة الميتافيزيقية" بأنّ الكثير ينفرون من فكرة البداية الزمانيّة للكون؛ لأنّها تدلّ على التداخل الإلهي.

في كتابه "التصميم العظيم" يبيّن وجهة نظره حيال قضية بداية الكون من خلال فرضية الزمكان، ويقترح استنتاجاً يقضي من خلاله فكرة الإله ويستبدلها بـ "اللاشيء" و"قانون الجاذبية" ويدّعي صلاحيته لتفسير نشوء الكون من اللاشيء؛ قال: "لأنّ هناك

١ - المصدر السابق، ص ٧٦.

٢ - المصدر السابق، ص ١١١.

قانوناً مثل الجاذبيّة، فإنّ الكون قادر وسيخلق نفسه من لا شيء^(١) متمسكاً بما سمّاه سيادة القانون وحاكميته.

ولنا الآن أن نسأل السيّد هو كينج:

- ما هو الدليل العلمي الذي قدّمته على وجود الجاذبيّة قبل الكون؟

= لو سلّمنا بوجود هذا القانون قبل الكون هل هذا يحلّ معضلة "فرضيّة نفّي وجود الإله"؟

- ما هو تفسير العلماء لسيادة القانون، أيّني ذلك تأثيره وفاعليّته؟

على أيّ حال لو سلّمنا بوجود قانون الجاذبيّة قبل الكون فإنّ ذلك لا يحلّ المعضلة، باعتبار أنّ القانون لا يؤثّر، بل إنّهُ يفسّر الظّاهرة ويوضّحها في ظروف معيّنة، دون أن يفعل، وكذلك لو سلّمنا وقلنا إنّ القانون يؤثّر، يبقى السؤال: من الذي قنّ هذه القوانين وأوجدها؟

كيف جاءت الجاذبيّة؟ ومن الذي خلقها؟

إنّ القوانين لا تخلق شيئاً؛ يقول الرّياضيّاتيّ جون لينكس: "فقوانين الفيزياء تشرح كيف يشتغل محرّك الجيت"^(٢)، لكنّها لا تشرح كيف جاء إلى الوجود في البداية، إذ إنّهُ من الواضح جدّاً أنّ قوانين الفيزياء ليس بمقدورها خلق محرّك الجيت لوحدها، إذ إنّ تلك المهمّة تحتاج لذكاء، وخيال والإبداع العلميّ لفرانك ويتل^{(٣)،(٤)}. ويقول وليام بيلي (Paley William)^(٥): "إنّهُ لتحريف للغة أن تحدّد أيّ قانون على أنّه السبب الكافي الفعّال لأيّ شيء، فالقانون يفترض مسبقاً وجود عامل؛ فالقانون مجرد الآليّة التي يسير عليها العامل. والقانون يتضمّن قوّة؛ لأنّهُ النّظام الذي تعمل تلك

١- التّصميم العظيم، ستيفن هو كينج و ليونارد ملودينو، ص ٣٥٢.

٢- محرّك نفّاث للطّائرات.

٣- فرانك ويتل: عالم متخصصّ بالميكانيك.

٤- حسن، أحمد، أقوى براهين جون لينكس في تفنيد مغالطات منكري الدّين، ص ١٠٨.

٥- وليام بيلي: فيلسوف.

القوة وفقاً له. وبدون هذا العامل، وبدون هذه القوة، المستقلّين كلاهما عن القانون، لا يفعل القانون شيئاً، فهو لا شيء^(١). ومن باب المثال إن القانون القائل "كلّما بلغت درجة حرارة الماء ١٠٠ درجة يبدأ بالتبخّر" لا يجعل الماء يتبخّر ما لم يكن لدينا في الرتبة السابقة ماءً وحرارةً، وموجدٌ لهما، وواضع للماء على النار. وكذلك قانون $2+2=4$ ، فإنّه لا يضاعف المال، ما لم يتقدّم زيد باستيداع مبلغ في البنك.

والمثير أنّ ستيفن هوكنج نفسه في كتاب "تاريخ موجز للزمن" كان يؤيد ما عليه جون لينكس ووليام بيلي؛ قال: "وحتى إذا كانت هناك نظرية موحّدة واحدة محتملة فستكون مجموعة من القواعد والمعادلات. فما الذي يبعث النار في المعادلات، ويصيغ عالماً تصفه؟"^(٢). والأكثر إثارة ما نقله الدكتور عمرو شريف في كتابه "رحلة عقل" من أنّ هوكنج في جلسة حوارية أجاب مضطرباً بأنّ "توصّلنا لمعادلات تشرح كيف بدأ العالم، لا يعني أنّ الإله غير موجود، ولكن يعني أنّه لم يخلق الكون عشوائياً، ولكنّه خلقه تبعاً لقوانين"^(٣)! لماذا هذا التهاوت في أقواله؟ لعلّه ضاق ذرعاً بالحجج المقامة على وجود الإله.

إذن، إنّ وجود الجاذبية قبل الكون وسيادة القانون بمعنى تأثيره وفاعليّته المطلقة الموجبة للاستغناء عن الإله دعويان تفتقران إلى دليل.

يقول الفيزيائي بول ديفيز: "[...] مع أنّ العمليّة التي وصفت أعلاه لم تقدّم خلقاً من اللاشيء، لكن مجرد تحويل طاقة موجودة من قبل إلى شكل ماديّ، وما زال علينا توضيح من أين جاءت هذه الطّاقة في المقام الأول، وهذا يتطلّب بالتأكيد تفسيراً خارقاً؟"^(٤). يقول كيث ورد: "إنّ وجود قوانين فيزيائية... يعني ضمناً وجود إله يصيغ هذه القوانين ويضمن توافق العالم الماديّ معها"^(٥).

١- William Paley, Natural Theology, p. v.

٢- تاريخ أكثر إيجازاً للزمن، ستيفن هوكنج و ليونارد ملودينو، ص ١٥٣.

٣- شريف، عمرو: رحلة عقل، ص ٨٢.

٤- ديفيز، بول، الله والفيزياء الحديثة، ص ٤٥.

٥- لينكس، جون، العلم ووجود الله، ص ١٠٩.

ثم إنَّ هوكينج وقع فريسة خلط خطير في المقام، حيث إنه في قوله: "إنَّ نظريّة كلِّ شيء [١٠٠] تتنبأ بأنَّ العديد من الأكوان العظيمة تكوَّنت من لا شيء، [١٠٠] إذ إنَّ خلقهم لم يحتاج إلى تدخّل قوّة خارقة أو إله" يكشف عن أنّه لم يفرّق بين "العامل" و"القانون"، فإنَّ التّخيير بين الإله والقوانين الفيزيائية خاطئ بامتياز، ولا يخلو من الخلط أو المغالطة، فالإله تفسير للكون وكذلك القوانين الفيزيائية إلّا أنّهما تفسيران من نوعين متغايرين، ولا تعارض بينهما.

وهكذا، نكون أمام رأيين في المسألة: الأول يجعل القانون فاعلاً، والآخر لا يرى للقانون دوراً إلا التفسير، ولو سلّمنا بأنَّ للقانون تأثيراً، يبقى السّؤال من الذي جعله؟! هل أجاب العلم على الأسئلة الكونية الكبرى؟

أقحم هوكينج نفسه في ميدان الإجابة على الأسئلة الكونية الكبرى معتقداً أنَّ العلم التّجريبيّ الحديث وخصوصاً الفيزياء الحديثة مع هذا التّقدّم المهور لديها ما تقوله في هذه القضايا، يقول السيّد هوكينج: "وأضحى العلماء هم من يحملون مصاييح الاكتشاف في رحلة التّقيب وراء المعرفة. يهدف هذا الكتاب إلى تقديم الإجابات على الأسئلة الوجوديّة التي تفرّضها الاكتشافات العصريّة والنّظريات العلميّة الحديثة"^(١).

إلا أنَّ للفيزيائيّ الأشهر بول ديفيز رأياً مغايراً: "ورغم النّجاح المذهل للعلم الحديث، فمن الغباء أن نفترض أنَّ الأسئلة الأساسيّة المتعلّقة بوجود الإله، أو الغرض من الكون، وكذلك دور البشر في هذا المشروع الخارق، قد تمّت الإجابة عليها، بفضل هذه التّطوّرات العلميّة. إنَّ لدى العلماء أنفسهم - في الواقع - نطاق واسع من المعتقدات الدينيّة"^(٢).

وللفيزيائيّ الحائز على جائزة نوبل في الفيزياء ماكس بلانك^(٣) (Max Planck) رأي مغاير لما ذهب إليه الكاتب: "العلم الطّبيعيّ لا يستطيع حلّ اللّغز المطلق للطّبيعة،

١- هوكينج، ستيفن، التّصميم العظيم، ص ١٣.

٢- ديفيز، بول، الله والفيزياء الحديثة، ص ٢٥٥.

٣- ماكس بلانك: عالم عبقرّيّ فاز بجائزة نوبل للفيزياء عام ١٩١٨، وهو أحد أشهر مؤسسي ميكانيكا الكم.

وذلك لأنّه في التحليل الأخير نكون نحن أنفسنا جزء من الطبيعة، وبالتالي جزء من اللغز الذي نحاول حلّه^(١).

وعلى أيّ حال فإنّ أصل ما يدّعيه هوكينج وينطلق منه في بحثه هو محلّ نظر وجدل كبير بين أرباب أهل الاختصاص.

وبناء عليه، نرجع مع الكاتب إلى أولى صفحات كتابه لنسأله: هل العلم لديه إجابات تامّة على هذه الأسئلة؟! ثمّ إنّه هل كان في استنتاجاته وفرضياته التي يطرحها ويرشّحها فيزيائياً أم متفلسفاً مادّياً؟

هل يريد السيّد هوكينج أن يجعل البشر يبنون مواقفهم حول محاور الكون على ركّام من التّخمينات الفيزيائية، وبالتالي تعيش الأمم في واقع من الهلع الفكريّ الذي يستبّعُه تخبطاً في الجانب العمليّ؟!

الأكوان المتعدّدة نظريّة أم تخمين؟

يُعدّ نموذج الأكوان المتعدّدة الذي تمسّك به هوكينج في كتابه لتفسير النّظم الدّقيق للكون، المملجاً الأخير ولعله الملاذ الوحيد المتبقيّ للملحد، وهذا ما يخبرنا به نيل مانسون (Neil Manson)^(٢): "هي الملاذ الأخير بالنّسبة للملحد اليائس"^(٣). فهل هذه نظريّة علميّة متّسقة وجميّلة^(٤) أم أنّها مجرد تخمين وافترض؟

١- حسن، أحمد، أقوى براهين جون لينكس في تفنيد مغالطات منكري الدّين، ص ٦٤.

٢- نيل مانسون: بروفيسور في الفلسفة.

٣- نقلاً عن الجائزة الكونية الكبرى، بول ديفيز، ص ٣٥٤.

٤- يقرّ علماء الرّؤية العلميّة الجديدة بأنّ الجمال في النّموذج أو النّظريّة المقترحة يعتبر من مقوّمات نجاحه، و يعنون بالجمال التناسق والبساطة وعدم التّعقيد. (انظر: العلم في منظوره الجديد، أغروس وستانسو، ص ٤٤).

تفرض الأكوان المتعددة^(١) كمّاً هائلاً من الأكوان التي يتعذر على الإنسان ملاحظة أكثرها، كما أنّها تفتقر للاختبار، ومع ذلك لا تعطي تفسيراً تاماً للوجود، وإليك أيّها القارئ ما يقوله عالم الفيزياء بول ديفيز: "إنّ عيب نظرية الكون المتعدد هو أنّها تقحم أيضاً من الكيانات التي لا يمكن ملاحظة معظمها مطلقاً ولو من حيث المبدأ. ويصدم هذا الانتشار الكاسح العديد من الناس على أنّه طريقة مبالغ فيها لتفسير صداقة الكون للحياة. ومن الصعب جداً أيضاً اختبار هذه النظرية [...] ولا يقدم الكون المتعدد وصفاً كاملاً للوجود لأنّه لا يزال يتطلّب الكثير من الفيزياء غير المفسّرة والـ"الملائمة" جداً لإنجاحه"^(٢).

وفي تصريح مثير لجون بولكينج هورن (أحد أبرز منظري الكم) يرفض فيه فرضية الأكوان المتعددة: "علينا أن نعترف بحقيقة هذه التّخمينات. فهي في الحقيقة ليست فيزياء، بل ميثافيزيقا بالمعنى الأضيق. فما من سبب علميٍّ محض يدعونا للاعتقاد بمجموعة من الأكوان. فهذه العوالم بطبيعة تكوينها غير معروفة لنا. أمّا التفسير الذي يحظى بنفس القدر من الاحترام الفكريّ ويراه عقليّ مفهوماً ومنظماً هو أنّ هذا العالم الواحد على هذه الشّكلة؛ لأنّه مخلوق بإرادة خالق قصد له أن يكون هكذا"^(٣).

إنّ هذه الفرضية علاوة على كونها مجرد تخمين غير مجرّب بل لا يمكن للإنسان اختبارها.. هو افتراض غير جميل أبداً وكما يقول ريتشارد سوينبرن (Richard Swinburne)^(٤): "إنّ افتراض تريليونات من الأكوان الأخرى بدلاً من إله واحد لتفسير النظام الذي يميّز كوننا يبدو قوّة اللامنتقيّة"^(٥).

١- الأكوان المتعددة أو الكون المتعدد: فرضية تطرح في الفيزياء، مفادها أنّ الانفجار الكبير الذي ولد كوننا هو واحد من عدد ربما لا نهائيّ من الانفجارات التي ولدت أكواناً متعدّدة (انظر: ديفيز، بول، الجائزة الكونية الكبرى، ص ٣٥٢).

٢- ديفيز، بول، الجائزة الكونية الكبرى، ص ٣٥٣.

٣- لينكس، جون، العلم ووجود الله، ص ١٢٩ - ١٣٠.

٤- ريتشارد سوينبرن: فيلسوف وأستاذ في جامعة أكسفورد.

٥- لينكس، جون، العلم ووجود الله، ص ١٣٠.

حتى أن صاحب كتاب "وهم الإله" الأحيائي الملحد ريتشارد دو كينز يصف هذه الفرضية بأنها غاية في التبذير: "العالم المتعدد الأكوان يبدو نظرية في غاية التبذير من ناحية عدد الأكوان"^(١).

إذن، إن الأكوان التي حاول هو كينج أن يبينها كنظرية لتفسير الضبط الدقيق، هي محض فرضية وتخمين لم يقم عليه الدليل ولا نعلم - على الأقل - إن كان له قابلية ذلك.

تصميم عظيم أم مصمم أعظم؟

تقدمت الإشارة إلى أن القضايا الميتافيزيقية خارجة عن دائرة ونطاق العلوم الطبيعية، ومع هذا فنحن الآن نطالع آراء الطبيعيين الذين يعتقدون بأن للعلم صلاحية ذلك، فما هي وجهة العلوم الحديثة؟ أتتجه نحو تعزيز فكرة الإله والمصمم الأعظم أم نحوتأييد الإلحاد وفرضية التصميم العظيم؟

ينقسم العلماء الطبيعيين في الإجابة على هذا السؤال انقساماً حاداً، فمنهم من يؤيد الأول ومنهم من يؤيد الثاني (كالمؤلف) ومنهم المتوقف.

يدعي روبرت أغروس (Robert Augros)^(٢) وجورج ستانسيو (George Stanciu)^(٣) في كتابهما "العلم في منظوره الجديد" أن العلم بنظرته الحديثة يعضد الموقف الأول: "وهكذا ففي النظرية [العلمية] الجديدة نجد أن أصل الكون وبنيته وجماله تفضي جميعاً إلى النتيجة نفسها، وهي أن الله موجود"^(٤).

١ - دو كينز، ريتشارد، وهم الإله، ص ١٤٩.

٢ - أغروس: حائز على درجة دكتوراة في الفلسفة من جامعة لافال بكندا. ويعمل حالياً أستاذاً للفلسفة في جامعة سانت أنسلم (العلم في منظوره الجديد، ص ١٥٩)

٣ - ستانسيو: حائز على درجة الدكتوراة في الفيزياء النظرية من جامعة ميشيغن بالولايات المتحدة الأمريكي، ويرأس في الوقت الراهن قسمي العلوم والرياضيات في ماجدلين كوليغ (العلم في منظوره الجديد، ص ١٥٩).

٤ - العلم في منظوره الجديد، روبرت أغروس وجورج ستانسيو، ص ٧٢.

وكذلك بول ديفيز: "لقد بدأتُ بطرح الادّعاء بأنّ العلم يوفّر سبيلاً موكّداً للسّعي إلى الإله، أكثر من الدّين"^(١).

يقول آلن سانديج (Allan Sandage)^(٢): "أرى أنّه من المستبعد أن يكون نظام كهذا نشأ من الفوضى. لا بدّ من وجود مبدأ منظم. والله بالنّسبة لي سرّ عميق غامض، ولكنّه معجزة الوجود، وهو إجابة لسؤال: لماذا يوجد شيء بدلاً من العدم؟"^(٣).

نعود قبل أن نختم إلى الاستنتاج الذي استفدناه من بعض عبارات هوكينج وهو: "كلّما تطوّر العلم واستطاع أن يفسّر الطّواهر كلّما قلّت أو انتفت الحاجة إلى الإله"^(٤). في الواقع إنّ هذه الدّعوى لا يوافق عليها بعض الطّبيعيين، بل أكثر العلماء بحسب جون لينكس^(٥)، وهي ناتجة عن عدم الإحاطة الكافية في "نظرية المعرفة" التي صدرنا الحديث عنها، لذا لا نعيد ونكتفي بالإشارة. إذا كان العلم التجريبيّ معيّناً بالطّواهر الحسيّة القابلة للملاحظة والملاحظة والتّجربة، وكفياً بتكليف هذه الطّواهر وتفسيرها وبيان عللها القريبة، فكيف يمكنه أن يقضي ويبتّ في الطّواهر الميتافيزيقيّة والعلل البعيدة والمبدأ والغاية؟! مع كونها مسائل ليس فقط لا يطالها الحسّ والتّجربة، بل لا قابليّة لهما لاستيعابها.

١ - ديفيز، بول، الله والفيزياء الحديثة، ص ٢٦٨.

٢ - آلن سانديج: يعدّ من مؤسسي علم الفلك الحديث، ومكتشف أشباه النّجوم، وحائز على جائزة كرافورد التي تعادل جائزة نوبل في علم الفلك.

٣ - لينكس، جون، العلم ووجود الله، ص ١١٤.

٤ - وهذا في الواقع يرجع إلى المفهوم الخاصّ الذي يتبنّاه هوكينج عن الإله وهو "إله الفجوات" .. وعلى أحسن التقادير فإنّ هوكينج في الواقع - بناء على هذا - لا يريد نفي الإله بل يريد نفي إله الفجوات أي تصوّره عن الإله.

٥ - حسن، أحمد، أقوى براهين جون لينكس في تفنيد مغالطات منكري الدّين، ص ٧٩.

لقد وصل الحال بدعاة الإلحاد المعاصر إلى هذا المستوى في نظرتهم عن الكون، ناهيك عن آرائهم حول الإنسان الذي يشكّل عنصراً من عناصر الرؤية الكونية، حيث يصفه ستيفن بـ "الحثالة الكيميائية"^(١).

خاتمة

بعد هذا الشوط المختصر، وقبل أن نترك القارئ الكريم، أرى من الجيد لَمَّ البحث والأخذ بأطرافه، لتتجلى النتائج والخلاصات التي خرجنا بها.

بدأ البحث من تصنيف الكتاب المستهدف بالقراءة النقدية بأنه من الإلحاد بدافع علوم الطبيعيات (الفيزياء)، ثم طرحنا السؤال الأساس: هل استطاع هو كينج نفي الإله من خلال آله العلمية؟

وبعد جولة خاطفة على الكتاب بفصوله الثمانية وتبسيط الضوء على المفصل الأساسية التي تشكّل موضوعاً للنقد، وصلنا إلى القراءة النقدية، حيث تناولنا النقاش من زوايا ثلاث:

١. من زاوية علم المعرفة

٢. من زاوية علم الفلسفة

٣. من زاوية علم الفيزياء

أما من زاوية علم المعرفة فقد بيّنا الخلط الفادح بين نطاق العقل ونطاق التجربة، والذي يقضي إلى نتائج خطيرة كما رأينا، بعد ذلك وضحنا كيف شدّ الكاتب بطرف البحث إلى ساحة الفيزياء بزعم موت الفلسفة، ثم عرضنا لفكرة مفادها أن الطبيعيّ - سواء شاء أم أبى - يصطبغ بصبغة فلسفية ميتافيزيقية، تنعكس على ميدان استنتاجاته وفرضياته المقترحة.

١ - راجع: حسن، أحمد، أقوى براهين د. جون لينكس في تنفيذ مغالطات منكري الدين، ص ٨٠ (اقتبس من Reality on the Rocks وقام بترجمته إلى العربية).

ومن زاوية علم الفلسفة، ناقشنا في بعض الملازمات والاستنتاجات من قبيل أنّ نفي البداية الزماتية للكون لا يلازمها نفي الخالق، كما أنّ نفي الإله الذي تقترحه بعض الديانات لا يلازمه أيضاً نفي المبدأ الموجد والمصمّم الأعظم.

ثمّ ناقشنا الكاتب بمسألة وجود الكون من اللاشيء بمعناه الفلسفي والطبيعي، وخرجنا بنتيجة عدم إثبات نفي القوة الماورائية الموجدة، وأشرنا إلى أنّ نفيها يחדش في علمية النموذج المطروح.

وأخيراً من زاوية علم الفيزياء، حيث بيّنا أنّ الزمكان لا يحلّ المعضلة، ونقلنا عبارات أعلام الفيزياء الحديثة وغيرهم من العلماء التي تفيد بأنّ القانون سيّد غير فاعل، وبالتالي قول هو كينج بأنّ قوّة الجاذبية هي التي تفسّر وجود الكون من اللاشيء لا ينهض بمدّاه، كما أنّ استنتاجه نفي الخالق هو دعوى، قام الدليل العقلي على خلافها، ورفضها العلماء الطبيعيّون.

ثمّ عرّجنا على قول هو كينج الذي افتتح به كتابه بأنّ العلم يجيب على الأسئلة الكونية الكبرى ونقلنا آراء علماء فيزياء آخرون يعتقدون بأنّ القول بذلك ضرب من ضروب الغباء!

بعد ذلك وضحنا أنّ الأكوان المتعدّدة التي يعتبرها الكاتب مفسّراً للتصميم الدقيق ما هي إلا فرضية وتخمين لا يوافق عليه العديد من العلماء، حتّى الفيزيائيّين. وفي النهاية، أشرنا إلى أنّ العلماء الطبيعيّين منقسمون إزاء موقفهم من الإله، ولعله مرجع ذلك الرؤية الفلسفية لكل واحد منهم، وعلى أيّ حال فإنّ بعض كبار الفيزيائيّين اللوازيين قد ذكروا أنّ العلم في منظوره الجديد يتّجه نحو الإله، بخلاف أولئك الذين يسعون في إيجاد مانعة جمع بينه وبين العلم.

أهمّ النتائج:

لقد كان للعالم الفيزيائيّ هو كينج فكرتان أساسيتان:
الأولى: تفسير حدوث الكون، وهو في الواقع أمام فرضيتين إحداهما وجود قوّة
ماورائية دفعت هذا الكون من العدم إلى حيّز الوجود، وثانيتها الوجود التلقائيّ من
اللاشيء بفاعل الجاذبيّة.

الثانية: تفسير التصميم الدقيق، وهو كذلك يواجه في تفسيره فرضيتين إحداهما
وجود القوّة الماورائية المبدعة.. وثانيتها تعدّد الأكوان.

وقد ثبت للقارئ الكريم من خلال كلّ هذا العرض عدم إمكان الاعتماد على
الفرضيّة الثّانية من كلّ فكرة في مقام اتّخاذ موقف فكريّ أو رأي كونيّ.
وذلك لأنّها مجرد فرضيّة، وكما ذكر في علم المنطق ليست من الوجدانيّات أو
الأوليّات أو التجريبيّات أو الحسيّات، بل هي مجرد تخمينات.

رغم العناوين العلميّة والبراقة التي يخلعها بعض العلماء الطّبيعيّين على مؤلّفاتهم،
إلّا أنّهم دائماً ما يواجهون الفشل في إثبات مدّعاهم "الاستغناء عن الإله"، لأنّه وببساطة
الآلة التي يتوسّلونها لا تقدّم تفسيراً صحيحاً لأسئلة الكون الكبري.

إلى هنا - بتوفيق من الله تعالى - نكون قد أمطنا اللّثام عن جانب مهمّ من مغالطات
ومصادرات "التّصميم العظيم"، والحمد لله ربّ العالمين..

* * *



رحيق الآيات:

﴿... كُونُوا رَبَّانِيِّينَ...﴾

مفهوم التربية القرآنية وموقعية المربي في مسيرة الهداية

□ الأُميرة نعتت حروفش سرانب (*)

مقدمة:

تعتبر صناعة الإنسان من أهم الصناعات التي يواجهها العالم - أياً كانت فلسفته الاعتقادية - وأصعبها ، ذاك أن المدارس الفلسفية على تنوعها وتعددتها باتت توقن بأن الإنسان هو سر التقدم والتطوير، لذا نجدها تسعى في مختلف الميادين سواء أ منها الإدارية والتقنية أو الاجتماعية والشخصية ... لدراسة هذا الإنسان والتخطيط لكيفية العمل على إعداد وصياغة شخصيته بما يتناسب مع أيديولوجيتها.

هذا وتعتبر التربية العملية الأساس التي تستهدف بناء الانسان بناءً متوازناً وشاملاً لكل الأبعاد الروحية والفكرية والسلوكية والجسدية، وقد تكفل بأدائها الأنبياء، نبي تلو نبي ورسول تلو رسول، فقد جاءت الرسائل والشرائع الالهية وتتابع الرسل والأنبياء ﷺ من أجل أداء هذه المهمة.

(*) باحثة في مجال الدراسات التربوية.

ماذا بعد الأنبياء والرسول؟

هنا يأتي دور المربين الذين أوكلت إليهم مهمة صنع الإنسان ومتابعة مسيرة الأنبياء، وتركز مهمتهم على التربية والتعليم من أجل تحقيق الغايات المرجوة في إطار بناء شخصية الانسان.

بيد أن هذه التربية التي يؤديها المربون تحتاج إلى رؤية واضحة ودقيقة متصلة بالوحي السماوي، توضح ماهية المهمة التربوية الموكلة للمربين وموقعية المربي في مسيرة الهداية الربانية المستندة إلى الوحي السماوي، وتبين صفات الانسان المستهدف من العملية التربوية والغاية التي تتوخاها بالإضافة إلى الارشادات والمبادئ والسياسات العامة والأساليب التي يجب مراعاتها خلال هذه العملية.

الأسئلة الأساسية:

ما هو مفهوم التربية المستندة إلى الوحي السماوي (التربية القرآنية)؟ وما هي موقعية المربي في المسيرة التربوية المشتقة من مهمة الأنبياء التربوية؟ هذا ما سنحاول في هذه المقالة معالجته هادفين إلى:

- تحديد مفهوم التربية بالاستناد إلى النصوص القرآنية والروائية.
- تبين المهام الأساسية للمربي المسلم وعظم مسؤوليته.

١. الاطار النظري:

١.١. مفهوم التربية القرآنية:

يعتبر ميدان المفاهيم من أهم ميادين الصراع الفكري والثقافي عبر التاريخ، لأن المفاهيم ليست ألفاظاً كسائر الألفاظ، أو كلمات يمكن أن تفهم وتفسر بمرادفات أو بما يبين ويقرّب معناها وإنما هي الوحدة الأساسية التي تكوّن النسق المعرفي، وهي عملية في صميم قضية الهوية، فهي كانعكاس للجوهر الحضاري ليست سوى منظومة فكرية يفترض فيها الانسجام، وهي كمنظومة تتضمن عناصر مختلفة ووحدات مفاهيمية متعددة ومتنوعة لا يمكن رؤيتها إلا كعناصر مترتبة متراكمة تؤثر يقيناً على

موقعها في البنية المعرفية وقيمتها في السياق الفكري وحجيتها في العملية الحضارية الممتدة. "ولما كان بناء المفاهيم الإسلامية يعتمد بالدرجة الأساس على الوحي فهو إذن من صميم عملية التدبر والتذكر وهما عمليتان عقليتان لهما دورهما المميز في عملية المعرفة"^(١).

عليه فإن البحث عن المفاهيم القرآنية يحتاج إلى خطوات إجرائية خاصة تتناسب مع أسلوب القرآن في طرح المفاهيم، ونحن لسنا في هذا البحث في صدد معالجة موضوع المفاهيم القرآنية وأسلوب صياغتها، وإنما نحاول أن نبين الخطوات التي سنعتمدها في البحث عن مفهوم التربية القرآنية:

الخطوة الأولى: البحث حول المعنى الاصطلاحي، من أجل بيان هوية المفهوم (إلى أي مجال وإلى أي فترة يعود استخدامه إن تمكنا من ذلك).

الخطوة الثانية: البحث حول المعنى اللغوي للمفردات التي تعبّر عن المفهوم، لأن المعنى اللغوي للمفردة هو المدخل الأول لفهم آيات القرآن.

الخطوة الثالثة: البحث عن المفهوم في الاستخدام القرآني وذلك من أجل الإجابة عن سؤال أساس هو: هل يستخدم القرآن الكريم المفردة المستخدمة في الاصطلاح نفسها، للتعبير عن نفس المعنى (المضمون)؟ أم أن هناك مفردات خاصة استخدمها القرآن للتعبير عن هذا المفهوم؟ وما هي هذه المفردات؟

١،١،١. المعنى الاصطلاحي للتربية:

"من الجدير بالذكر أن مصطلح تربية هو مصطلح محدث، إذ يذكر معجم هاتزفيلد (Hatzfeld) ومعجم دار مستر (Dar Mester) ومعجم توماس (Thomas) أننا لا نجد له أثراً في اللغة الفرنسية قبل عام ١٥٢٧م. ولكنه بدأ يظهر في معظم المعاجم منذ عام ١٥٤٩م. وفي المعجم الفرنسي لصاحبه روبر إتيين (Robert Etienne) نجده ملحقاً بكلمة طعام. والمصطلح من الناحية الاشتقاقية منقول عن

١- الدغشي، أحمد محمد حسين، نظرية المعرفة في القرآن الكريم وتضميناتها التربوية، ص ٢٤٠، دمشق، دار

الفكر، ط ١، ٢٠٠٢م.

اللاتينية. وقد نقل عن طريق أصحاب النزعة الإنسانية في عصر النهضة الأوروبية والإصلاح الديني، فاللغة اللاتينية استخدمت هذا المصطلح للدلالة على تربية النباتات والحيوانات وللدلالة على الطعام وعلى تهذيب البشر دون تفريق بين هذه الأحوال جميعها.

وحتى عام ١٦٤٩م لم يكن يفهم من التربية سوى الدلالة على تكوين الجسد والنفس، وكانت تعتبر هي والتعليم شيئاً واحداً، فهي - حسب ذلك المفهوم - العناية التي نقدمها لتعليم الأطفال، سواء فيما يتصل بريضة النفس أو رياضة الجسد^١.

وقد اختلف الفلاسفة والمربون اختلافاً بيناً حول معنى التربية بسبب اختلاف خلفياتهم وأفكارهم وعقائدهم والأماكن والأزمان التي عاشوا فيها والزوايا التي نظروا منها إلى التربية، فمنهم من اعتبر أن التربية هي عملية حفظ ونقل التراث، ومنهم من رأى أنها عملية تكيف للفرد مع مجتمعه، ومنهم من رأى أنها عملية استغلال للذكاء الإنساني، وهناك مفهوم آخر للتربية باعتبارها خبرة تؤدي إلى مزيد من الخبرة، أو أنها عملية إعادة بناء مستمر للخبرة الإنسانية، وثمة اتجاه آخر ينظر إلى التربية على أنها عملية تنمية لشخصية الفرد بشكل شامل ومتكامل.

ويرى رونييه أوبر أن التربية هي جملة الأفعال والآثار التي يحدثها كائن إنساني بإرادته في كائن إنساني آخر، في الغالب راشد في صغير، والتي تتجه نحو غاية قوامها أن يكون لدى الكائن الصغير استعدادات متنوعة تقابل الغايات التي يعد لها حين يبلغ النضوج، وهو بهذا التعريف يجعل التركيز الأساسي ينصب على تنمية استعدادات الفرد لمواجهة الحياة، من جهة أخرى يعتبر أنها فعل إنساني مباشر ومقصود لتحقيق التأثير في إنسان آخر، هذا ما يخالفه فيه كل من جون ديوي الذي يعتبر أن التربية ليست إعداد للحياة وإنما هي الحياة نفسها، ذلك بنظر ديوي يجعل الاهتمام منصباً على مستقبل المتعلم على حساب حاجاته واهتماماته الحاضرة التي يجب أن يبدأ بها المنهج

١- رونية أوبر، التربية العامة، ترجمة عبد الله عبد الدايم، ص ٢٢، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط ٢،

التربوي، كما يخالفه أيضاً جان جاك روسو الذي يرفض أن يكون هناك أي تدخل إنساني مباشر في العملية التربوية، معتبراً أن الطبيعة هي التي يجب أن تكون المربي الأول للإنسان. أما بياجى فيقول: أن نربي معناه تكييف الطفل مع الوسط الاجتماعي للراشد، أي تحويل المكونات النفسية والبيولوجية للفرد وفق مجمل الحقائق المشتركة التي يعطيها الوعي الجمعي قيمة ما. وعليه، فإن العلاقة بالتربية يحكمها معطيان: الفرد وهو صيرورة النمو من جهة، والقيم الاجتماعية والثقافية والأخلاقية التي على المربي إيصالها لهذا الفرد، من جهة أخرى.

وبالنسبة لبياجى، يمكن أن نفهم التربية وخصوصاً الجديدة من حيث طريقها وتطبيقاتها إذا اعتنينا بالتحليل الدقيق لمبادئها، وفحص صلاحياتها السيكلوجية من خلال أربع نقاط على الأقل: مدلول الطفولة، بنية فكر الطفل، قوانين النمو، وآلية الحياة الاجتماعية للطفولة.

وقد ورد في قاموس دار العلم غرينوود للمصطلحات التربوية التعريف التالي لكلمة (éducation) "تعني التربية أو التعليم: وهي عبارة شاملة جداً تشير إلى عملية تعزيز النمو الإدراكي والجسدي والاجتماعي والعاطفي أو الأخلاقي لدى الأفراد أو المجموعات. إنها عملية ذات أهداف متنوعة، أهداف، تنطوي على نظام قيم، وتعطى بشكل رسمي وغير رسمي، كما في التعليم المدرسي. تهدف التربية الرسمية إلى خلق توازن بين حاجات الفرد وحاجات المجتمع"^(١).

والتربية صيرورة تستهدف النمو واكتمال النمو التدريجين لوظيفة أو مجموعة من الوظائف عن طريق الممارسة، وتنتج هذه الصيرورة إما عن الفعل الممارس من طرف آخر، وإما عن الفعل الذي يمارسه الشخص على ذاته. وتفيد التربية بحسب Lalande بمعنى أكثر تحليلاً: سلسلة من العمليات يدرّب من خلالها الراشدون الصغار من نفس نوعهم ويسهلون لديهم نمو بعض اتجاهات العوائد. كما نجد أن التربية عند

١ - كولينز، جون، و أوبراين نانس باتريشيا، قاموس دار العلم غرينوود للمصطلحات التربوية، ص ٢٠٥، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، لاط، لات.

Legendre هي بمثابة عملية تنمية متكاملة ودينامية، تستهدف مجموع إمكانيات الفرد البشري الوجدانية والاخلاقية والعقلية والروحية والجسدية. أما Leang فيعتبرها نشاط قصدي يهدف إلى تسهيل نمو الشخص الانساني وإدماجه في الحياة.

أما في الأدبيات التي تدلُّ على الاصطلاح الاسلامي للتربية فلا نجد لمفردة التربية استخداماً في المصادر الاسلامية والعربية القديمة، فكلمة التربية بمفهومها الاصطلاحي من الكلمات الحديثة التي ظهرت في السنوات الأخيرة مرتبطة بحركة التجديد التربوي في البلاد العربية في الربع الثاني من القرن العشرين وقد وردت تعريفات في أدبيات التربويين المسلمين نذكر منها:

١. "هي التنظيم النفسي والاجتماعي الذي يؤدي إلى اعتناق الإسلام وتطبيقه كلياً في حياة الفرد والجماعة، أو بمعنى آخر هي تنمية فكر الإنسان وتنظيم سلوكه وعواطفه على أساس الدين الإسلامي بقصد تحقيق أهداف الإسلام في حياة الفرد والجماعة في كل مجالات الحياة"^(١).

٢. وفي تعريف آخر "هي تنمية جميع جوانب الشخصية الإسلامية الفكرية والعاطفية والجسدية والاجتماعية وتنظيم سلوكها على أساس مبادئ الإسلام وتعاليمه بغرض تحقيق أهداف الإسلام في شتى مجالات الحياة"^(٢).

٣. "إعداد المسلم إعداداً كاملاً من جميع النواحي في جميع مراحل نموه للحياة الدنيا والآخرة في ضوء المبادئ والقيم وطرق التربية التي جاء بها الإسلام"^(٣).

١- عبد الرحمن النحلوي، أصول التربية الإسلامية، ص ٢٧، دار الفكر، بيروت، لبنان.

٢- الشيخ الأمين محمد عوض، أساليب التربية والتعليم في الإسلام، ص ٣٤، دبي: دار القراءة للجميع للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٩٩٠م.

٣- مقداد يالجن، موسوعة التربية الإسلامية، ج ٢، أهداف التربية الإسلامية وغاياتها، ص ٢٠، الرياض، ط ١،

في المحصلة نخلص إلى أنه لا يوجد اتفاق على معنى اصطلاحى محدد ثابت وواضح للتربية، فهناك دوماً عوامل مؤثرة على التعريف مرتبطة بالخلفية التي ينطلق منها المصطلح، ولكن هناك مجموعة من النقاط متفق عليها بين الجميع هي التالية:

- تنطلق التربية من خلفية نظرية، تمدها بالأهداف والأساليب والوسائل.
- التربية عملية تعتمد على مجموعة مؤثرات (ممكناً أن تكون أفعال مباشرة أو غير مباشرة أو تجربة حياتية معاشة...).
- للتربية دائماً هدف تسعى من أجل تحقيقه.
- المستهدف من التربية هو الإنسان.
- التربية تستهدف نمو الإنسان.
- التربية عملية مستمرة مع الإنسان.

وبالتالى لا يمكن اعتماد تعريف موحد لمفهوم التربية، لأن ذلك رهن النسق المعرفي الذي تنتسب إليه، فهل نجد في اللغة ما يمكن أن يساهم في تحديد مفهوم التربية؟

٢، ١، ١. المعنى اللغوي للتربية:

تعود مفردة التربية إلى جذر لغوي مؤلف من حرفين هما (الراء والباء)، وهي بذلك ترتبط من حيث معناها ارتباطاً وثيقاً بما تتضمنه المفردة (رب) من معاني. ولهذا المفردة العديد من المعاني:

أ. "الراء والباء يدل على أصول، فالأول إصلاح الشيء القيام عليه، والرب هو المالك والخالق والصاحب، والرب: المصلح للشيء، يقال رب فلان ضيعته: إذا قام على إصلاحها"^(١).

ب. "ربيت القوم: سستهم أي كنت فوقهم، وربيه وتربيته: بمعنى، أي رباه"^(٢).

١- زكريا، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج ٢، ص ٣٨١، مكتب الإعلام الإسلامى، قم، إيران، ١٤٠٤هـ.

٢- ابن منظور، لسان العرب، ج ١، ص ٤٠٠، نشر أدب الحوزة، قم، إيران، ١٤٠٥هـ.

ت. "الرب ينقسم على ثلاثة أقسام: يكون الرب المالك، ويكون الرب السيد المطاع، ويكون الرب المصلح، وفي الحديث: لك نعمة تربُّها أي تحفظها وتراعيها وتربِّيها، كما يربِّي الرجل ولده. وتربُّه وارثه، رباه تربيةً على تحويل التضعيف، وتربّاه على تحويل التضعيف أيضاً: أحسن القيام عليه ووليّه حتى يفارق الطفوليّة كان ابنه أو لم يكن"^(١).

ث. من الجذر اللغوي رب يشتق المصدر ربا أو ربى وإليهما تعود التربية كمصدر لهما، وهما يدلان "على أصل واحد معناه الزيادة والنماء والعلو. تقول من ذلك ربا الشيء يربو إذا زاد وربا الرابية إذا علاها"^(٢)، وأربيته كما في لسان العرب: نمّيته، "وربيت رباء ورُبياً كلاهما نشأت فيهم، وربوت في بني فلان أربو نشأت فيهم"^(٣)، وقال الجوهري: ربيته تربية وتربيته أي غدوته"^(٤).

"والأصل الواحد في هذه المادة سوق الشيء إلى جهة الكمال ورفع النقائص بالتخلية والتحلية، سواء من جهة الذاتيات أو العوارض أو الاعتقادات والمعارف أو الصفات والأخلاقيات أو الأعمال والآداب أو العلوم المتداولة في إنسان أو حيوان أو نبات، ففي كل شيء بحسبه وبحسب ما يقتضي ترفيع منزلته وتكميل شأنه، ويُعبّر عن هذه الحقيقة بعبارات متعددة بحسب اختلاف المورد واختلاف المقام وتناسب الموضوع، فالرب يشترك في المصدرية والوصفيّة كالضرب، والصعب: فيدل على المبالغة في الاتصاف وثبوت التربية، فالرب من كان من شأنه التربية وهو متصف بهذه الصفة ثابتة فيه"^(٥).

١- م.ن، مادة رب.

٢- معجم مقاييس اللغة، ص ٤١٩.

٣- لسان العرب، م.س، ص ٣٠٦، ٣٠٥.

٤- لسان العرب، ص ٣٠٧.

٥- المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ص ٢٢-٢٣ بصرف، دار الكتب العلمية، بيروت،

لبنان، ط ٣، ٢٠٠٩م.

وبهذا البيان يتضح لنا ما يلي:

أولاً: التربية من شأن من اتصف بصفة الرب، فيقال له مربّي: ربّي يُربّي تربية فهو مربّي وذاك المربّي.

ثانياً: التربية تدل من حيث معناها اللغوي على: الزيادة والنماء والإصلاح، فهي تدل على زيادة مادية (ربا، يربو)، ومعنوية (رباً يربأ بنفسه) بمعنى تكريمها عن الدنيا.

ثالثاً: التربية تدل من حيث معناها اللغوي: الرعاية والحفظ.

رابعاً: التربية من حيث المعنى تدل على منحى تصاعدي نحو كمال ما لجهة المربّي، وهي بالتالي في استمرار دائم لأنها تتجه دائماً نحو الزيادة والسمو متجهة نحو كمال مرجو.

خامساً: لا تقتصر التربية من حيث المفهوم اللغوي على الإنسان بل إنه يصح أن تشمل الحيوان والنبات أيضاً.

سادساً: التربية معنى متصل بالربوبية لارتباطه بالجذر رب، والرب هو تعالى خالق كل شيء وراعيه ومصلحه، فإنه تنسب التربية الحقيقية المطلقة.

٢. التربية القرآنية:

٢.١. التربية في الاستخدام القرآني:

إن البحث حول مفردة "تربية" في آيات القرآن الكريم لا يُفضي إلى أية نتيجة، لأنها لم تُستخدم مطلقاً في أي من آيات القرآن، أما البحث في مشتقات المصدر "ربا وربّي" فإنه يُفضي إلى عدد من الآيات القرآنية التي تتحدث جميعها عن زيادة ونماء ولكن في مجالات النبات والأموال والأمم، وقد جاءت الآيات على الشكل التالي:

أ. فيما يخص النبات: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾^(١)، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا

عَلَيْهَا أَلْمَاءٌ أَهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ أَلْدِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(١).

ب. فيما يخص المال: ﴿يَمَحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيَرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾^(٢)، ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيَرْبَوْا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبَوْا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾^(٣).

ت. فيما يخص الأمم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يُلْوِكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^(٤).

إلا أن هناك مفردات أخرى ذات صلة من حيث المعنى بمعنى مفردة التربية وهي من مشتقاتها، وقد استخدمها القرآن الكريم في آياته المباركة، منها رِبِّيُّونَ وَرَبَّانِيَّينَ وَرَبِّيَانِي وَرَبَّنَا، وقد وردت في الآيات على الشكل التالي:

أ. رِبِّيُّونَ: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾^(٥)، أي رجال لهم تربية خاصة، ومنسوبون إلى برامج مخصوصة حقيقية، ولا بد أن تكون هذه التربية إلهية روحانية، فإن التربية الحقيقية ليست إلا هي، وهذا مقتضى إطلاق الكلمة^(٦).

ب. رَبَّانِيَّينَ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا

١- سورة فصلت، الآية ٣٩.

٢- سورة البقرة، الآية ٢٧٦.

٣- سورة الروم، الآية ٣٩.

٤- سورة النحل، الآية ٩٢.

٥- سورة آل عمران، الآية ١٤٦.

٦- التحقيق في كلمات القرآن الكريم، م. س، ص ٢٥.

كُتِبَ تَدْرُسُونَ^(١)، "الرباني هو الذي أحكم ارتباطه بالله تعالى، ولما كانت الكلمة مشتقة من رب فهي تطلق أيضاً على من يقوم بتربية الآخرين وتدير أمورهم وإصلاحهم، ... إن ما يليق بالأنبياء هو أن يجعلوا الناس علماء إلهيين في ضوء تعليم آيات الله تعالى وتدرّس حقائق الدين، ويصيرونهم أفراداً لا يعبدون غير الله ولا يدعون إلا العلم والمعرفة"^(٢).

ث. نُرَبِّكَ: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾^(٣)، والآية تتحدث عن حوار دار بين نبي الله موسى عليه السلام وفرعون حيث يستنكر عليه فرعون نبوته قائلاً: "إذ التقطناك من أمواج النيل الهادرة، فألقيناك من الهلاك، وهياناً لك مرضعة، وعفونا عن الحكم الصادر في قتل بني إسرائيل الذي كنت مشمولاً به، فتربيت في محيط هادئ آمن منعماً... وبعد أن تربيت عشت زماناً"^(٤).

ج. رَبَّيَانِي: ﴿وَآخِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾^(٥)، "أي أذكر تربيتكما لك صغيراً فادع الله سبحانه أن يرحمكما كما رحماك ورباك صغيراً"^(٦).

وفي كلتا الآيتين الأخيرتين التربية تدلّ على الرعاية والعناية.

أما مفردة "رب" بمعنى المالك المتصرف الذي يربي عباده بنعمه المتعددة، فقد وردت في آيات كثيرة من القرآن الكريم، وقد اختص بها الله تعالى، وللتربية القرآنية ارتباط وثيق بهذا الجذر اللغوي من جهة، وبالربوبية من جهة أخرى، حيث أن الأمور المرتبطة بالربوبية تنقسم إلى مجموعتين:

١ - سورة آل عمران، الآية ٧٩.

٢ - الأمثل، م.س، ج ٢، ص ٥٧٠.

٣ - سورة الشعراء، الآية ١٨.

٤ - الأمثل، م.س، ج ١١، ص ٣٥٤.

٥ - سورة الإسراء، الآية ٢٤.

٦ - تفسير الميزان، م.س، ج ١٣، ص ٨٠.

المجموعة الأولى: الربوبية التكوينية، التي تشمل تدبير الأمور لكل الموجودات، وارضاء احتياجاتها، وبكلمة واحدة "تدبير العالم".

المجموعة الثانية: الربوبية التشريعية، وهي مختصة بالموجودات التي تملك الشعور والاختيار، وتشمل عدة مسائل أمثال: بعث الأنبياء، وإرسال الكتب السماوية، وتعيين الوظائف والتكاليف، ووضع الأحكام والقوانين.

إذن فالربوبية الإلهية المطلقة تعني: أن المخلوقات في كل شؤونها الوجودية مرتبطة بالله تعالى، وأن العلاقات والروابط بينها تنتهي بالتالي إلى ارتباطها بالخالق، وهو تعالى الذي يدبر ويدير بعض المخلوقات بوساطة بعض المخلوقات الأخرى، وهو الذي يفيض الرزق من خلال مصادر الرزق التي يوقرها ويخلقها، وهو الذي يهدي الموجودات التي تملك الشعور من طريق الوسائل الداخلية (كالعقل وسائر القوى الإدراكية) والوسائل الخارجية (كالأنبياء والكتب السماوية) وهو الذي يضع للمكلفين الأحكام والقوانين ويضع الوظائف والتكاليف^(١).

ومن مظاهر الربوبية مسألة الهداية، التي تحدّث القرآن الكريم عنها في الكثير من آياته المباركة، والتي تعني التقدّم للإرشاد، والقرآن هو بذاته هدىً، وهو كتاب هداية. فالبحث عن التربية القرآنية لجهة الرؤية والأهداف يجب أن يتوجه نحو تتبع مفردة الهداية في القرآن.

٢،٢. الممارسات التربوية التي ذكرها القرآن:

استخدم القرآن مفردات ذات صلة بالمعنى الاصطلاحي للتربية، وليست ذات صلة بالجذر اللغوي للمفردة، للدلالة على الممارسات التربوية وعلى النتائج المرجو منها، نذكر من هذه المفردات ما يلي:

أ. التعليم: وهو من أكثر المفاهيم تكراراً وشمولاً في القرآن الكريم، وذلك لأنه شمل العديد من أنواع التعليم، ولم يقتصر على تعليم الأنبياء الكتاب والحكمة من

١ - اليزدي، محمد تقي مصباح، دروس في العقيدة الإسلامية، ص ٩٦.

جهة الباري جل وعلا، بل تحدث القرآن عن تعليم الله تعالى لأنبيائه الأسماء، ومنطق الطير، وصناعة لبوس، تأويل الأحاديث، ... فهو قد شمل جوانب مهنية ومهارات، ولم يتحدث القرآن فقط عن تعليم الله تعالى للأنبياء بل تحدث أيضاً عن التعليم كمهمة موكلة إلى الأنبياء، فهم الذين أوكل الله إليهم مهمة تعليم الناس الكتاب والحكمة ويعلمونهم ما لم يكونوا يعلمون.

ب. التزكية: وقد ذكرت مشتقاتها في آيات عديدة وهي ترتبط بشكل وثيق بالتطهير واقتربت بالتعليم كمهمة من مهام الأنبياء في آيات عديدة، فقد ورد في الآية: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(١)، والتزكية عملية تقوم على التخلية والتحلية بمعنى تطهير النفس عن الدنيا والخطايا وقد ورد في الآية المباركة في الحديث عن النفس: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾^(٢).

ت. التطهير: وهو مرتبط بالتزكية، حيث لا تتحقق التزكية بدون وجود الطهارة المادية والمعنوية، وقد ورد التأكيد في آيات كثيرة على:

- أن الله يحب المتطهرين فهم أقرب من غير المتطهرين إليه، ولذلك فهو تعالى يحث على التطهير.

- الربط بين التزكية والتطهير، فالصدقة تزكي المال وتطهره وتساهم في تطهير وتزكية نفوس أصحابه.

- أن الغاية من بعض التشريعات هي إحراز الطهارة. وعليه فإن الطهارة شرط من شروط الهداية والتزكية فلا تتحقق التزكية والهداية لدى غير المتطهرين.

١- سورة الجمعة، الآية ٢.

٢- سورة الشمس، الآيات: ٧-٨-٩.

ث. الصلاح والإصلاح: فالإصلاح هو مهمة مطلوبة من جميع الناس، والصلاح بحسب الآيات القرآنية خير، وتحقيق صلاح العمل هو السبيل الموصل إلى الجنة وهو المنقذ من خسران النعمة، والتربية ترتبط بالإصلاح لأن عبرها يتم إصلاح حال الإنسان ليصل إلى مرتبة الصالحين.

ج. الصنع: وهذا المصطلح استخدمه القرآن للتعبير عن نوع خاص من الرعاية والعناية الإلهية التي خص الله بها أنبياءه، وبالتحديد النبي موسى عليه السلام، فقد جاء في الآيات المباركة: ﴿أَن أَقْذِفِهِ فِي النَّابُوتِ فَأَقْذِفِهِ فِي أَلِيمٍ فَلْيَلْقَهُ أَلِيمٌ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلَتُصْنَعْ عَلَيَّ عَيْنِي﴾^(١)، ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾^(٢).

ح. الإرشاد: وقد ورد ذكر الرشد في آيات عديدة، ففي إطار الحديث عن الدعاء جاءت الآية المباركة لتلفت إلى أن الرشد هدف مطلوب في مسيرة الإنسان التكاملية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^(٣)، وقد اقترن الرشد بالتعليم في قصة نبي الله موسى مع الخضر: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾^(٤)، "والمعنى أنه قال له موسى: هل أتبعك اتباعاً مبنياً على هذا الأساس وهو أن تعلمني مما علمت لأرشد به أو تعلمني مما علمت أمراً ذا رشد"^(٥)، وقد اقترن الرشد بالهدى في بعض الآيات: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَوْمَ اتَّبَعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ

١- سورة طه، الآية ٣٩.

٢- سورة طه، الآية ٤١.

٣- سورة البقرة، الآية ١٨٦.

٤- سورة الكهف، الآية ٦٦.

٥- تفسير الميزان، م.س، ج ١٣، ص ٣٤٢.

الرَّشَادُ^(١)، والإرشاد هو أحد المعاني ذات الصلة بالهداية، والتي تأتي في صميم التربية القرآنية.

خ. النصح: وهو أحد الأساليب التبليغية التي استخدمها الأنبياء في تبليغ رسالتهم للناس، وقد ورد في أغلب الآيات بهذا المعنى، وهو أيضاً أسلوب استخدمه إبليس. وعليه فإن ما نقصده من مفهوم التربية القرآنية في هذه المقالة هو: التربية التي يقوم بها المرئون المسلمون والتي تقوم بمحاكاة التربية القرآنية، وهي التربية المستندة في منهجها على صعيد الرؤية والأساليب والممارسات التربوية إلى منهج الهداية الذي تحدّث عنه القرآن الكريم.

وأما ما نقصده بالمربي فهو كل من تكلف بأداء مهمه تربوية في المجتمع، فالأب والأم كل منهم مربٍ للأبناء والمدير مربٍ لفريق عمله والمعلم مربٍ لتلاميذه والعالم مربٍ لجميع أفراد المجتمع، فالكُل وفق حديث أمير المؤمنين راعٍ ومسؤول عن رعيته، والرعاية أحد المعاني التي تتضمنها التربية.

٣. مسيرة الهداية الربانية:

٣،١. الهداية في لغة القرآن:

هدى: أصلان أحدهما- التقدّم للإرشاد. والآخر بعثة لطف، فالأول قولهم: هديته الطريق أي تقدمته لأرشده. وكل متقدّم لذلك هادٍ. والأصل الآخر- الهدية: ما أهديت من لطف إلى ذي مودة.

ويرى العلامة المصطفوي في التحقيق أن الأصل الواحد في المادة هو بيان طريق الرشد والتمكّن من الوصول إلى الشيء أي دلالة إليه. وهي تكون في مادي أو معنوي وفي خير أو شر^(٢).

١- سورة غافر، الآية ٣٨.

٢- التحقيق في كلمات القرآن، م. س، ج ١١، ص ٢٤٧.

أما الراغب الأصفهاني فيرى في كتابه مفردات غريب ألفاظ القرآن أن "هداية الله تعالى للإنسان على أربعة أوجه:

الأول: الهداية التي عم بجنسها كل مكلف، من العقل والفطنة والمعارف الضرورية، التي أعطى منها كل شيء بقدر فيه، حسب احتماله كما قال: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾^(١).

والثاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على السنة الأنبياء وإنزال القرآن ونحو ذلك، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾^(٢).

الثالث: التوفيق الذي يختص به من اهتدى وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾^(٣)،

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾^(٤)، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^(٥)، ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾^(٦)، ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٧).

الرابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة المعني بقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾^(٨)، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾^(٩)،^(١٠).

١ - سورة طه، الآية ٥٠.

٢ - سورة السجدة، الآية ٢٤.

٣ - سورة محمد، الآية ١٧.

٤ - سورة التغابن، الآية ١١.

٥ - سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

٦ - سورة مريم، الآية ٧٦.

٧ - سورة البقرة، الآية ٢١٣.

٨ - سورة محمد، الآية ٥.

٩ - سورة الأعراف، الآية ٤٣.

١٠ - الراغب الأصفهاني، م.س، ص ٥٣٨.

٣،٢. أقسام الهداية:

استناداً لما تقدّم من بيان للاستخدام اللغوي لمفردة الهداية في القرآن ومن تتبّع للآيات التي تحدّثت عن الموضوع قسّم العلماء الهداية إلى:

هداية عامة: وهي الهداية التي شمل الله بها جميع الموجودات، فهي لا تختص بفرد دون فرد بل تعم كل الموجودات كالحيوان والنبات... وقد قسمها العلماء إلى: تكوينية وتشريعية.

هداية خاصة: فخصّ سبحانه هذا القسم من الهداية بقسم من الناس دون قسم، بملاك أنّ المعيّنين بالهداية الخاصة صاروا مستحقّين لنزول تلك الرحمة، إما بإنابتهم إليه سبحانه، أو بجهادهم في سبيله، أو بإيمانهم القويّ بربهم، ففي هذه الحالة شملتهم العناية الربانية الخاصة، فالهداية الخاصة تتبّع مشيئة الله، وليست مشيئته اعتباطية، بل تتبع لصلاحيات اكتسبها أصحابها بالاهتداء بالهداية الأولى العامة وأتبعها أعمال صالحة.

وتتلخّص الهداية العامة في الهديتين: التكوينية والتشريعية، على الشكل التالي:

أ. الهداية العامة التكوينية:

معناها أنّه سبحانه ما خلق شيئاً إلّا وقد هداه إلى الغاية التي خُلق لأجلها، تتمّ الهداية التكوينية عن طريق القوى التي يخلقها الله تعالى في كلّ موجود لتهديه إلى الغايات التي خُلق لأجلها، وتحقّق الهداية التكوينية في كلّ موجود بصورة خاصة تتناسب وتنسجم مع ذلك الموجود. فقد هدى الله سبحانه وتعالى الإنسان إذ أودع فيه مجموعة من القوى كي يهتدي بها إلى غاية خلقه كالفطرة والعقل ...

ت. الهداية التشريعية:

إذا كانت الهداية التكوينية العامة أمراً نابعاً من صميم الشيء، فالهداية التشريعية العامة مفاضة عليه بواسطة عوامل خارجة عن ذاته، كالأنبياء والرسل والأولياء والأوصياء وخلفائهم والمصلحين.

قال سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^(٢)، إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على عمومية الهداية التشريعية لكل إنسان قابل أو مجتمع مستعد لهذه الإفاضة. فإرسال الرسل، وإنزال الكتب، ودعوة العلماء والمصلحين من فروع هذه الهداية العامة، كما أن هداية النبي الأكرم ﷺ وهداية كتابه من فروعها، قال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٣)، وقال تعالى في هداية القرآن إلى الطريق الأقوم: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(٤).

٣،٣. بين الهداية والتربية:

أو كل الله سبحانه وتعالى مهمة هداية البشر إلى أنبيائه ورسله، وهذه الهداية تنقسم إلى هداية تكوينية وهداية تشريعية، الهداية التشريعية من جهة التشريع هي مختصة بالأنبياء ﷺ، أما لجهة تبليغ التشريعات وتعليمها للناس فهي تشمل الأنبياء والرسل والأولياء والعلماء والصالحين، هنا يأتي دور المرين المسلمين، فهؤلاء يستمدون شرعية عملهم من العلاقة القائمة بين التربية والتعليم وهدف بعثة الأنبياء، فقد أكدت الآيات القرآنية في أكثر من مورد هذا المعنى، حيث قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٥)، كما أننا نجد أن هناك آيات أخرى أسندت مهمة التعليم لمن أطلقت عليهم اسم "ربانيين"، وذلك في الآية المباركة: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ

١- سورة فاطر، الآية ٢٤.

٢- سورة الحديد، الآية ٢٥.

٣- سورة الشورى، الآية ٥٢.

٤- سورة الإسراء، الآية ٩.

٥- سورة الجمعة، الآية ٢.

كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ^(١) ويتّضح من ذلك أيضاً " أن هدف الأنبياء لم يكن تربية الناس فحسب، بل استهدفوا أكثر من ذلك تربية المعلمين والمربين وقادة الجماعة، أي تربية أفراد يستطيع كلّ منهم أن يضيء بعلمه وإيمانه ومعرفته محيطاً واسعاً من حوله"^(٢)، وقد بينت الآية أن الأنبياء يرشدون عباد الله ليكونوا ربانيين يعلمون الناس. من هنا نستنتج أن مهمة الأنبياء التربوية التي تعتمد التعليم وسيلة للوصول إلى الأهداف تستمر عبر المربين الذين سمتهم الآية بالربانيين. ففي أي قسم من أقسام الهداية يقع دور هؤلاء المربين؟ وما هي نقاط التداخل بين الهداية كمهمة للأنبياء والتربية كدور أوكل للمربين في مجال قيادة الناس إلى الهدى الرباني؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة تنطلق مما أسلفناه من بحث حول أقسام الهداية، وتتلخص الإجابة بالنقاط التالية:

أولاً: في هذا الإطار كون الهداية العامة التشريعية مفاضة على الإنسان بواسطة عوامل خارجة عن ذاته، فإن التربية المستندة إلى الرؤية المنبثقة من الوحي الإلهي المتمثل بالقرآن والسنة، هي أهم عامل خارج عن ذات الإنسان مساهم في قيادته إلى الهدى، وهنا يتركز دور التربية ودور المربي المسلم في تهيئة البيئة الملائمة للتربية، وفي هذا الإطار يرى الإمام الخميني عليه السلام أنه إذا تهيأت الظروف التربوية المساعدة للإنسان اكتسب من الصفات الإلهية وصار موجوداً إلهياً، فنراه يقول: ليس هناك موجود مثل الإنسان، إنه أعجوبة يُصنع منها موجود إلهي ملكوتي، وكذلك موجود جهنمي شيطاني، والموجودات الأخرى ليست كذلك ليست بحيث تكون الفجوة بهذا الشكل بين الفرد الكامل والفرد الجهنمي الناقص^(٣).

١- سورة آل عمران، الآية ٧٩.

٢- الامثل، م.س، ج ٢، ص ٥٧٠.

٣- صحيفة نور، ج ١٣، ص ١٣٠، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني الشؤون الدولية، طهران، إيران،

من هنا نجد أنه لا بد أن يتحدّد اتجاه التربية على أساس الغاية التي يحددها الوحي لتربية الإنسان المسلم، وقد وردت هذه التوصية في كلام للإمام الخميني: اعملوا على أن تربّوا أبناءكم تربية إلهية ولا تربّوهم تربية شيطانية^(١)، ونلتقي معه في مقطع آخر يدعو فيه إلى تهذيب الأبناء، بمعنى أن تربية إنسان مهذب أي لا يرتكب الذنب ولا يلوّث وجوده بالانحراف والمعصية؛ لذلك صرح سماحته قائلاً: هذبوا أطفالكم، اجعلوا أطفالكم إسلاميين^(٢)، فالإنسان المهذب هو الذي يكافح الانحرافات والردائل، ويصعد استعداداته الفطرية العالية.

ثانياً: لما كانت الهداية الخاصة متعلّقة برفع مستوى الهداية التي استحصلها الإنسان من قبل من خلال الهداية الأولى فصار مورداً للعناية الربانية واختصه الله بهداية خاصة، فمهمة التربية هنا لا بد أن تكون مستمرة مع المترّبي، من أجل الرقي به نحو الكمال المطلوب.

ثالثاً: لما كان الهدى استحقاق يناله الإنسان انطلاقاً من الجهد الذي يبذله في طريق الهداية، فدور التربية والمربي في هذا الإطار يكون في الحث على استمرار بذل الجهود والأخذ بيد الإنسان المترّبي عبر تعليمه الصبر على الطاعة، والبذل والعطاء من أجل تحصيل القرب من الله ونيل رضاه.

رابعاً: لما كان استحقاق الضلال مرتبط باتصاف الإنسان بصفات محددة: كالظلم، والنفاق، والكفر، وغيرها، فإن دور التربية يأتي في إطار تحصين المترّبي من الاتصاف بهذه الصفات .

خامساً: إن معرفة المربي المسلم بأن الله سبحانه وتعالى هدى كل مخلوق بهداية تكوينية، بحيث أودع في الإنسان الفطرة الطاهرة التي بها يعرف الحسن والقبح ويميز الخير والشر قبل أن يتعلم في أي مدرسة، فدور التربية في هذا الإطار أن تنطلق من مبادئ هذه الفطرة الطاهرة، وأن تعمل على صيانتها وحمايتها من التلوّث، فلا تقدّم

١- م.ن، ج ٥، ص ٦٢.

٢- م.ن، ج ٧، ص ١٧.

للمتربّي ما يخرج من دائرة نقاء وطهارة الفطرة (النور) إلى تلوثها (الظلمات)، وعلى حدّ تعبير الإمام: "الأطفال حديثو عهد بالملكوت ونفوسهم أظهر"^(١).

فيجب إذن تربية هذه النفوس الطاهر التي لها القدرة على اكتساب الفضائل والمحامد، والاستعدادات الذاتية للإنسان تقتضي ظروفًا وبيئة مساعدة لتبرز وتنمو، من هنا يجد مفهوم التربية في الفكر التربوي للإمام عليه السلام معنى خاصاً وعميقاً، إذ يقول: "إنّ التربية هي التي تفتح الفطرة أو تحول دون تفتحها، إنّ التربية هي التي تؤدّي بالبيئة إلى الكمال المطلوب في الإسلام، إنّ التربية (السيئة) أو التعليم دون التربية هما اللذان يجرّان البيئة إلى الفناء إذا أصبحت مقاليد الأمور وكل شيء على أساسها"^(٢).

لذلك يمكن القول إنّ الهدف من التعليم والتربية لا يقتصر في منظور الإمام الخميني عليه السلام على إعداد الأفراد للحياة الاجتماعية، ولا على تأهيلهم لخوض غمار الحياة في الكبر ولا على تربية أحد أبعاد الشخصية الإنسانية، إنّما التعليم والتربية عبارة عن جعل الفطرة الإنسانية تتفتح.

٤. نتائج المقالة:

انطلاقاً مما تقدّم من قراءة للاستخدام القرآني لمفردة التربية بالرجوع إلى الجذر اللغوي الذي تنتسب إليه وبالرجوع إلى المصدر الذي تشتق منه، وبالبحث عن المفردات ذات الصلة بالمفهوم والتي تدل على ممارسات تربوية، نستخلص النتائج التالية:

١ - يرتبط مفهوم التربية القرآنية بصميم عقيدة التوحيد، وبالتحديد مسألة الربوبية التي هي مظهر من مظاهر التوحيد الأفعالي^(٣)، والتربية هي فرع الربوبية التشريعية التي تتعلق كما أسلفنا بإرسال الكتب السماوية، وبعث الأنبياء والرسل.

١ - م.ن، ج ٧، ص ١٧.

٢ - صحيفة نور، ج ٤، ص ٢٨.

٣ - التوحيد يقسم إلى ثلاثة أقسام: التوحيد الذاتي، التوحيد الصفاتي، والتوحيد الأفعالي وللتوحيد الأفعالي أقساماً متعدّدة، منها توحيد الخالقية الذي يعني أنّ الخالق واحد لا شريك له، والتوحيد في التشريع الذي يعني أنّ المشرّع هو الله سبحانه، وتوحيد الراقية الذي يعني أنّ الله هو الرازق، وهكذا إلى بقية صنوف التوحيد الأفعالي.

٢ - التربية القرآنية هي الهداية، وذلك لأن الهداية مظهر من مظاهر الربوبية، والتربية متصلة بالربوبية كونها من مهام الرب، وعليه فإن المفردات التي يساهم تتبعها في القرآن في تشخيص مراحل التربية القرآنية وأهدافها هي المفردات التي تعود إلى الجذر اللغوي (هدى).

٣ - المستهدف من التربية القرآنية (الهداية) هو الإنسان (جمعه الناس).

٤ - التربية القرآنية تدل على معنى الزيادة والنماء، لارتباطها بمسألة الهداية، التي تستمر تصاعدياً في الاشتداد مع الإنسان فينتقل من مرتبة إلى مرتبة ويزداد هدىً.

٥ - التربية القرآنية تربية ذات غاية محددة وهي الرقي بالإنسان نحو كماله المنشود.

٦ - للقرآن الكريم منهج خاص يعتمد على مجموعة ممارسات وأساليب تربوية توصل إلى تحقيق الأهداف والغاية المنشودة.

٧ - التربية مهمة الأنبياء وقد أوكلت بعدهم للمربين الذين سمتهم الآية بالربانيين الذين يستفيدون من الممارسات التربوية المتنوعة المستندة بالأصل إلى كتاب الله تعالى (يعلمون الناس الكتاب) من أجل الوصول لتحقيق الهدف من التربية؛ وصناعة الإنسان وفق الرؤية التي أرادها الله سبحانه وتعالى له وبينها في كتابه المنزل على خاتم الرسل محمد ﷺ "القرآن الكريم".

في الختام:

التربية بحسب المفهوم المستنتج من القرآن هي هداية الإنسان عبر مجموعة من الممارسات التربوية التي يقوم بها المربي والتي تستهدف تنمية جميع جوانب شخصيته بغاية الوصول به إلى كمال منشود (كمال الهدى)، كل ذلك وفق رؤية ربانية خاصة.

فالإلى كل مربٍ مسلم... سواءً كان أباً أو أمّاً، أو معلماً - أكاديمي - في مؤسسة تربوية تصطبغ بالصبغة الإسلامية...

لقد أوكلت إليك مهمة الأنبياء، وأنت قدوة، وقد أنيطت إليك مهمة الخلافة
الإلهية، فكن ربّانياً كما أراد الله لك أن تكون، لعلك ترقى...
فإن استطعت أن تربي أشرف المخلوقات (الإنسان) وفق الرؤية الربانية، فقد
ارتقيت وامتلكت مقاماً لا يناله إلا الأولياء الصالحون.
فطوبى لك؛ لأنك بتربيتك لهذا الإنسان تستطيع أن تغيّر وجه الحضارة والتاريخ، لا
بل وجه الأرض وما عليها، والكون وما فيه من ذخائر ربانية. وطوبى لمن ترقى.

كَبَائِرُ الذُّنُوبِ

□ الشيخ: سيف الدين العلوي (*)

تمهيد:

إن الكبائر جمع كبيرة وهي كل ما كُبر من المعاصي وعَظُم من الذنوب من قبيل الشرك بالله تعالى، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، وغير ذلك من الأمور التي شددت الشريعة المقدسة في النهي عنها .

وقد اختلف العلماء في وضع وتحديد الضوابط والمعايير للكبائر، التي تتفاوت بطبيعة الحال درجاتها شدة وضعفاً وإن كانت تتفق كلها في كونها كبيرة، واختلفوا أيضاً في عددها من أربع، إلى سبع، إلى تسع، إلى إحدى عشرة، إلى أكثر من ذلك، فما هو عددها أهى سبعة أم سبعون أم هي إلى السبعمئة أقرب منها إلى السبعة، كما ينقل عن ابن عباس رضي الله عنه. فتواجهنا بعض الروايات بتعبير "السبع الموبقات" أي المهلكات التي هي من جملة الكبائر لا كلها، وبعضها تذكر أعداداً معينة، مما دفع بعض العلماء لذكر أعداد محددة للكبائر، وهناك من لم يذكر عدداً أصلاً واكتفى بطرح عناوين يعتبرها الأبرز حسب القرآن والسنة الشريفة، ونحن في هذا البحث نذكر الضوابط التي طُرِحَت لهذه الكبائر مع تعداد لأهمها، والهدف الأساس من كل ذلك التحصين من الوقوع فيها والالتفات إلى أن عدم ذكر بعضها لا يعني أنها ليست من

الكبائر. فعلى المؤمن من الناحية الروحية أن يستعد دائماً للابتعاد عن كل ما يُحتمل أنه يُبعده عن الله حتى لو كان من الصغائر، فكيف إذا احتمل أنها من الكبائر فضلاً عن علمه بذلك.

أولاً- كيف نعرف الكبائر؟

اختلف القائلون بالتقسيم - أي إلى الكبائر والصغائر - في تفسير الكبائر وتحديددها. وحاول جملة من العلماء إعطاء ضوابط للذنوب الكبيرة، منها:

- كل ذنب توعد الله تعالى عليه في القرآن عقاباً فهو من الكبائر.
- الكبيرة كل ذنب توعد الله عليه النار، أي أنه أنه مما أوجب الله عليه النار سواء في القرآن أم الروايات^(١) ومن الأمور التي دلت على ذلك الوعيد بالنار صريحاً أو ضمنياً في الكتاب كما سيأتي، أو ما دلت عليه تعابير بعض الروايات من قبيل: مما أوجب الله عليهن النار^(٢)، من اجتنب ما وعد الله عليه النار^(٣)، وما شابه ذلك من تعابير.

■ كل ذنب ثبتت حرمة وأنه ذنب كبير بالأدلة القطعية كما ورد ذلك في القرآن وروايات أهل البيت عليهم السلام (كالربا، الغيبة، الكذب، الفرار من الزحف، التعرُّب بعد الهجرة،...).

١- الأول أعم من الثاني من حيث إن العقاب قد يتجسد في غير النار ، - من أهوال يوم القيامة وإن كان ما ورد في القرآن من وعيد بالعذاب ، فالظاهر انصرافه إلى عذاب جهنم وفيه النار ، ولا يشمل مجرد أهوال يوم القيامة - مثلاً - التي ليست منها النار ، فالوعيد بالعذاب وعيد بالنار أيضاً - والثاني أعم من الأول من حيث عدم التقيد بكون الوعيد في الكتاب . ومن الممكن افتراض اتحاد كلا الرأيين ، بأن يكون المقصود بالعقاب ما يشمل على النار ، أو يكون المقصود بالنار مطلق العقاب ، وذكرت النار على سبيل المثالية ، وبأن يكون المقصود من توعد الله عليه النار توعد في الكتاب . وقد يجمع بين عموم الأول لغير النار ، وعموم الثاني لغير الكتاب ، حيث قيل: إنها كل ذنب توعد عليه بخصوصه ، قال العلامة الكني في قضائه : " اختاره الشهيدان في القواعد والدروس والروضة ، وزاد في الأخير قوله : في كتاب أو سنة . "

٢- حسب رواية عبيد الله بن زرارة الآتية.

٣- حسب رواية ابن محبوب الآتية.

■ كل ذنب عيّن له الشارع المقدّس حداً معيناً (كشارب الخمر- والزاني- والسارق...) وقد حذّر القرآن منها أو صرح فيه بالوعيد.

■ كل ذنب يدل على الاستهانة بالدين واللامبالاة به هو كل معصية تؤذّن بقلّة اكتراث فاعلها بالدين،. ويترتب على ذلك أن الكبر والصغر اعتباران يعرضان لكل معصية فالمعصية التي يقترفها الإنسان استهانة بأمر الربوبية واستهزاء أو عدم مبالاة به كبيرة وهي بعينها لو اقترفت من جهة استشاطّة غضب أو غلبة جبن أو ثورة شهوة كانت صغيرة مغفورة بشرط اجتناب الكبائر.

■ إن الكبائر ما اشتملت عليه آيات سورة النساء من أول السورة إلى تمام ثلاثين آية وكأن المراد أن قوله إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه الآية إشارة إلى المعاصي المبينة في الآيات السابقة عليه كقطيعة الرحم وأكل مال اليتيم والزنا ونحو ذلك.

■ أن يرد النص بعدم قبول الشهادة عليه.

■ ما حكم العقل بأنه كبيرة.

■ الكبيرة ما زاد عقابه على ثواب صاحبه ، والصغيرة ما نقص لقولهم بالإحباط ، والتخليد على الكبيرة وهو قول المعتزلة فالكبيرة ما يكون عقاب فاعله أكثر مما فعله من المثوبات، والصغيرة ما كان ثواب فاعله أكثر من العقاب الذي ترتب على تلك المعصية.

■ إنّ الفرق بين الصغيرة والكبيرة في عرض مفسدة الذنب على مفسد الكبائر المنصوص عليها، فإن نقصت عن أقل مفسادها فهي من الكبيرة ما عده أهل الشرع كبيراً عظيماً، وإن لم تكن كذلك في نفسه كسرقة ثوب ممن لا يجد غيره مع الحاجة والصغيرة ما لم يعدوه كسرقة ممن يجده.

وعليه ما يمكن أن نخلص إليه هو الآتي:

إنّ المناطق الواقعي لكون معصية ما كبيرة هو كون مفسدتها قوية إلى الدرجة التي يترتب عليها مبعوضة شديدة وعقوبة عظيمة، فكبر المعصية إنما يُعلم من شدة النهي الواقع عنها بإصرار أو تهديد بالعذاب.

ويمكن أن نستخلص من الضوابط المذكورة ما يلي:

يثبت كون المعصية كبيرة بأمور:

الأول: النص المعتبر على أنها كبيرة، كما ورد في بعض المعاصي، وقد عد منها في الحسن كالصحيح المروي عن الرضا عليه السلام من نيف وثلاثين ...

الثاني: النص المعتبر على أنها مما أوجب الله عليها النار - سواء أُوعد في الكتاب، أو أخبر النبي ﷺ أو الإمام عليه السلام بأنه مما يوجب النار - لدلالة الصحاح المروية في الكافي وغيرها على أنها: ما أوجب الله عليه النار ولا ينافيه ما دل على أنها مما أُوعد الله عليه النار بناء على أن إبعاد الله إنما هو في كلامه المجيد، فهو مقيد لإطلاق ما أوجب الله .

الثالث: النص في الكتاب الكريم على ثبوت العقاب عليه بالخصوص، لا من حيث عموم المعصية، ليشمله قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾^(١)، ونحو ذلك ما إذا كشف السنة عن إبعاد الله تعالى، مثل قوله ﷺ: من قال في مؤمن ما رأت عيناه أو سمعت أذناه، فهو من الذين قال الله تعالى [فيهم]: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾^(٢). والدليل على ثبوت الكبيرة بما ذكر في هذا الوجه صحيحة عبد العظيم بن عبد الله الحسني كما سيأتي.

الرابع: دلالة العقل والنقل على أشدية معصيته مما ثبت كونها من الكبيرة أو مساواتها، كما في قوله تعالى: (والفتنة أكبر من القتل)، وفي الكذب: (شر من الشراب) وكما ورد أن: (الغيبة أشد من الزنا) ومثل حبس المحصنة للزنا، فإنه أشد من القذف

١- سورة الجن، الآية ٢٣.

٢- سورة النور، الآية ١٩.

بحكم العقل، ومثل إعلام الكفار بما يوجب غلبتهم على المسلمين، فإنه أشد من الفرار من الزحف .

الخامس : أن يرد النص بعدم قبول شهادة عليه، كما ورد النهي عن الصلاة خلف العاق لو لديه.

فمن أحد هذه الأمور يعرف كون معصية ما كبيرة^(١) .

النتيجة: التي يمكن الوصول إليها في تحديد الكبائر وذلك من خلال التدبر بالآيات القرآنية، ومراجعة الروايات والنظر في كلام بعض الأعلام كالشيخ الأعظم الأنصاري، والشيخ الأصفهاني وأمثالهما ما يلي:

الأمر الأول: المعصية التي أوجب الله تعالى، أو أوعدها النار، أو العذاب بخصوصها في الكتاب، أو السنة وقد ورد في غير واحد من الأخبار تمييز الكبيرة بذلك.

١. فقد عرف الكبائر بما أوعده الله عليها النار.

٢. اجتناب الكبائر التي أوجب عليها النار.

الأمر الثاني: التنصيص على أنها من الكبائر في النص المعتبر.

كما ورد في جملة من الروايات التي عدت الكبائر، منها: خبر عبد العظيم الحسني، خبر عبيد بن زرارة، وخبر محمد بن مسلم، وخبر الأعمش في حديث شرائع الدين، وخبر الفضل بن شاذان عن الرضا^{عليه السلام}، وغيرها من الروايات التي سيأتي ذكر بعضها.

الأمر الثالث: أشدية معصية عما ثبت كونها كبيرة أو ما أوجب عليه النار، أو العذاب أو مساواتها له، والأشدية إما بالنقل أو بالعقل. وما دل على الأشدية من النقل:

كالفتنة قال تعالى: ﴿الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

والكذب وقد ورد أنه شر من الشراب.

١- الأنصاري، مرتضى، رسائل فقهية (رسالة في العدالة)، طرق إثبات كون المعصية كبيرة، ص ٤٤.

والغيبة وقد ورد أنه أشد من الزنا.

أما من العقل: فحبس المحصنة للزنا لا إشكال في أنه بحكم العقل أشد من القذف.

الأمر الرابع: ما ورد في النص المعتبر من عدم قبول شهادة الرجل أو عدم الصلاة خلفه.

بناء على عدم قدح الصغيرة في العدالة، كما ورد النص على أنه لا يصلى خلف من يتبغى على الأذان والصلاة بالناس الأجر.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان لا يقبل شهادة الفحّاش ولا ذي مخزية في الدين ولا تقبل شهادة اللاعب بالشطرنج، والنرد ولا شهادة المقامر إلى غير ذلك، فيورود النص على عدم الصلاة خلف المتصف بصفة أو المرتكب بعمل أو عدم قبول شهادته يستكشف أن تلك المعصية منافية للعدالة.

إذا عرفت الأمور التي ذكرنا فلك تشخيص كون المعصية كبيرة بأحد الطرق التي أشرنا إليها على سبيل منع الخلو فربما ينطبق أكثر من واحد منها على بعض المعاصي كما لا يخفى ^(١).

ثانياً- أنواع الكبائر وعددها :

اختلف العلماء في أنواع الذنوب الكبيرة وعددها ونقصد بالأنواع: العنوان العام الذي قد يشتمل على مصاديق متعددة من الذنوب، بدليل أن هناك مصاديق كثيرة من الذنوب يحكم العقل المستقل بقبحها وكونها من الكبائر، وأنها مما يوجب دخول النار مع أنها لم تذكر بعناوينها الخاصة في الروايات كحبس المحصنة للزنا بها كما تقدّم أو الدلالة على عورات المسلمين المفضية إلى قتلهم وأسرههم التي هي أعظم عند الله من الفرار من الزحف، وكذا الوشاية على المؤمن إلى الظالم المفضية إلى قتله فهي أعظم

١ اللنگرودي، محمد حسن المرتضوي، الدر النضيد في الاجتهاد والاحتياط والتقليد، ج ٢، ص ٨٥ (بتصرف).

من غيته. قد يفهم أن الذنوب التي ذكرت كلها تعتبر من أكبر مصاديق الظلم الذي توعّد الله عليه النار قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾^(١) فحينئذ تتسع دائرة الكبائر فيصبح الظلم كبيرة نوعية تندرج تحتها مصاديق كثيرة لا عد لها ولا حصر.

ويرى حجة الإسلام الغزالي أن الكبائر على ثلاث مراتب:

الأولى: ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله، وهو الكفر (ومنه الشرك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمته) ويليه الإصرار على معصية الله، وتناول الدين بالإغواء، والدعاء إلى البدعة، والترغيب في المعاصي وتهيج أسباب الجراءة على الله، وبعضها أشد من بعض، وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها، وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه وبأفعاله وشرائعه وأوامره ونواهيه.

الثانية: ما يسد باب حياة النفوس، إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة (كقتل النفس والزنا واللواط)، فقتل النفس لا محالة من الكبائر وإن كان دون الكفر؛ لأن ذلك يصدّم عين المقصود - التوصل بالدنيا للآخرة بمعرفة الله تعالى - وهذا يصدّم وسيلة المقصود، والزنا دون القتل لأنه يفوت تمييز الأنساب، وأشد من اللواط، لأن الشهوة داعية إليه من الجانيين، فيكثر وقوعه، ويعظم أثر الضرر بكثرته، واللواط شديد، لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور في قضاء الشهوات انقطع النسل.

الثالثة: ما يتعلق بالأموال، فإنها معاش الخلق، فينبغي أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس، ولذا إذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له، فينبغي أن يكون ذلك من الكبائر كالسرقة وأكل مال اليتيم، وتفويتها بشهادة الزور، وأخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس، التي يحق بها باطلاً أو يبطل بها حقاً، وأن يأكل الربا وهو يعلم!

أما من ناحية عدد الكبائر فبعضهم قال: سبعة، وبعض قالوا: عشرة، وبعض اثنا عشر، وآخرون عشرون، وبعض أربع وثلاثون، وبعض أربعون، وأنهاء آخرون إلى سبعين كبيرة.

علماً بأن منشأ الاختلاف في العدد راجع إلى الاختلاف الوارد في الروايات، مما قد يفهم منها أن الكبائر ليست بمستوى واحد على أن عدد الكبائر قد يكون من طرق تحديد لها أيضاً، وفيما يلي نورد بياناً بهذه الكبائر ونقسمه إلى قسمين: منها ما ورد حسب القرآن، ومنها ما ورد بحسب الروايات الشريفة.

الكبائر حسب ما ورد في القرآن الكريم:

حكى العلامة العاملي رحمته في مفتاح الكرامة عن مناسك أستاذه العلامة الطباطبائي رحمته مقالاً في تعدد الكبائر، وصرح بأنه لم يجد بياناً أجود مما حققه وحاصله أنه رحمته بعد أن اختار ما عليه المشهور في تمييز الكبيرة وأنها هي التي أوعده الله سبحانه عليها النار أو العذاب، سواء كان الوعيد بالنار صريحاً أو ضمناً، قال:

الكبائر التي وجد فيها الوعيد بالنار في الكتاب صريحاً أربعة عشر:

- الأول: الكفر بالله العظيم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١).
- الثاني: الإضرار عن سبيل الله، قال تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهٗ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٢).
- الثالث: الكذب على الله، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٣).
- الرابع: قتل النفس المحترمة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ (٤).

١- سورة البقرة، الآية ٢٥٧.

٢- سورة الحج، الآية ٩.

٣- سورة الزمر، الآية ٦٠.

٤- سورة النساء، الآية ٩٣.

- الخامس: الظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا﴾^(١).
- السادس: الركون إلى الظالم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾^(٢).
- السابع: الكبر، قال تعالى: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾^(٣).
- الثامن: ترك الصلاة، قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنْ الْمُصَلِّينَ﴾^(٤).
- التاسع: منع الزكاة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٥).
- العاشر: التخلف عن الجهاد، قال تعالى: ﴿فَرَحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ -إِلَى قَوْلِهِ: قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾^(٦).
- الحادي عشر: الفرار من الزحف، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرُهُ -إِلَى قَوْلِهِ: وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيُسَّ الْمَصِيرُ﴾^(٧).
- الثاني عشر: أكل الربا، لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ -إِلَى قَوْلِهِ: وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٨).

١- سورة الكهف، الآية ٢٩.

٢- سورة هود، الآية ١١٣.

٣- سورة النحل، الآية ٢٩.

٤- سورة المدثر، الآيتان: ٤٢-٤٣.

٥- سورة التوبة، الآية ٣٤.

٦- سورة التوبة، الآية ٨١.

٧- سورة الأنفال، الآية ١٦.

٨- سورة البقرة، الآية ٢٧٥.

- الثالث عشر: أكل مال اليتيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾^(١).
- الرابع عشر: الإسراف، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾^(٢).
- قال: وأما المعاصي التي وقع التصريح فيها بالعذاب دون النار فهي أيضاً أربعة عشر:
- الأول: كتمان ما أنزل الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ -إِلَى قَوْلِهِ- مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾^(٣).
- الثاني: الإعراض عن ذكر الله، قال تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾^(٤).
- الثالث: الإلحاد في بيت الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدَقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾^(٥).
- الرابع: المنع من مساجد الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ -إِلَى قَوْلِهِ-: وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٦).
- الخامس: إيذاء الرسول، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(٧).

١- سورة النساء، الآية ١٠.

٢- سورة المؤمن (غافر)، الآية ٤٣.

٣- سورة البقرة، الآية ١٧٤.

٤- سورة طه، الآية ١٠٠.

٥- سورة الحج، الآية ٢٥.

٦- سورة البقرة، الآية ١١٤.

٧- سورة الأحزاب، الآية ٥٧.

○ السادس : الاستهزاء بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

○ السابع والثامن : نقض العهد واليمين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢).

○ التاسع: قطيعة الرحم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾^(٣).

○ العاشر: المحاربة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٤).

○ الحادي عشر: الغناء، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^(٥).

○ الثاني عشر: الزنا، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾^(٦).

١- سورة التوبة ، الآية ٨٠

٢- سورة آل عمران ، الآية ٧٧.

٣- سورة الرعد ، الآية، ٢٥.

٤- سورة المائدة ، الآية ٣٣.

٥- سورة لقمان، الآية ٦.

٦- سورة الفرقان، الآيتان: ٦٨-٦٩.

○ الثالث عشر: إشاعة الفحشاء، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

○ الرابع عشر: القذف، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٢).

قال: وأما المعاصي التي يستفاد من الكتاب العزيز وعيد النار عليها ضمناً ولزوماً فهي ستة:

○ الأول: الحكم بغير ما أنزل الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٣).

○ الثاني: اليأس من روح الله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَيْسَؤُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٤).

○ الثالث: ترك الحج، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٥).

○ الرابع: عقوق الوالدين - قال تعالى: ﴿وَبِرًّا بِالَّذِي وَلَّمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾^(٦). مع قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٌ * مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾^(٧). وقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فَبِئْسَ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾^(٨).
○ الخامس: الفتنة، قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾^(٩).

١ - سورة النور، الآية ١٩.

٢ - سورة النور، الآية ٢٣.

٣ - سورة المائدة، الآية ٤٤.

٤ - سورة يوسف، الآية ٨٧.

٥ - سورة آل عمران، الآية ٩٧.

٦ - سورة مريم، الآية ٣٢.

٧ - سورة إبراهيم، الآيتان: ١٥-١٦.

٨ - سورة هود، الآية ١٠٦.

٩ - سورة البقرة، الآية ١٩١.

○ السادس: السحر، قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾^(١)
 ○ قال - رحمه الله -: فهذه جملة الكبائر المستنبطة من الكتاب العزيز، وهي أربع وثلاثون، بناء على تفسير الكبيرة بأنها المعاصي التي أوجب الله سبحانه عليها النار^(٢).
 وعقب صاحب الجواهر على هذا التفصيل، قال: "وفيه أنه بناء على ما ذكر من حصر الكبائر في هذا العدد يلزم أن يكون ما عداها صغائر، وأنه لا يقدر في العدالة فعلها بل لا بد من الإصرار، وبدونه تقع مكفرة لا تحتاج بالنسبة إلى رفع العقاب بها إلى توبة، فمثل اللواط وشرب الخمر وترك صوم يوم من شهر رمضان وشهادة الزور ونحو ذلك من الصغائر التي لا تقدر في عدالة ولا تحتاج إلى توبة، بل تقع مكفرة ولا يثبت بها جرح، وهو واضح الفساد، وكيف يمكن الحكم بعدالة شخص قامت البيئة على أنه لا ط في غلام في زمان قبل زمان أداء الشهادة بيسير، كما لا يخفى على المخالط لطريقة الشرع، وإن شئت فانظر إلى كتب الرجال وما يقدحون به في عدالة الرجل، على أن في رواية ابن أبي يعفور السابقة (أن تعرفوه بالستر والعفاف وكف البطن والفرج واللسان ونحو ذلك) بل في ذلك إغراء للناس في كثير من المعاصي، فإنه قل من يجتنب من المعاصي من جهة استحقاق العقاب بعد معرفته أن لا عقاب عليه"^(٣).

الكبائر حسب ما ورد في الأخبار:

إنّ الروايات الواردة في هذا الباب كثيرة، وقد أوردها الحر العاملي في الوسائل في الباب السادس والأربعين من أبواب جهاد النفس، ولكنها مختلفة من حيث المفاد؛ لأنّ جملة منها واردة في تفسير الكبائر وبيان الضابط لها، وجملة منها دالّة على عددها

١- سورة البقرة، الآية ١٠٢.

٢- راجع: العراقي، آقا ضياء الدين، شرح تبصرة المتعلمين (كتاب القضاء)، ص ٣٥٠.

٣- راجع: الجواهري، محمد حسن، جواهر الكلام، ج ١٣، ص ٣١٦.

وأنها خمس أو سبع أو تسع أو أزيد على اختلاف بين هذه الطائفة أيضاً، وجملة منها واردة في عدد بعض المعاصي من الكبائر من غير تعرض لتفسيرها ولا كونها في مقام تعدادها، وبعض منها غير مرتبط بعنوان الباب الذي عقده، وهو تعيين الكبائر التي يجب اجتنابها.

ولتوضيح الموضوع نحاول القيام بالأمور الآتية:

١. عرض أهم الروايات التي تعرضت لعدد الكبائر وهي كالتالي: (٥-٧-٨-٩-١٠-٢١-٣٣).

٢. استخراج الكبائر المتفق عليها بين كل هذه الروايات وغيرها.

٣. محاولة الجمع والتوفيق بين مجاميع الروايات.

عدد الكبائر حسب الروايات:

١- الكبائر الخمسة:

١-١- مرسل ابن أبي عمير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: "وجدنا في كتاب علي عليه السلام: الكبائر خمسة: الشرك، وعقوق الوالدين، وأكل الربا بعد البيعة، والفرار من الزحف، والتعرب بعد الهجرة"^(١).

١-٢- وخبر عبيد بن زرارة، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام أخبرني عن الكبائر، فقال: هن خمس، وهي مما أوجب الله عليهن النار قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ إلى آخر الآية.

وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ إلى آخر الآية.

ورمى المحصنات الغافلات المؤمنات وقتل مؤمن متعمداً على دينه ^(١).

الكبائر المشتركة بين الروايتين: هما الفرار من الزحف، الربا.

أما الاختلاف ففي ثلاثة، ففي رواية ابن أبي عمير: الشرك - عقوق الوالدين - التعرب بعد الهجرة.

أما رواية عبيد بن زرارة فهي: أكل مال اليتامى - رمي المحصنات - قتل المؤمن متعمداً.

٢- الكبائر السبع:

وقد استفاض حصر عدد الكبائر في سبع، والروايات الدالة على أنها سبع: منها: رواية ابن محبوب، ومنها: رواية عبيد بن زرارة. ومنها: رواية أبي بصير، ومنها: رواية محمد بن مسلم، ومنها: رواية أحمد بن عمر الحلبي، ومنها: رواية عبد الرحمن بن كثير، ونعرضها على الشكل الآتي:

١-٢- رواية ابن محبوب:

عن ابن محبوب قال: " كتب معي بعض أصحابنا إلى أبي الحسن عليه السلام يسأله عن الكبائر: كم هي؟ وما هي؟ فكتب عليه السلام: من اجتنب ما وعد الله عليه النار كفر عنه سيئاته إذا كان مؤمناً والسبع الموجهات:

١- قتل النفس الحرام.

٢- وعقوق الوالدين.

٣- وأكل الربا.

٤- والتعرب بعد الهجرة.

٥- وقذف المحصنات.

٦- وأكل مال اليتيم.

٧- والفرار من الزحف^(١).

وقد ذكر الإمام في هذه الرواية بالنسبة إلى الكبائر خمسة أمور:

- تعريفها: ما وعد الله عليه النار.
- بعض خواصها: بأنها مكفرة لما دونها من السيئات (الصغائر).
- شرائط التكفير: إذا كان الشخص المرتكب لها مؤمناً ولم يرتكبها جرأة على الله.
- عددها: سبع.
- وصفها: أنها من موجبات دخول النار.

ومعنى قوله ﷺ: "الكبائر" يعني هذا بيان الكبائر المسؤول عنه المذكور في الآية ، بقرينة قوله ﷺ: "كفر عنه سيئاته" ، وقوله ﷺ: "والسبع الموجبات" يحتمل أن يكون من قبيل عطف الخاص على العام، للاهتمام بشأته، كما هو هكذا في بعض الأخبار الآخر. ويحتمل أن يكون مبتدأ ، وخبره "قتل النفس.. إلخ" ، فيكون هذا مبيناً لموجبات الكبائر، ولكن الكبائر كلها موجبات بمقتضى بعض الروايات، فتأمل. وكلمة "الموجبات" يحتمل فتح الجيم وكسره .

٢-٢- رواية عبيد بن زرارة:

وعن علي بن إبراهيم ، عن أبيه ، عن ابن أبي عمير ، عن عبد الرحمن بن الحجاج ، عن عبيد بن زرارة قال : سألت أبا عبد الله ﷺ عن الكبائر ؟ فقال : هن في كتاب علي ﷺ سبع :

١. الكفر بالله.

٢. وقتل النفس .

٣. وعقوق الوالدين .

٤. وأكل الربا بعد البينة .

٥. وأكل مال اليتيم ظلماً.

٦. والفرار من الزحف .

٧. والتعرب بعد الهجرة .

قال: فقلت: هذا أكبر المعاصي ؟ فقال: نعم ، قلت : فأكل الدرهم من مال اليتيم ظلماً أكبر أم ترك الصلاة ؟ قال : ترك الصلاة، قلت : فما عدت ترك الصلاة في الكبائر. قال : أي شيء أول ما قلت لك ؟ قلت: الكفر ، قال : فإن تارك الصلاة كافر - يعني من غير علة - ^(١) .

٣-٢- رواية أبي بصير

وعن الحسين بن محمد، عن معلى بن محمد، عن الوشاء، عن أبان، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: الكبائر سبعة .

١. منها قتل النفس متعمداً.

٢. والشرك بالله العظيم.

٣. وقذف المحصنة.

٤. وأكل الربا بعد البينة.

٥. والفرار من الزحف.

٦. والتعرب بعد الهجرة.

٧. وعقوق الوالدين.

٨. وأكل مال اليتيم ظلماً.

قال : والتعرب والشرك واحد ^(٢) .

في الرواية ذكر الراوي أن الكبائر سبعة، ومع ذلك عددها ثمانية، ولكنه قال في ذيلها إنَّ التعرب والشرك واحد؛ لأن مرجع التعرب إلى الحالة التي كانت عليها قبل

١- (م.ن)، ح ٤، ص ٣٢١-٣٢٢.

٢- (م.ن)، ح ١٦، ص ٣٢٤-٣٢٥.

الهجرة إلى دار الإسلام لغرض الإسلام والإيمان فمرجعه إلى أن الرجوع والارتداد عن الإسلام بعد الهجرة من الكفر والشرك إليه، وعليه يمكن القول بأن الروايات التي ذكرت الشرك كأنها ذكرت التعرب بعد الهجرة والعكس صحيح وذلك للملازمة بينهما كما بينت الرواية.

٤-٢- رواية محمد بن مسلم:

وفي الصحيح - على الظاهر - عن ابن مسكان، عن محمد بن مسلم، عن الصادق عليه السلام قال: سمعته يقول: الكبائر سبع:

١. قتل المؤمن متعمداً.
٢. وقذف المحصنة.
٣. والفرار من الزحف.
٤. والتعرب بعد الهجرة.
٥. وأكل مال اليتيم ظلماً.
٦. وأكل الربا بعد البينة.
٧. وكلمة أو جب الله عليه النار.

وفي روايات أخرى تحدّثت عن السبع وذكرت منها: الكفر بالله^(١).

أسقط محمد بن مسلم عقوق الوالدين من تعداد الكبائر، وعد السابعة كل ما أوجب الله عليها النار، ولعله سهو من الراوي؛ لأن الكلام في تعديد الكبائر وذكر أفرادها، لا في تعريف الكبائر والضابط لها، فمن المحتمل سهو الراوي عن ذكر عقوق الوالدين فذكر موضعه هذه السابعة.

٥-٢- رواية أحمد بن عمر الحلبي

عن سعد، عن موسى بن جعفر بن وهب البغدادي، عن الحسن بن علي الوشاء، عن أحمد بن عمر الحلبي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿إِنْ تَجَتَّبُوا

كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكْفَرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ»^(١) قال : من اجتنب ما أوعده الله عليه النار إذا كان مؤمناً كفر عنه سيئاته وأدخله مدخلاً كريماً، والكبائر السبع الموجبات :

١. قتل النفس الحرام . ٢. وعقوق الوالدين . ٣. وأكل الربا . ٤. والتعرب بعد الهجرة . ٥. وقذف المحصنة . ٦. وأكل مال اليتيم . ٧. والفرار من الزحف^(٢) .
- ٦-٢- رواية عبد الرحمن بن كثير.

محمد بن علي بن الحسين بإسناده عن علي بن حسان ، عن عبد الرحمن بن كثير ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إِنَّ الْكَبَائِرَ سَبْعَ فِينَا أَنْزَلَتْ ، وَمَنَا اسْتَحَلَّتْ :

١. فأولها الشرك بالله العظيم . ٢. وقتل النفس التي حرم الله . ٣. وأكل مال اليتيم . ٤. وعقوق الوالدين . ٥. وقذف المحصنة . ٦. والفرار من الزحف . ٧. وإنكار حقنا^(٣) .

الراوي أسقط التعرب بعد الهجرة ، وأكل الربا بعد البينة ، وذكر موضع السابعة إنكار حقنا ، وقد بينت رواية أبي بصير الملازمة بين الشرك والتعرب، فالتعرب مذكور ضمناً بمقتضى الملازمة وعبارة «إنكار حقنا» قد تشمل الحقوق المالية ويكون من أحد أفرادها أكل الربا بمعنى أنه من دون أداء الحقوق لهم عليه فأكل المال هو أكل بالباطل ومن أبرز مصاديقه من ناحية الأثر هو الربا.

٧-٢- رواية أبي الصامت

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أكبر الكبائر سبع :

١. الشرك بالله العظيم . ٢. وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق . ٣. وأكل أموال اليتامى . ٤. وعقوق الوالدين . ٥. وقذف المحصنات . ٦. والفرار من الزحف . ٧. وإنكار ما أنزل الله عز وجل^(٤) .

١- سورة النساء، الآية ٣١.

٢- وسائل الشيعة (آل البيت عليه السلام)، ح ٣٢، ص ٣٢٩.

٣- (م.ن)، ح ٢٢، ص ٣٢٦.

٤- (م.ن)، ح ٢٠، ص ٣٢٥-٣٢٦.

الراوي ذكر أن أكبر الكبائر سبع، وأسقط التعرب وأكل الربا بعد البينة، وذكر موضع السابعة إنكار ما أنزل الله وقد عرفت أن إسقاط التعرب بعد ذكر الشرك لا بأس به، وأما إسقاط الربا فلعل وزانه ومرتبته وزان إنكار حقهم أو إنكار ما أنزل الله وفي مرتبته .

٣- الكبائر الثمانية:

لم ينص على عدد إلا أنه عند ذكر الكبائر عد ثمانية:

رواية محمد بن مسلم، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

قلت له: ما لنا نشهد على من خالفنا بالكفر، وما لنا لا نشهد لأنفسنا ولأصحابنا أنهم في الجنة؟ فقال: من ضعفكم، إن لم يكن فيكم شيء من الكبائر فاشهدوا أنكم في الجنة. قلت: فأي شيء الكبائر؟ فقال:

١. الشرك بالله . ٢. وعقوق الوالدين . ٣. والتعرب بعد الهجرة . ٤. وقذف المحصنة . ٥. والفرار من الزحف . ٦. وأكل مال اليتيم ظلماً . ٧. والربا بعد البينة . ٨. وقتل المؤمن .

فقلت له: الزنا والسرقة فقال: ليسا من ذلك ^(١) .

عد أكبر الكبائر ثمانية من غير تعرض لكونها ثمانية، وحيث إنه عد فيها التعرب والشرك أمرين وقد عرفت أنهما واحد فلا اختلاف بينها وبين الروايات الدالة على أنها سبعة .

٤- الكبائر التسع:

محمد بن علي الكراجكي

في (كنز الفوائد) قال: قال عليه السلام: الكبائر تسع أعظمهن :

١. الإشراف بالله عز وجل . ٢. وقتل النفس المؤمنة . ٣. وأكل الربا . ٤. وأكل مال اليتيم . ٥. وقذف المحصنات . ٦. والفرار من الزحف . ٧. وعقوق الوالدين . ٨. واستحلال البيت الحرام . ٩. والسحر .

فمن لقي الله عز وجل وهو بريء منهن كان معي في جنة مصاريحها الذهب^(١).

وفي بعض الروايات الكبائر هي:

١- الشرك بالله تعالى. ٢- قتل النفس التي حرم الله. ٣- قذف المحصنة. ٤- الزنا.

٥- الفرار من الزحف. ٦- عقوق الوالدين المسلمين. ٧- أكل مال اليتيم.

وقيل: إنها تسع بزيادة:

٨- السحر. ٩- والإلحاد في بيت الله أي الظلم فيه.

وبعض الروايات زادت:

١٠- أكل الربا.

وعن الإمام علي عليه السلام زيادة على ذلك كله شرب الخمر، والسرقة^(٢).

٥- الكبائر عشرة:

رواية مسعدة بن صدقة

أنهاها إلى عشرة وإن لم ينص على عدد.

خبر مسعدة بن صدقة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول الكبائر:

١. القنوط من رحمة الله. ٢. واليأس من روح الله. ٣. والأمن من مكر الله.

٤. وقتل النفس التي حرم الله. ٥. وعقوق الوالدين. ٦. وأكل مال اليتيم ظلماً.

٧. وأكل الربا بعد البينة. ٨. والتعرب بعد الهجرة. ٩. وقذف المحصنة. ١٠. والفرار

بعد الزحف^(٣).

عدها عشرة من غير تعرض لكونها عشرة وأضاف إلى السبع المذكور في الروايات

القنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله والأمن من مكر الله، والظاهر أن الأولين

واحد.

١- وسائل الشريعة (آل البيت عليه السلام)، ح ٣٧، ص ٣٣١-٣٣٢. ورواه الطبرسي في (مجمع البيان) مرسلًا إلا أنه قال

: سبع وترك الأخيرتين.

٢- راجع: المحقق السبزواري، كفاية الأحكام، ج ١، ما يشترط في إمام الجماعة وبيان معنى العدالة، ص ١٣٨.

٣- وسائل الشريعة (آل البيت عليه السلام)، ح ١٣، ص ٣٢٤.

٦-ما دل على أنها أكثر من عشرة:

العمدة من الروايات الدالة على عدد الكبائر وأنها أزيد من التسع ثلاث روايات :

١. رواية عبد العظيم الحسني الدالة على أنها عشرون أو إحدى وعشرون كما سيأتي.

٢. رواية الفضل بن شاذان عن الرضا عليه السلام الدالة على أنها ثلاث وثلاثون .

٣. رواية الأعمش عن الإمام جعفر بن محمد عليهما السلام في حديث شرائع الدين الدالة على أنها ثلاث وثلاثون .

٦-١- الكبائر واحد وعشرون:

رواية عبد العظيم الحسني

روي عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني، قال: حدثني أبو جعفر عليه السلام قال: سمعت أبي يقول: دخل عمرو بن عبيد على أبي عبد الله عليه السلام فلما سلم وجلس تلا هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَحْتَبُونَ كِبَائرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾ ^(١) ثم أمسك فقال أبو عبد الله عليه السلام: ما أسكتك؟ قال: أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله تعالى، فقال: هم يا عمرو أكبر الكبائر:

١- الإشراف بالله، يقول الله: ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ ^{(٢) (٣)}.

٢- وبعده الإياس من روح الله، لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تَيْسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ ^(٤).

١- سورة الشورى، الآية ٣٧.

٢- سورة المائدة، الآية ٧٢.

٣- يدخل في مفهوم الشرك عبادة الأوثان ، والملاحدة، وعبدة النار، والمجسمة من الفرق الضالة ، والغلاة وأمثالهم.

٤- سورة يوسف، الآية ٨٧.

٣- ثم الأمن لمكر الله، لأن الله عز وجل يقول: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(١).

٤- ومنها عقوق الوالدين لأن الله سبحانه جعل العاق جباراً شقيماً.

٥- وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾^(٢) (٣).

٦- وقذف المحصنة: لأن الله عز وجل يقول: ﴿...لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ...﴾^(٤).

٧- وأكل مال اليتيم: لأن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعيراً﴾^(٥).

٨- والفرار من الزحف: لأن الله يقول: ﴿وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(٦).

٩- وأكل الربا: لأن الله عز وجل يقول: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ...﴾^(٧) (٨).

١- سورة الأعراف، الآية ٩٩.

٢- سورة النساء، الآية ٩٣.

٣- قتل المؤمن لأجل دينه وإيمانه يوجب الكفر والخروج عن الإسلام فيستحق مرتكبه الخلود في النار وسيأتي توضيح ذلك.

٤- سورة النور، الآية ٢٣.

٥- سورة النساء، الآية ١٠.

٦- سورة الأنفال، الآية ١٦.

٧- المس هو الجنون، والخبط حركة على غير النحو الطبيعي ومن غير اتساق وقيل لا يقومون من قبورهم بسبب الربا ووزره وثقله عليهم قياماً مثل قيام صحيح العقل بل مثل قيام المجانين فيسقطون تارة ويمشون على غير استقامة تارة ولا يقدرّون على القيام أخرى.

٨- سورة البقرة، الآية ٢٧٥.

- ١٠- والسحر، لأن الله عز وجل: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبَسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(١).
- ١١- والزنا لأن الله عز وجل يقول: ﴿...وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا﴾^{(٢)(٣)}.
- ١٢- واليمين الغموس الفاجرة: لأن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾^{(٤)(٥)}.
- ١٣- والغلول: لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾^{(٦)(٧)}.
- ١٤- ومنع الزكاة المفروضة، لأن الله عز وجل يقول: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُثُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾^(٨).
- ١٥- وشهادة الزور^(٩).
- ١٦- وكتمان الشهادة لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمٌ قَلْبًا﴾^(١٠).

١- سورة البقرة، الآية ١٠٢.

٢- لا يبعد إلحاق اللواط والسحاق وإن الزنا من باب المثال على كباثر الفرج.

٣- سورة الفرقان، الآيتان: ٦٨-٦٩.

٤- اليمين الغموس تعني اليمين الكاذبة على ما مضى وليس فيها كفارة لشدة الذنب فيها فكأنه مغموس في الذنب لحلقه كاذباً على علم منه.

٥- سورة آل عمران، الآية ٧٧.

٦- الغلول لغة يعني الخيانة هي في الأصل الخيانة في المغنم (غنائم الحرب) والسرقة منها قبل القسمة ولا يبعد إلحاق الغصب والسرقة في مفهوم الغلول.

٧- سورة آل عمران، الآية ١٦١.

٨- سورة التوبة، الآية ٣٥.

٩- الشهادة بغير علم سواء طابقت الواقع أم لا.

١٠- سورة البقرة، الآية ٢٨٣.

- ١٧- وشرب الخمر لأن الله عز وجل نهى عنها كما نهى عن عبادة الأوثان.
- ١٨- ١٩- وترك الصلاة متعمداً أو شيئاً مما فرض الله، لأن رسول الله ﷺ قال: من ترك الصلاة متعمداً فقد برئ من ذمة الله وذمة رسول الله ﷺ.
- ٢٠- ونقض العهد.
- ٢١- وقطيعة الرحم: لأن الله عز وجل قال: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾^(١) قال: فخرج عمرو وله صراخ من بكائه وهو يقول: هلك من قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم^(٢).

٦-٢- الكبائر ثلاث وثلاثون:

رواية الفضل بن شاذان:

عن الفضل بن شاذان ، عن الرضا عليه السلام في كتابه إلى المأمون، قال: الإيمان هو أداء الأمانة، واجتناب جميع الكبائر، وهو معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان - إلى أن قال: - واجتناب الكبائر وهي:

١. قتل النفس التي حرم الله تعالى . ٢. والزنا . ٣. والسرقة . ٤. وشرب الخمر .
٥. وعقوق الوالدين . ٦. والفرار من الزحف . ٧. وأكل مال اليتيم ظلماً . ٨. وأكل الميتة . ٩. والدم . ١٠. ولحم الخنزير . ١١. وما أهل لغير الله به من غير ضرورة .
١٢. وأكل الربا بعد البينة . ١٣. والسحت . ١٤. والميسر وهو القمار . ١٥. والبخس في المكيال والميزان . ١٦. وقذف المحصنات . ١٧. واللواط . ١٨. والياس من روح الله . ١٩. والأمن من مكر الله . ٢٠. والقنوط من رحمة الله . ٢١. ومعونة الظالمين .
٢٢. والركون إليهم . ٢٣. واليمين الغموس . ٢٤. وحبس الحقوق من غير عسر .
٢٥. والكذب . ٢٦. والكبر . ٢٧. والإسراف . ٢٨. والتبذير . ٢٩. والخيانة.

١ سورة الرعد، الآية ٢٥.

٢ وسائل الشيعة (آل البيت)، ج ٢، ص ٣١٨-٣١٩-٣٢٠.

٣٠ - والاستخفاف بالحج . ٣١ - والمحاربة لأولياء الله . ٣٢ - والاشتغال بالملاهي .
٣٣ - والإصرار على الذنوب ^(١) .

٦-٣- الكبائر ثلاث وثلاثون

رواية الأعمش:

وبإسناده عن الأعمش ، عن جعفر بن محمد عليه السلام - في حديث شرايع الدين - قال:
والكبائر محرمة ، وهي:

١. الشرك بالله . ٢. وقتل النفس التي حرم الله . ٣. وعقوق الوالدين . ٤. والفرار من الزحف . ٥. وأكل مال اليتيم ظلماً . ٦. وأكل الربا بعد البينة . ٧. وقذف المحصنات . ٨. وبعد ذلك الزنا . ٩. واللواط . ١٠. والسرقه . ١١. وأكل الميتة . ١٢. والدم . ١٣. ولحم الخنزير . ١٤. وما أهل لغير الله به من غير ضرورة . ١٥. وأكل السحت . ١٦. والبخس في الميزان والمكيال . ١٧. والميسر . ١٨. وشهادة الزور . ١٩. واليأس من روح الله . ٢٠. والامن من مكر الله . ٢١. والقنوط من رحمة الله . ٢٢. وترك معاونة المظلومين ، والركون إلى الظالمين . ٢٣. واليمين الغموس . ٢٤. وحبس الحقوق من غير عسر . ٢٥. واستعمال التكبر، والتجبر . ٢٦. والكذب . ٢٧. والإسراف . ٢٨. والتبذير . ٢٩. والخيانة . ٣٠. والاستخفاف بالحج . ٣١. والمحاربة لأولياء الله . ٣٢. والملاهي التي تصد عن ذكر الله عز وجل مكروهة كالغناء وضرب الأوتار . ٣٣. والإصرار على صفائر الذنوب ^(٢) .
- والكراهة المعطوفة على الملاهي إما محمولة على التحريم وهو الأوجه أو محمولة على التقية.

يقول الإمام الخميني قدس سره في تحقيق معنى الملهي: "إنّ المراد بالملهي عن ذكر الله ليس الغفلة عن التوجه إليه تعالى بالضرورة ، فلا يبعد أن يكون المراد به ما يوجب

١ - وسائل الشيعة (آل البيت عليهم السلام)، ح ٣٣، ص ٣٢٩-٣٣٠.

٢ - وسائل الشيعة (آل البيت عليهم السلام)، ح ٣٦، ص ٣٣١.

الغفلة عنه تعالى بحيث لا يبالي بالدخول في المعاصي كما هو شأن المقامرات واستعمال الملاهي، أو كان المراد غفلة خاصة تحتاج إلى البيان من قبل الله تعالى.

وبهذا يظهر الكلام في رواية الأعمش عن جعفر بن محمد عليه السلام في حديث شرايع الدين حيث عد فيها من جملة الكبائر الملاهي وقال : والملاهي التي تصد عن ذكر الله عز وجل مكروهة كالغناء وضرب الأوتار ، وقوله : مكروهة يراد بها التحريم أو تكون بالنصب ، ويكون المراد أنها تصد عن ذكر الله كرهاً واستلزاماً بلا إرادة من الفاعل (تأمل) وذلك لأن التمثيل بالغناء وضرب الأوتار لإفادة سنخ ما يكون صادراً عن ذكر الله تعالى . فإن ضرب الأوتار والغناء ونحوه توجب في النفس حالة غفلة عن الله تعالى وأحكامه ، ويكون الاشتغال بها موجباً للوقوع في المعاصي كما ورد في الغناء ، أنه رقية الزنا، وفي البربط من ضرب في بيته أربعين صباحاً سلط الله عليه شيطاناً إلى أن قال: نزع منه الحياء ولم يبال ما قال ولا ما قيل فيه وفي رواية: فلا يغار بعدها حتى تؤتى نسائه فلا يغار وقال الله تعالى : إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فلا دلالة فيها على حرمة مطلق اللهو^(١) .

النتيجة: بعد ملاحظة الروايات المتقدمة سواء التي دلت على أنّ الكبائر خمسة ، أو سبعة ، أو ثمانية ، أو تسعة ، أو عشرة ، أو واحد وعشرون ، أو ثلاث وثلاثون نستخلص النتائج التالية:

الكبائر المتفق عليها صريحاً بين الروايات:

١. الفرار من الزحف: (في كل الروايات).

٢. قتل المؤمن: (ما عدا رواية ابن أبي عمير).
٣. أكل مال اليتيم: (ما عدا رواية ابن أبي عمير).
٤. أكل الربا: (ما عدا رواية عبيد الله بن كثير، ورواية أبي الصامت).
٥. قذف المحصنة: (ما عدا رواية ابن أبي عمير، ورواية عبيد الله بن زرارة التي ذكرت سبع كبائر).
٦. عقوق الوالدين: (ما عدا رواية عبيد الله بن زرارة التي ذكرت خمس كبائر، ورواية محمد بن مسلم التي ذكرت سبع كبائر).
٧. التعرب بعد الهجرة: (ما عدا رواية عبيد الله بن زرارة التي ذكرت خمس كبائر، ورواية عبد الرحمن بن كثير، ورواية أبي الصامت، ورواية الكراجكي، ورواية عبد العظيم الحسني، الفضل بن شاذان، والأعمش).
٨. الشرك بالله: (ما عدا رواية عبيد الله بن زرارة التي ذكرت خمس كبائر، ورواية عبيد الله بن زرارة التي ذكرت سبع كبائر، ورواية محمد بن مسلم التي ذكرت سبع كبائر، ورواية الحلبي التي ذكرت سبع كبائر، ورواية مسعدة بن صدقة التي ذكرت عشر كبائر، ورواية الفضل بن شاذان).
- الكبائر التي انفردت فيها الروايات عن بعضها:
- الكفر: (رواية عبيد الله بن زرارة التي ذكرت سبع كبائر).
- كلما أوجب الله عليه النار: (رواية محمد بن مسلم التي ذكرت سبع كبائر).
- إنكار حقنا: (رواية عبد الرحمن بن كثير).
- إنكار ما أنزل الله: (رواية أبي الصامت).
- استحلال بيت الله الحرام: (رواية الكراجكي).

الغلول، منع الزكاة، شهادة الزور، كتمان الشهادة، شرب الخمر، ترك الصلاة متعمداً، أو ما افترض الله، نقض العهد، قطيعة الرحم: (رواية عبد العظيم الحسني).

الكبائر المذكورة ملازمة أو ضمناً أو ما أسقط من الراوي سهواً فإذا تمت الملاحظات الآتية تصبح النتيجة مختلفة:

١. التعرب بعد الهجرة: إذا اعتبرنا الشرك والتعرب واحد كما هو نص رواية أبي بصير فيصبح التعرب مذكوراً في كل الروايات ما عدا رواية عبيد الله بن زرارة التي ذكرت خمسة كبائر مع أن الرواية الأخرى المذكورة عن نفس الراوي والذي عدد فيها سبع كبائر ذكر فيها التعرب بعد الهجرة.

٢. العقوق: إذا صح احتمال أن يكون محمد بن مسلم أسقط سهواً العقوق وذكر في موضعه وهو خارج سياق الرواية كلما أوجب الله عليه النار فيكون العقوق مذكوراً في كل الروايات ما عدا رواية عبيد الله بن زرارة الذي ذكر فيها خمس كبائر مع أن نفس الراوي في رواية السبع ذكر عقوق الوالدين بعد الكفر وقتل النفس. فيحتمل أن التعرب بعد الهجرة والعقوق مذكور في كل الروايات المتقدمة ووزانه وزان الفرار من الزحف.

٣. أكل الربا: إذا اعتبرنا أن الربا وزانه ومرتبته وزان إنكار حقهم أو إنكار ما أنزل الله وفي مرتبته، فيكون مذكوراً بالعنوان الأعم في الروايات بل هو من أبرز مصاديقه. الكبائر المتفق عليها بين الروايات:

إنه من خلال مراجعة ما ذكره في العلامة العاملي في مفتاح الكرامة من عدد الكبائر في القرآن الكريم، وبالإضافة إلى الروايات المتقدمة، مع ما ذكره بعض الفقهاء في رسائلهم العملية من قبيل منهاج الصالحين للسيد الخوئي، وتحرير الوسيلة

للإمام الخميني، وغيرهما من الرسائل وذلك بعد إسقاط المكررات تكون الكبائر لا على نحو الحصر هي:

- ١- الشرك بالله تعالى. ٢- عقوق الوالدين. ٣- أكل الربا بعد البينة. ٤- الفرار من الزحف. ٥- التعرب بعد الهجرة. ٦- أكل أموال التامى. ٧- رمي المحصنات الغافلات (قذف المحصنة). ٨- الزنا. ٩- قتل المؤمن متعمداً أو قتل النفس التي حرم الله تعالى.
- ١٠- الكفر بالله تعالى. ١١- كل ما أوجب الله عليه النار. ١٢- إنكار ما أنزل الله تعالى.
- ١٣- استحلال البيت الحرام. ١٤- السحر. ١٥- الإلحاد في بيت الله الحرام أي الظلم فيه. ١٦- شرب الخمر. ١٧- السرقة. ١٨- القنوط من رحمة الله تعالى. ١٩- اليأس من روح الله. ٢٠- الأمن من مكر الله. ٢١- اليمين الغموس. ٢٢- الغلول. ٢٣- منع الزكاة المفروضة. ٢٤- كتمان الشهادة. ٢٥- ترك الصلاة. ٢٦- ترك شيء مما فرض الله.
- ٢٧- نقض العهد. ٢٨- قطيعة الرحم. ٢٩- أكل الميتة. ٣٠- أكل الدم. ٣١- أكل لحم الخنزير. ٣٢- ما أهل لغير الله به من غير ضرورة. ٣٣- أكل السحت. ٣٤- الميسر.
- ٣٥- البخس في المكيال والميزان. ٣٦- معونة الظالمين والركون إليهم. ٣٧- حبس الحقوق من غير عسر. ٣٨- الكذب. ٣٩- الكبر أو استعمال الكبر والتجبر.
- ٤٠- الإسراف. ٤١- التبذير. ٤٢- الخيانة. ٤٣- الاستخفاف بالحج. ٤٤- المحاربة لأولياء الله. ٤٥- الاشتغال بالملاهي. ٤٦- الإصرار على الذنوب. ٤٧- الإضلال عن سبيل الله. ٤٨- التخلف عن الجهاد. ٤٩- كتمان ما أنزل الله. ٥٠- الإعراض عن ذكر الله. ٥١- المنع من المساجد. ٥٢- إيذاء الرسول. ٥٣- الاستهزاء بالمؤمنين.
- ٥٤- المحاربة. ٥٥- الغناء. ٥٦- إشاعة الفحشاء. ٥٧- ترك الحج. ٥٨- الفتنة. ٥٩- شهادة الزور. ٦٠- البهتان. ٦١- الغش. ٦٢- استحقار الذنب. ٦٣- الرياء.
- ٦٤- الحيف في الوصية. ٦٥- سب المؤمن وإهنته وإذلاله. ٦٦- النشوز. ٦٧- أذى الجار. ٦٨- اللعان. ٦٩- الجدل والمراء. ٧٠- الرشوة على الحكم ولو بالحق.

رابعاً: نتائج البحث حول الكبائر والجمع بين الروايات:

بعد عرض الروايات والآراء المتقدمة حول عدد الكبائر نسجل النتائج الآتية:

١- إن أغلب الروايات التي ذكرت أعداد كالخمس والسبع ونحوهما من باب المثال لا حصر الكبائر، إن لم نقل إن الروايات كلها ليست في مورد حصر الكبائر في عدد معين فلا يصح حملها على الحصر والشاهد على ذلك عدة أمور منها:

أ. الروايات التي قالت إن الكبائر سبع بعضها ذكر عقوق الوالدين وبعضها الآخر لم يذكر العقوق مع أنه من الكبائر القطعية وبعضها ذكر الكفر بالله وبعضها لم يذكره.
ب. إن الروايات التي عدت الكبائر واعتبرتها إما سبع وإما تسع، وإما عشر، وإما اثنا عشر، وإما إحدى وعشرون كما نقلنا، فعند مراجعة مضامينها، نجدها قد خلت من بعض الكبائر المجمع عليها بين المسلمين من قبيل: الغيبة - النميمية - الفتنة - هتك المقدسات (كالكعبة - والقرآن) أو سب النبي ﷺ، وغير ذلك.

وقد بين ذلك صاحب الحقائق في تعليقه على رواية عبد العظيم الحسيني المتقدمة، فقال: "وهذه الرواية قد اشتملت من عدد الكبائر على إحدى وعشرين والكلام فيها ينبغي أن يكون على نحو ما قدمناه من أن الكبائر كثيرة وإشار هذه الأعداد بالذكر لكونها أكبر من البواقي أو يحمل على أن وقوعها أكثر فوقع الاهتمام بذكرها ليحترزوا عنها وإن تفاوتت هذه الأعداد أيضاً في ذلك بالشدة والضعف، مع أن في أكثرها إشارة إجمالية إلى غيرها لا اشتراكها في العلة وهي الوعيد، ومن ما يعضده ما نقله جملة من أصحابنا عن ابن عباس أن الكبيرة ما نهى الله سبحانه عنه قيل: هي سبع قال: هي إلى السبعين أقرب. وفي رواية: إلى السبعمائة"^(١).

٢- إن بعض الروايات جعلت للكبائر عناوين عامة وكلية تصلح لأن يندرج تحتها عشرات الكبائر من المنصوص عليها أو من غير المنصوص مما علم استقبحه شرعاً وعقلاً، مثلاً ورد في الروايات العناوين الآتية:

○ كل ما أوجب الله عليه النار.

○ من اجتنب ما وعد الله عليه النار.

○ ترك شيء مما فرض الله تعالى.

○ الإصرار على الصغائر.

○ الذنوب كلها شديدة .

٣- إن جميع الذنوب والمعاصي المذكورة في هذه الأخبار كبيرة ويستحق فاعلها العذاب أو النار ، ويوجب فسق فاعلها وسلب العدالة عن مرتكبها ، وإن كان بعضها أكبر من بعض ، ويكون بعضها أكبر الكبائر ، كما تصريح الإمام في رواية أبي الصامت، ولذا نرى في رواية محمد بن مسلم التي عرضت ثمانى كبائر وبعد ذلك سأله الراوي "فقلت له : الزنا والسرقه فقال : ليسا من ذلك" مع أنّ الزنا والسرقه من المعاصي الكبيرة قطعاً، ولكن الإمام قد نفى الكبرية عنهما في بعض الأخبار.

وفي الحقيقة نفى الأكبرية عنهما لأنه عليه السلام بصدّد ذكر أكبر الكبائر.

إذن، نفس الكبائر فيها تفاضل فيما بينها فبعضها أكبر أو أشد من بعض آخر، فالمعاصي الكبيرة ذوات الدرجات لها عرض عريض وقد تعرضت الروايات لبعضها التي تكون أكبر الكبائر.

" قال السائل سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الكبائر فقال هنّ في كتاب علي عليه السلام سبع...: إلى أن قال: قال: (السائل) فقلت: فهذا أكبر المعاصي؟ قال: نعم، قلت: يأكل درهم من مال اليتيم ظلماً أكبر أم ترك الصلاة، قلت فما عددت ترك الصلاة من الكبائر؟ فقال: أي شيء أول ما قلت لك: قال قلت الكفر، قال: فإنّ تارك الصلاة كافر (يعني من غير علة)" ^(١).

يستفاد من كلام السائل:

١. أنّ الإمام يتحدّث عن (أكبر المعاصي) وهذا يعني عدم الحصر.

٢. أن عنوان الكفر شامل لعناوين أخرى (كتارك الصلاة و...).

٣- مقسم الأقسام الصغيرة والكبيرة.

قد يقال "إن الظاهر كون المقسم للكبيرة والصغيرة هي المعاصي الوجودية التي تتحقق بالوجودات الصادرة من المكلف، وعليه فيسقط من جملة ما عدّه من الكبائر مثل ترك الصلاة، ومنع الزكاة، والتخلف عن الجهاد وكتمان ما أنزل الله ونقض العهد واليمين، وقطع الرحم، وعدم الحكم بما أنزل الله وترك الحج، لأنها كلها معاصي عدمية .

أمّا مثل ترك الصلاة ومنع الزكاة فواضح، وأمّا كتمان ما أنزل الله، فالآية الواردة فيه ظاهرة في أنّ الواجب هو التبيين والكتمان تركه، وهكذا نقض العهد واليمين، وكذا قطع الرحم والحكم بغير ما أنزل الله، كما يظهر من آيةيهما، وأيضاً الظاهر أنّ المراد بالمعاصي الكبيرة هي المعاصي التي يمكن أن تقع من المسلم غير الكافر. وعليه، فيسقط من جملة ما ذكره مثل الكفر بالله العظيم والإضلال عن سبيل الله، ولذا لم يعدّ في جملة الكبائر في بعض الروايات الدالّة على أنّ الكبائر خمس، حيث إنّ بعد ذلك عدّها ستاً، وهذا دليل على أنّه لا يكون مثل الشرك بالله معدوداً من الكبائر وأيضاً تدخل جملة ممّا عدّه من الكبائر في الظلم الذي عدّه منها، فتلك الجملة من أقسام الظلم لا أنّها قسيمة له، وذلك مثل قتل النفس، وأكل مال اليتيم، والمنع من مساجد الله، والاستهزاء بالمؤمنين، وإيذاء رسول الله صلى الله عليه وآله، وقذف المحصنات، والمحاربة، وقطع السبيل، وعليه فلا يبقى إلا مقدار قليل لا يتجاوز عن الاثني عشر كما لا يخفى^(١).

٤- إن للذنوب تقسيمات متنوعة أهمها تقسيمها إلى:

أ- ذنوب جوارحية باطنية: مثل: الكبر، والعجب، الرياء.

ب- ذنوب جوارحية ظاهرة: مثل: الفرار من الزحف، الزنا، السرقة، آفات اللسان.

٥- إن محل هذه الصفات المهلكة كلها القلب، وكل واحدة من هذه الصفات كافية في الهلاك، فينبغي الاجتهاد من قبل المؤمنين في دفعها وإزالتها من خلال الاستعانة بالله تعالى والتوسل بالأنبياء ﷺ والمعصومين ﷺ على إزالتها.

ففي المروي عن الإمام الصادق ﷺ: "ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة، إن القلب ليوافق الخطيئة فما تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله" (١).

وعليه لا يمكن تحديد عدد الكبائر وما ذكر في الروايات إشارة إلى كثرتها وتنوعها، فيحمل على أنه المصداق الأبرز والأكمل بالنسبة إلى الباقي أو أن ابتلاء الناس بها أكثر من غيرها فوقع الاهتمام بذكرها ليحترزوا عنها، أو أنها محمولة على اختلاف مراتبها.

يقول الشيخ الأنصاري "إن اختلاف الأخبار في عدد الكبائر محمول على اختلاف مراتبها، فحينئذ فكلما ثبت بنص معتبر كون شيء كبيراً فيؤخذ به ولا يعارضه ترك ذكرها في نص آخر، وإلا فإن كان بحسب العقل المستقل أقبح من إحدى الكبائر المنصوصة فهي أيضاً كبيرة؛ لأن الظاهر أن اتصاف الذنب بالكبيرة ليس إلا من جهة عظمته وشدة قبحه عند الله عز وجل، لا لأجل خصوصية مرتبة من القبح أو لخصوصية أخرى..." (٢).



١- أصول الكافي (م.س)، باب الذنوب، ج ٢، ح ١.

٢- الأنصاري، مرتضى، كتاب الصلاة، ج ٢، ص ٢٦٧.

﴿وَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ بحث في التفسير المقارن

□ محمد باقر كجك (*)

بسم الله الرحمن الرحيم
﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا
أُكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ
يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(١).

مقدمة

تعتبر فريضة الزكاة من الفرائض الأساس في الدين الإسلامى التى نزل فيها عددٌ من الآيات الشريفة تصل إلى ٥٩ آية، فضلاً عن ٧٢ آية ذكرت فيها إلى جانب الصلاة. وهى مع ذلك من فروع الدين والركن الخامس فى ديننا، وقد ورد ذكرها فى الروايات الشريفة فيما يربو على ألفى رواية، فضلاً عن قيام سيرة المسلمين أجمعين على تعظيمها، والإجماع على وجوبها ومكانتها فى التشريع الإسلامى ونظام المسلمين.

(*) باحث في التربية الإسلامية.

١- سورة الأنعام، الآية ١٤١.

وعلى ما هو المعروف فإن الزكاة تنقسم إلى نوعين: زكاة الأبدان وهى زكاة الفطرة فى عيد الفطر، وزكاة الأموال وهى الغلات **الأربع**، والمواشى، والركازين الذهب والفضة، وكلها تكون فى ظروف وشروط خاصة.

وفى هذا البحث المختصر، سنحاول الإضاءة على المحاولات التفسيرية التى قام بها جملة من علماء الفريقين، لاستفادة حكم الزكاة من خلال التركيز على آية واحدة فقط، وهى الآية السادسة والثلاثون من بعد المائة من سورة الأنعام، لنرى هل يمكن ضم هذه الآية الشريفة إلى مجموعة الآيات التى **صرّح** فيها بحكم الزكاة، وهل يمكن أن تعيننا على **إيضاح** حدود الزكاة؟ إلى غير ذلك من الأمور.

وعلى ذلك، فمن المهم منهجياً لفت النظر إلى عدة أمور:

- منهجية البحث هنا هى منهجية التفسير المقارن الذى يعمد إلى استنطاق آراء المفسرين من الفريقين فى رأيهم حول آية بعينها، مع ما يتطلبه ذلك من تصنيف وفرز وتحليل لأرائهم.

- لم نتكئ فى المقابل على كتب الفقه الاستدلالية، اللهم إلا فى الموارد التى ذكر فيها الفقيه رأياً تفسيرياً، وذلك لنبقى مع الآية بما هى، حتى نحقق استنطاق القرآن، بمعزل عن الآراء الأخرى خارج النص القرآنى.

- ليس هدفنا هنا الاستقلال بالقرآن الكريم عن السنة، وإنما نحاول أن نبين اختلافات المفسرين **للخروج** برأى تفسيري للنص القرآنى قبل الولوج إلى مرحلة الاحتكام إلى السنة الشريفة.

السياق العام للآيات الكريمة

سياق الآيات الكريمة قبل هذه الآية، وخصوصاً من الآية الكريمة (١٣٦/ الأنعام) هو سياق دحض بعض ادعاءات المشركين في تقسيمهم للنعم من الحرث والأنعام ما بين الله وبين شركائهم، وبيان ما لشركائهم من أسهم في نعم الله وتسليط على تحريم

الأرزاق على من يشاؤون وبذلها لمن يحبون، وذلك في أكثر من آية، كما في قوله تعالى:

- ﴿فَدَّ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾^(١).

- ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾^(٢).

- ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بَزَعْمَهُمْ﴾^(٣).

- ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾^(٤).

- ﴿فَدَّ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾^(٥).

والذي يبدو أنَّ هذه المجموعة من الآيات تلاحظ أحد أنواع الشرك، وهو الشرك في الربوبية من حيث الشكُّ برزاقية الله تعالى، فالآيات تدفع هذه الدواعي من خلال بيان ضعف حجج المشركين ووهنها. ومن ثم تشرع - الآية مورد البحث والتي تليها - ببيان بعض ما رزق الله الناس من أصناف النبات ومن ثم الحيوان، وعددت بعض منافعها. والذي يلفت النظر في هذه الآية، هو ورود جملة من قبيل "وآتوه حقه يوم حصاده" والتي يظهر لي أنَّ إيرادها هنا بعد تلكم الآيات يأتي في نفس سياق دحض دعاوى المشركين، ولكن مع تحديد وظيفة الناس فيما رزقهم الله به في قبال ما كان يحدده المشركون من مصارف ومخارج. وقد وقعت هذه الجملة الشريفة من الآية الكريمة موقع الأخذ والرد من عدة جهات.

١ - سورة الأنعام، الآية ١٣٦.

٢ - سورة الأنعام، الآية ١٣٧.

٣ - سورة الأنعام، الآية ١٣٨.

٤ - سورة الأنعام، الآية ١٣٩.

٥ - سورة الأنعام، الآية ١٤٠.

أولاً: شرح مفردات الآية الكريمة

١- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ﴾:

يقول الشيخ الطبرسي رحمته الله: "الإنشاء لغة: إحداث الفعل ابتداء، لا على مثال سبق، وهو كالاتداع" ^(١).

٢- جنّات:

وهي جمع جنّة، يقول العلامة المصطفوي: "الجنّات والبساتين، التي يجنّها الشجر من النخل وغيره. والجنّة: الحديقة ذات الشجرة، وقيل: ذات النخل، والجمع جنّات على لفظها وجنان أيضاً" ^(٢).

٣- معروشات:

يوضح الزمخشري معناها فيقول: "متروكات على وجه الأرض لم تعرش، وقيل: المعروشات ما في الأرياف وال عمران مما غرسه الناس واهتموا به فعرشوه، وغير معروشات مما أثبتته الله وحشياً في البراري والجبال فهو غير معروش، يقال: عرشت الكرم، إذا جعلت له دعائم وسمكاً تعطف عليه القبضان وسقف البيت عرشه" ^(٣).

٤- مختلفاً أكله:

قال الطبرسي في الجوامع: "في اللون والطعم والحجم والرائحة، وقرئ أكله بالضم والسكون وهو ثمره الذي يؤكل، والضمير للنخل والزرع داخل في حكمه لكونه معطوفاً عليه، ومختلفاً حال مقدرة لأنه لم يكن وقت الإنشاء كذلك" ^(٤).

١- الطبرسي، أمين الاسلام أبي علي الفضل بن الحسن: مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق لجنة من العلماء، تقديم السيد محسن الأمين، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩٥م، ط ١، ج ٤، ص ١٧٦.

٢- المصطفوي، حسن: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ١٤١٧هـ، ط ١، ج ٢، ص ١٢٢.

٣- الزمخشري، أبو القاسم جابر الله محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في جوه التنزيل، مطبعة مصطفى الباب الحلبي، مصر، ١٩٦٦م، ط ١، ج ٢، ص ٥٦.

٤- الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن: تفسير جوامع الجوامع، تحقيق ونشر: مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٨هـ، ط ١، ج ١، ص ٦٢٣.

٥- متشابهاً وغير متشابه:

نقل الفخر الرازي عدة احتمالات في معنى هذه، فمنها كونها على معنى التشابه في الشكل واللون. ومنها أن تكون متشابهة في الطعم والخاصية. ومنها أن تكون متشابهة الأوراق مختلفة الثمار، وغير ذلك، ومن ثم قال: "البحث الثالث: إنما قال مشتبهاً ولم يقل مشتبهين إما اكتفاء بوصف أحدهما، أو على تقدير: والزيتون مشتبهاً وغير متشابه والرمان كذلك كقوله: رماني بأمر كنت منه ووالدي * برياً ومن أجل الطوى رماني"^(١).

٦- كلوا من ثمره إذا أثمر:

المتبادر من لفظ الأكل هو المعنى المعهود من تناول الثمار للأكل والتغذية، ولكن جرى كلاماً في تفسير المراد من لفظ الأمر ههنا، هل هو على معنى الإباحة مطلقاً؟ أم الإباحة قبل إخراج الحق؟ وهل أن تقديم الأكل قبل الأمر بإخراج الحق فيه دلالة على نكتة تقديم حق النفس على حق الغير؟ إلى غير ذلك من المطالب، وسيأتي جملة بحث في جملة منها عما قليل^(٢).

٧- آتوا حقه:

قال في التاج: "[حقوق]: والحق: المال. والحق: الملك بكسر الميم"^(٣)، وهو المتبادر من الآية الشريفة في كون المراد من كلمة "حقه" هو إعطاء شيء من هذا المال. وسيأتي الكلام في دلالة لفظ الأمر على الوجوب أو لا.

٨- يوم حصاده:

الحَصْدُ: "ما أَحْصَدَ من النبات وجف؛ قال النابغة:

١- الرازي، محمد بن عمر: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ، ط ٣،

ج ١٣، ص ٢١١.

٢- م.ن.

٣- الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م، لا ط، ج ١٣،

ص ٨٠.

يَمُدُّهُ كُلُّ وَادٍ مُتَرَعٍ لَجَبٍ فِيهِ رُكَامٌ مِنَ الْيَنْبُوتِ وَالْحَصَدِ
وقوله عز وجل: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ يريد والله أعلم يوم حَصَدَهُ وَجَزَّاهُ،
يقال: حصاد وحَصَادٌ^(١).

وقال في التحقيق: "والتحقيق أن الأصل الواحد في هذه المادة: هو أخذ ما وصل
إلى حد الكمال، أي أخذ المحصول من كل شيء وقطعه. وهذا المعنى يختلف
 باختلاف الموارد، موضوعاً وكمالاً وأخذاً، فيقال: حصد الزرع إذا بلغ إلى نهايته في
إنتاج المحصول"^(٢).
"أصل الحَصَد قطع الزرع"^(٣).

ويظهر أن الحصاد في أحد معانيه هو يوم وصول الزرع إلى غاية كماله حيث يتم
قطعه، وهو أي الحصاد اسم غير محصور بنوع من النبات كالقمح مثلاً بل هو كل
زرع، بل يستدرِك الزبيدي في التاج على كلمة حصاد فيقول: "وَحَصَادٌ كُلُّ شَجَرَةٍ:
ثَمَرُهَا. وَحَصَادُ الْبُقُولِ الْبَرِّيَّةِ: مَا تَنَاطَرَ مِنْ حَبِّهَا عِنْدَ هَيْجِهَا"^(٤)، وبالتالي فإنني أرى
وجهاً وجيهاً في حمل كلمة الحصاد في الآية الشريفة على ثمار جميع ما ذكرته من
نخل وزرع ورمان وزيتون، وليس على الزرع فقط كما فعله أكثر من واحداً تماشياً مع
قوله بأن الآية في معرض بيان حكم الزكاة.
٩- ولا تسرفوا:

"الإسراف: مجاوزة الحد، وقد يكون بالمجاوزة إلى الزيادة، وقد يكون بالتقصير،
وهو إن يجاوز حد الحق والعدل، قال الشاعر: أعطوا هنيئة يحدوها ثمانية ما في
عطائهم من ولا سرف أي: ولا تقصير. وقيل معناه: ولا إفراط"^(٥).

١- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، نشر أدب الحوزة، قم، ط ١، ١٤١٥هـ، ج ٣، ص ١٥١.

٢- التحقيق في كلمات القرآن الكريم، م. س، ج ٢، ص ٢٢٩.

٣- الراغب الأصفهاني، الحسين، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ص ٢٣٨.

٤- تاج العروس، م. س، ج ٤ ص ٢٢٣.

٥- تفسير مجمع البيان، م. س، ج ٤، ص ١٧٦.

وقال ابن منظور: "السَّرَفُ: الإِغْفَالُ. والسَّرَفُ: الجَهْلُ".^(١)

وقال الطريحي: "سرف) قوله تعالى: ولا تسرفوا، الإسراف: أكل ما لا يحل. وقيل: مجاوزة القصد في الأكل مما أحل الله. وقيل: ما أنفق في غير طاعة الله تعالى".^(٢)

وسبائك فائدة تعدد معاني السرف بغير المشهور من معناه: أي تعدي الحد، في تفسير الآية القرآنية ورد دليل المحتمل لكونها في صدد بيان الزكاة.

ثانياً: المعنى المتبادر للآية الكريمة

بعد أن بين الله تعالى كيف أن المشركين اختصوا آلهتهم المدعاة وأوثانهم ببعض الأرزاق والأشياء من النبات والحيوان، أثبت لنفسه مقام الخالقية والرازقية والمدير للأموال والمفصل للآيات، فلا يصح عنده إضافة شيء للأوثان، وحكم الأرزاق عنده تحليلاً وتحريماً، ويدل على ذلك حصره الخالقية والإبداع بذاته المتعالية في قوله ﴿وهو الذي أنشأ لكم﴾ وهذا ما يفيد الابتداء بالضمير المنفصل (هو) مما يفيد الحصر.. فالله وحده الذي أنشأ وأبدع وخلق جنات وبساتين وأشجاراً مختلفة بعضها مرفوع على دعائم وبعضها قائم على أصوله^(٣) حيثما كانت وكيفما اتفقت. وأنشأ النخل والزروع مختلفاً أكله أي: طعمه أو ثمره، أو مختلفاً كل أنواع الاختلاف الذي يلاحظه الإنسان في النباتات والأشجار، وهو ما يدل على عظيم صنع الله تعالى، وعلى حق المولى في تقرير الحكم المناسب له ولثماره دون غيره من الموالى وأشباههم. ولذلك يقرر الله تعالى إباحة أكل ثمره بلفظ الأمر، "وآتوا حقه يوم حصاده".

١- لسان العرب، م. س، ج ٩، ص ١٤٩.

٢- الصريحي: فخر الدين، مجمع البحرين، تحقيق: أحمد الحسيني، انتشارات كتابفروشي مرتضوي، تهران

١٣٦٢ هـ، ج ٥، ص ٦٩.

٣- وهو قول ابن عباس في شرح الآية: ما خرج من قبل نفسه في البراري والجبال من أنواع الأشجار.

بقي أن نقف عند المراد من هذه الجملة تفصيلاً، إذ أنها تشكل الثقل التشريعي في الآية الكريم، وبيان آراء المفسرين فيها. والجدير ذكره أن هذا الجزء من الآية الشريفة وقع مورد خلاف وأخذ ورد بين المسلمين عامتهم وخاصتهم، وكثر فيها الكلام وكذلك كثرت المرويات الحديثية في تفسيرها إذ أورد البيهقي^(١) على سبيل المثال عشر روايات في تفسيرها، والعياشي أربعة عشر رواية^(٢) في تفسيره.

ثالثاً: تفسير ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾

من الملاحظ في هذه المقطع من الآية الشريفة أن ما فيها معاني وألفاظ واقع على العموم والإجمال، إذ المتبادر إلى الذهن بحجة الظهور والفهم العرفي واللغوي السليم، أن هناك حقاً ما غير معروف المقدار ولا الماهية ولا الجهة، ينبغي إيتاؤه يوم حصاد الزرع، على أن صيغة "أتوا" الأمرية مجملة وهي وإن كانت ظاهرة في الوجوب على ما هو عليه مشهور الأصوليين من دلالة صيغة الأمر على الوجوب، إلا أنه وجوبٌ مجملٌ هنا كذلك ويحتاج إلى مفصل قرآني أو روائي.

وقد أشار إلى ذلك الكاظمي عليه السلام في المسالك، نقلاً عن تفسير التبيان للشيخ الطوسي عليه السلام، حينما أدخل هذا المقطع من الآية ضمن الآيات المجملات التي لا ينبيئ ظاهرها عن المراد بها مفصلاً إما ببيان النبي أو وحيٍ إلهي^(٣).

غير أن لهذا الإجمال فوائد:

أولها: أنها نافعة في مقام إثبات الأحكام الشرعية في بيان أصل وجوب إيتاء شيء من المال بعنوان "الحق" الشرعي فيها.

١- البيهقي، أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، ٢٠٠٣، ج ٤، ص ١٣٢.

٢- السمرقندي (العياشي)، محمد بن مسعود بن عياش، كتاب التفسير، تحقيق: هاشم الرسولي المحلاتي، المكتبة العلمية الإسلامية، تقديم: محمد حسين الطباطبائي، طهران، لا ط، لا ت، ج ١، ص ٣٧٧.

٣- الكاظمي، محمد الجواد شمس الدين، مسالك الأفهام إلى آيات الأحكام، تحقيق: محمد باقر شريف زاده، المكتبة الرضوية لإحياء الآثار الجعفرية، لا ط، لا ت، ج ١، ص ١٢.

ثانياً: في بيان أصناف هذه الأموال الواجب إيتاء حقها.
 ثالثاً: في بيان الوقت الذي يستحق فيها إيتاء هذا "الحق" وإلى الفائدتين الأوليين
 أشار الجصاص في أحكام القرآن بقوله: "وقوله تعالى: (وآتوا حقه يوم حصاده)
 عطفاً على ما قدم ذكره من الزرع والثمرة، فهذه ألفاظ قد اشتملت على العموم
 والمجمل، فلا يمنع ما فيها من الإجمال من الاحتجاج بعمومها متى اختلفنا فيما
 انتظمه لفظ العموم، وهو أصناف الأموال الموجب فيها، وإن لم يصح الاحتجاج بما
 فيها من المجمل عند اختلافنا في المقدار الواجب، كذلك متى اختلفنا في الورثة
 المستحقين للميراث ساغ الاحتجاج بعموم قوله تعالى: (للرجال نصيب مما ترك
 الوالدان والأقربون) الآية، ومتى اختلفنا في المقدار الواجب لكل واحد منهم احتجنا
 في إثباته إلى بيان من غيره"^(١).

وكذلك ابن شهر آشوب في متشابه القرآن ومختلفه، فقال: "معاني القرآن على
 أقسام ما اختص الله بالعلم به فلا يجوز لأحد تكلف القول فيه كقوله (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ
 عِلْمُ السَّاعَةِ ..) وما لا يمكن معرفته إلا بالأثر الصحيح كقوله ﴿أَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
 الزَّكَاةَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾"^(٢).
 وكذلك أشار إليه الشيخ ابن إدريس: "ما هو مجمل لا ينبي ظاهره عن المراد به
 مفصلاً، مثل قوله تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ .. وما أشبه ذلك، فإن ... مقادير
 النصاب في الزكاة لا يمكن استخراجها إلا ببيان النبي ﷺ ووحى من
 جهة الله تعالى، فتكلف القول في ذلك خطأ ممنوع منه، يمكن أن تكون الأخبار
 متناولة له"^(٣).

- ١- الجصاص، أحمد بن علي الرازي، أحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٤٤، ط ١، ج ٢، ص ٨٨.
- ٢- المازندراني، محمد بن علي بن شهر آشوب، متشابه القرآن ومختلفه، چاپ خانه شرکت سهامی طبع کتاب، ١٣٢٨ هـ، لا ط، ج ٢، ص ٢٨١.
- ٣- الحلبي، محمد بن أحمد بن إدريس، إكمال نقصان من تفسير منتخب التبيان (موسوعة ابن إدريس الحلبي)، تحقيق: محمد مهدي السيد حسن الموسوي الخرسان، العتبة العلوية المقدسة، النجف الاشرف، ٢٠٠٨م، ط ١، ص ٢٠.

فالحكم المبحوث عنه مجمل وعامٌّ، وسيظهر في طيات البحث أن هذا الإجمال متسلّط على كل محاولات المفسرين ومن حاول مقارنة الألفاظ والدلالات فيها، وأكرر: بعيداً عن الدليل الروائي، فالآية بنفسها مجمّلة. غير أن ذلك لا ينفي وجود عدد من النكات ينبغي الحديث عنه من زاوية تفسيرية مع عرض لأهم أقوال المفسرين سنة وشيعة فيها.

● هل الآية تتحدث عن الـ"حق" على أنه الزكاة المفروضة أم شيء آخر؟
وقعت هذه المسألة مدار أخذ ورد بين المفسرين، بين من يقول بأنها حق بمعنى الزكاة المفروضة، وبين من يقول إنها حق بمعنى الصدقة المفروضة، أو المندوبة.

القول الأول: أنها زكاة

ذكر السيّد العاملي في المدارك هذا الرأي ونسبه إلى جمع من المفسرين^(١)، وأردف: "وأن يكون المعنى فاعزموا على أداء الحق يوم الحصاد، واهتموا به حتى لا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء؛ لأن قوله: (وآتوا حقه) إنما يحسن إذا كان الحق معلوماً قبل ورود هذه الآية"^(٢) وقوله "واهتموا..الخ" دفع لإشكال العديد من العلماء بأنّ قوله تعالى وآتوه حقه يوم حصاده إخراج له من حكم الزكاة بدلالة أنّها لا تجب يوم الحصاد، وسيأتي ذكر ذلك تفصيلاً.

وكذلك نقل المجلسي الأول قول البعض بالوجوب (أي كونها زكاة) على نحو الاحتمال، فقال: "يمكن أن يكون تعلق الوجوب (أي وجوب الزكاة) في هذا الوقت (أي الحصاد) وإن كان المشهور أنه حين بدو الصلاح من الاصفرار والاحمرار في

١- ذكر ذلك أيضاً في تعليقه على الكافي، علي أكبر غفاري: ج ٣، ص ٥٤٦.

- الكليني، محمد بن يعقوب، الأصول من الكافي، تحقيق: علي أكبر غفاري، دار الكتاب الإسلامية، طهران، ١٣٨٨هـ ط ٣.

٢- العاملي، محمد بن علي الموسوي، مدارك الأحكام في شرح شرائع الإسلام، تحقيق: مؤسسة أهل البيت عليهم السلام، مهر، قم، ١٤٠هـ ط ١، ج ٥، ص ١٢.

التمر، وانعقاد الحب في غيره^(١)، ويظهر من كلامه قدس أن مدّعي هذا القول مخالفٌ للمشهور، وإن لم يسمّه.

وكذلك ذكر صاحب المسالك أن القول بأن كلمة "الحق" في الآية يعني "الزكاة" هو قول جماعة من العامة (كما سيأتي ذكره)، ولكنه يعم بعض الأصناف التي ذكرتها الآية الكريمة كالزيتون، وإن كان توقف فيه هو كذلك فقال: "﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قد يستدلّ بالآية على وجوب الزكاة في الزيتون لأنّه تعالى عقّب إتياء الحقّ بعد ذكره، وإلى هذا يذهب جماعة من العامة، وفيه نظر ولهذا لا تجب الزكاة في الرمان وإن ذكر بعد الزيتون هذا"^(٢).

ومن العامة من قال بوجوبها، الشافعي، نقله عنه المزي في مختصره في باب صدقة الزرع، فقال: "قال الشافعي رحمه الله تعالى في قول الله تبارك وتعالى " وأتوا حقه يوم حصاده ": دلالة على أنه إنما جعل الزكاة على الزرع "^(٣).

ويظهر كذلك أنه قول النووي، في رده على مجاهد والنخعي بإيجاب الصدقة وقت الصرام والحصاد، فقال: "وحكى عن مجاهد والنخعي أيضاً أن الصدقة من المال وقت الصرام والحصاد واجبة لقوله تعالى ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ ومذهبنا ومذهب سائر العلماء أنه لا يجب ذلك؛ لأنّ الأصل عدم الوجوب والآية المذكورة المراد بها الزكاة، والله تعالى أعلم"^(٤). فالآية دالة عنده على وجوب الزكاة، لا الصدقة.

وكذلك جاء في الموطأ، أن مالك يرى في الآية الكريمة أنها تحكي عن حكم الزكاة: "قال مالك: في قول الله تعالى - وأتوا حقه يوم حصاده -: أن ذلك، الزكاة.

١- المجلسي، محمد تقي، روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه، بنياد فرهنگ اسلامي، لا مكان، لا ط، ج ٣، ص ١٤١.

٢- مسالك الأفهام، م. س، ج ١، ص ١٣.

٣- المزي، اسماعيل بن يحيى، مختصر المزي، دار المعرفة، بيروت، لا ط، ص ٤٨.

٤- النووي، محيي الدين بن شرف، المجموع شرح المذهب، دار الفكر، بيروت، لا ط، ج ٥، ص ٥٧٣.

وقد سمعت من يقول ذلك^(١)، إلى جملة من علماء العامة ذهبوا إلى وجوب الزكاة في الزروع والثمار مستنديين في ذلك - فضلاً عن الأثر- إلى تأويلهم وتفسيرهم الآية القرآنية الكريمة على أنها جاءت لبيان حكم الزكاة. ومنهم من ذكرنا، ويضاف إليهم، أبو بكر الكاشاني في بدائع الصنائع، وابن عابدين في حاشية رد المختار، وابن قدامة في المغني، والبهوتي في كشف القناع^(٢)، وابن عباس ومحمد بن الحنفية وزيد بن أسلم والحسن وسعيد بن المسيب وطاووس وجابر بن عبد الله وبريد وقتادة والضحاك^(٣).

وسنعرض فيما يأتي مجموع أدلة القوم في دلالية الآية على إيجاب الزكاة من خلال تفسيرهم للآية الكريمة.

أدلة إيجاب الزكاة

١- الاستدلال بعموم الآية: وهو ما قاله الجصاص في كتابه أحكام القرآن^٤، من أن ألفاظ هذه الآية المشتملة على العموم والمجمل، لا تمنع من انعقاد حكم جامع كليٍّ بوجوب الزكاة، وإن اختلفنا في أصناف الأموال الموجب فيها. والرد: أن الكلام في الدليل على كون كلمة "حقه" واردة في الزكاة، وليس في الصدقة بالمعنى الأعم من الزكاة خصوصاً أن السورة مكية. نعم، قال البعض بأن الآية مجملة مطلقاً ولا حكم فيها، لا في الزكاة ولا في الصدقة ولا في أي حق آخر.

١- الإمام مالك، مالك بن أنس، الموطأ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٥، ط ١، ج ١، ص ٢٧٣.

٢- البهوتي، منصور بن يونس، كشف القناع عن متن الإقناع، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ط ١، ج ٢، ص ٢٩٤.

٣- التبيان في تفسير القرآن، م.س، ج ٤، ص ٢٩٥.

٤- أحكام القرآن، م.س، ج ٢، ص ٨٨.

ورد ذلك القطب الراوندي: "وما يقوله قوم في قوله ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ من أنها مجملة ولا دليل فيها فليس بصحيح؛ لأن الإجمال هو مقدار الواجب لا الموجب فيه"^(١).

٢- قوله ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ﴾ يتناول العشر أو نصف العشر: وهو السهم المفروض من قبل الله تعالى، وهذا التحديد بكونه العشر أو نصفه سيكون بالضرورة بعد الالتزام بالوجوب.

ورد على ذلك جملة من العلماء^(٢): بأن العشر ونصفه من المكيل، ولا يكون مكيلاً في وقت الحصاد ولا يمكن كيّله، وإنما الكيل يكون بعد مرور الزرع بعمليات متعددة قبل تجفيفه ليكون قابلاً للكيل، وعليه يكون تعليق الإتياء بيوم الحصاد غير مناسب لحقيقة الكيل المشروط في تقدير الزكاة المفروضة.

٣- الاستدلال بصيغة الأمر على وجوب الزكاة: إذ إن الآية الكريمة استخدمت لفظ "الحق" وهو لا يليق إلا بالواجب.

وقد رد الشريف المرتضى على هذه الدعوى بردود، منها: "قد يطلق اسم الحق على الواجب والمندوب إليه، وقد روى جابر أن رجلاً قال: يا رسول الله هل علي حق في إبلي سوى الزكاة؟ فقال ﷺ: نعم تحمل عليها وتسقي من لبنها. فإن قالوا ظاهر قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ﴾ يقتضي الوجوب وما ذكرتموه ليس بواجب. قلنا: إذا سلمنا أن ظاهر الأمر في الشرع يقتضي الوجوب كان لنا طريقان من الكلام:

أحدهما: أن نقول: أن ترك ظاهر من الكلام ليسلم ظاهر آخر له كترك ذلك الظاهر ليسلم هذا، وأنتم إذا حملتم الأمر على الوجوب هاهنا تركتم تعلق العطاء

١- الراوندي، قطب الدين سعيد بن هبة الله، فقه القرآن في شرح آيات الأحكام، تحقيق: أحمد الحسيني، مطبعة الولاية، قم، ١٤٠٥ هـ ط ٢، ج ١، ص ٢١٥.

٢- كالقطب الراوندي في فقه القرآن، ج ١، ص ٢١٦. والمرتضى في الانتصار، ص ٢٠٦. والكاظمي في مسالك الأفهام إلى آيات الأحكام، ج ٢، ص ٦٨.

بوقت الحصاد، ونحن إذا حملنا الأمر في الآية على النذب يسلم لنا ظاهر تعلق
العطاء بوقت الحصاد، وليس أحد الأمرين إلا كصاحبه وأنتم المستدلون بالآية
فخرجت من أن تكون دليلاً لكم .

والطريق الآخر: أنا لو قلنا بوجوب هذا العطاء في وقت الحصاد وإن لم يكن
مقدراً بل موكولاً إلى اختيار المعطي لم نقل بعيداً من الصواب، فإن تعلقوا بقوله
تعالى: ﴿ أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ وأن المراد
بالنفقة هاهنا الصدقة بدلالة قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا
يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني لا يخرجون زكاتها. فالجواب عن ذلك: أن اسم النفقة
لا يجري على الزكاة إلا مجازاً، ولا يعقل من إطلاق لفظ الإنفاق إلا ما كان في
المباحات وما جرى مجراها، ثم لو سلمنا ظاهر العموم لجاز تخصيصه ببعض الأدلة
التي ذكرناها^(١)، ووافقه في ذلك ابن زهرة الحلبي في الغنية^(٢)، وعلي بن محمد
القمي في جامع الخلاف والوفاق^(٣).

رد ابن حزم:

وقد رد ابن حزم في المحلى على دعوى مالك والشافعي بإيجاب الزكاة بناءً
للآية الكريمة، بجملة من الردود، أغلبها إثباتي، أي هو نقاش في سعة وضيق تطبيق
حكم الزكاة على أصناف الزروع.
فمنها:

- أنه رد عليهما بأنهما أثبتا الزكاة ثم أسقطاها عن أكثر ما ذكره الله في هذه الآية.

١- الشريف المرتضى، علم الهدى علي بن الحسين الموسوي، الانتصار، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي،
١٤١٥ هـ ط ١، ص ٢١٠.

٢- الحلبي، حمزة بن علي بن زهرة، غنية النزوع إلى علمي الأصول والفروع، تحقيق: إبراهيم البهادري،
اعتماد، قم، ١٤١٧ هـ ط ١، ص ١١٥.

٣- السيزواري، علي بن محمد بن محمد القمي، جامع الخلاف والوفاق بين الإمامية وبين أئمة الحجاز
والعراق، تحقيق: حسين الحسيني البيرجندي، انتشارات زمينه سازان ظهور إمام عصر، قم، ١٣٧٩ هـ ش، ط ١،
ص ١٣٠.

- ورد على من دافع عن المالكيين بأن الله أوجب الزكاة فيما يُحصَد، بأنهم أوجبوا الزكاة في الزيتون وهو مما لا يُحصَد.

- ورد على الشافعيين بأن الحصاد يطلق على غير الزرع كذلك.

- ورد عليهما معاً بأنهما أوجبا الزكاة، ولكن لم يلتزما التحديد بما يتقوت، ولا بما يكال.. وأوجبا الزكاة في الجوز واللوز والصنوبر، وأسقطاها عن البلوط واللفت والشونيز.. من دون أن تساعدتهما على ذلك الآية الكريمة في شيء. وفي الخلاصة، أسقطا الزكاة عن أكثر ما يزرع، وهذا خلاف ما استدلا به من الآية على وجوب الزكاة في مطلق الزروع.

ثم قال: "وهذه وساوس تشبه ما يأتي به الممرور وما لهما متعلق لا من قرآن ولا من سنة ولا من رواية ضعيفة، ولا من قول صاحب، ولا قياس، ولا رأي سديد، وما نعلم أحداً قال بذلك قبلهما، فسقط هذا القول الفاسد أيضاً جملة" ^(١).

٤- أنه واجب موسّع: وهو أن المراد من الحق هو الزكاة، ولكن لا يأتي الإشكال بأن الزكاة تكون بعد التذرية والتصفية والتجفيف، إذ إن من المحتمل أن يكون الوجوب هنا وجوباً موسّعاً، لإمكان تعلّق وجوب الإيتاء يوم الحصاد بالحق لا بـ "آتوا" ^(٢).

والرد: أن الاحتمال كافٍ في كونه محتملاً، فالآية بالتالي مجملّة وليست نصّاً في الوجوب.

ويعزز كونه واجباً موسّعاً احتمال بعض الأعلام ذلك، وعدم رده إلا بالأخبار، كالمجلسي الأول في الروضة ^(٣)، وصاحب المدارك. قال السيد في المدارك: "وعن الآية الشريفة أولاً باحتمال أن يكون المراد بالحق: الزكاة المفروضة كما ذكره جمع

١- ابن حزم، محمد بن علي بن أحمد بن سعيد، المحلى، دار الفكر، بيروت، لا ت، لا ط، ج ٥، ص ٢١٦.

٢- أورده العلامة الحلي في المختلف، ج ٣، ص ٢٥٨، ٢٥٦، وقمت باختصاره.

- الحلي، الحسن بن يوسف بن مطهر، مختلف الشيعة، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٢هـ ط ١.

٣- روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه، م. س، ج ٣، ص ١٤١.

من المفسرين، وأن يكون المعنى فاعزموا على أداء الحق يوم الحصاد، واهتموا به حتى لا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء؛ لأن قوله: ﴿وآتوا حقه﴾ إنما يحسن إذا كان الحق معلوماً قبل ورود هذه الآية ولكن ورد في أخبارنا إنكار ذلك^(١).

٥- أن إيتاء الحق ينبغي أن يكون بمقداره دون السرف: وهو دفع لإشكال أغلب المعترضين على أصحاب هذا القول، وذلك أنه قد يقال^(٢) بأن الدليل على كون الآية في مورد الزكاة هو أن الله نهى عن السرف، وهذا لن يكون صحيحاً إلا لو تعلق بالزكاة لأنها محدودة بأصناف ومكاييل تؤمن المكلف عن الوقوع في السرف. ويرد ذلك بأن السرف جائز في كل شيء، لأن السرف هو التعدي عن الحد على أحد معنييه، والله ينهى عن السرف في إيتاء الحق وذلك بالوقوف عند حده. قد يقال: أين هو الحد في الآية؟

ليجاب عنه بأن تبين حدود وأصناف الزكاة لم يبينه القرآن في بقية آياته، فلم نطالبه بالتبيين ههنا؟

والحق أن في هذا الجواب وجهاً يحسن الوقوف عنده وهو يوافق ما ذكرناه في البداية عن ابن منظور في لسان العرب. وعلى المعنى الآخر للسرف "سرف المال ما ذهب منه من غير منفعة"، فإن إشكالهم على تفسير الحق بالزكاة بمانعية معنى الإسراف من انعقاده على الزكاة المفروضة، لا يتوجه^(٣).

٦- أن الدليل على كونها نازلة في الزكاة الواجبة، نسخها:

إن الآية الكريمة مورد البحث واردة في سورة الأنعام، وهي من السور التي حدث في كونها مكية أم مدنية لغط. فهنا ثلاث أقوال:
أ- من حكى الإجماع على مكيتها:

١- مدارك الأحكام، م. س، ج ٥، شرح ص ١٢.

٢- قال ابن حزم في المحلى: الثالث: قوله تعالى في الآية نفسها: ﴿ولا تسرفوا﴾ ولا سرف في الزكاة، لأنها محدودة، لا يحل أن ينقص منها حبة ولا تزداد أخرى.

٣- الرازي، التفسير الكبير، ج ١٣، ص ٢١٤.

قول الطباطبائي في تفسيره: "قد اتفق المفسرون والرواة على كونها مكية إلا في ست آيات روي عن بعضهم أنها مدنية. وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (آية ٩١) إلى تمام ثلاث آيات، وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ (آية ١٥١) إلى تمام ثلاث آيات.

وقيل: إنها كلها مكية إلا آية أن منها نزلت بالمدينة، وهما قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنلُ﴾ والتي بعدها.

وقيل: نزلت سورة الأنعام كلها بمكة إلا آيتين نزلتا بالمدينة، في رجل من اليهود، وهو الذي قال: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية.

وقيل: (إنها كلها مكية إلا آية واحدة نزلت بالمدينة، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَائِكَتَ﴾ الآية.

وهذه الأقوال لا دليل على شيء منها من جهة سياق اللفظ على ما تقدم من وحدة السياق واتصال آيات السورة، وسنينها بما نستطيعه، وقد ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، وكذا عن أبي وعكرمة وقتادة: أنها نزلت جملة واحدة بمكة.^(١)

- وقال مُحَمَّد الطَّاهِرُ بْنُ عَاشُور (ت: ١٣٩٣هـ): "وهي مكِّيَّةٌ بالاتِّفَاق"^(٢).

ولكن قال ابن الحصار: "لا يصحُّ نقلٌ في شيءٍ نزل من الأنعام في المدينة، وهذا هو الأظهر وهو الذي رواه أبو عبيد، والبيهقي، وابن مردويه، والطبراني، عن ابن عباس وأبو الشيخ عن أبي بن كعب. وعن ابن عباس أنها: نزلت بمكة جملةً واحدةً ودعا رسول الله ﷺ الكتاب فكتبوها من ليلتهم"^(٣).

١- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم، قم، لا، ت، لا ط، ج ٧، ص ٥.

٢- بن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤، ط ١، ج ٧، ص ١٢١.

٣- م.ن.

ومع ذلك، فإنَّ عدداً من العلماء والمفسرين أشاروا إلى عدد من الآيات الشريفة من السورة وعدوها مدنية، غير أن الذي يهمناهم الذين قالوا باستثناء الآية مورد البحث من مكية السورة وجعلها مدنية. ومنهم:

- مَحْمُودُ بْنُ عُمَرَ الزَّمَخْشَرِيُّ (ت: ٥٣٨هـ) حيث قال: "مكية [إلا الآيات ٢٠ و ٢٣ و ٩١ و ٩٣ و ١١٤ و ١٤١ و ١٥١ و ١٥٢ و ١٥٣ فمدنية، وعن ابن عباس: "غير ست آيات" (١).

- قال قتادة: "هما قوله تعالى: ﴿وما قدرُوا الله حق قدره﴾ الآية الأخرى: ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات﴾ [الأنعام: ١٤١]" (٢).

- قال القرطبي: "هي مكية إلا آيتين هما ﴿وما قدرُوا الله حق قدره﴾ نزلت في مالك بن الصيف وكعب بن الأشرف اليهوديين، وقوله تعالى: ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات﴾ الآية [الأنعام: ١٤١] نزلت في ثابت بن قيس بن شماس" (٣).

- وللأهمية البحثية التي يتمتع بها مبحث المكي والمدني وتأثيره على تفسير الآية الشريفة، كان لا بد أن نحسم الموقف منها، ولكن قبل ذلك نعرضُ إلى رأي السيد الخوئي رحمته الله الذي فصل الكلام فيها، ورد أدلة القوم على القول بمدنية هذه الآية. تتلخص الوجوه التي ذكرها في نسخها بالتالي، كما ذكرها السيد الخوئي في تفسيره:

"١- إنها واردة في الزكاة، وأن وجوبها قد نسخ في غير الحنطة، والشعير، والتمر، والزبيب على ما هو الأشهر، بل ولا قائل من الصحابة والتابعين بوجوبها في كل ما

١- الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، ج ٢، ص ٣٢٠.

٢- العيني، محمود بن أحمد، عمدة القاري في شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لات، ط ١، ج ١٨، ص ٢٧٥.

٣- القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥م، ط ٢، ج ٣، ص ١١.

أُنبت الأرض، نعم، ذهب أبو حنيفة وزفر إلى وجوبها في غير الحطب والحشيش والقصب.

٢- إن حكم الآية قد نسخ بالسنة: العشر ونصف العشر، وذهب إلى ذلك السدي، وأنس بن مالك، ونسب ذلك إلى ابن عباس، ومحمد بن الحنفية.

٣- إن مورد الآية غير الزكاة، وقد نسخ وجوب إعطاء شيء من المال بوجوب الزكاة، ذهب إلى ذلك عكرمة، والضحاك، ونُسب ذلك إلى سعيد بن جبير أيضاً^(١).

= ونجد من بين علماء الشيعة من استقرب مدنية الآية الكريمة، وما يظهر من الكاظمي عليه السلام في مسالك الأفهام حيث قال: "وقد اختلف في الحق الذي يجب إخراجُه يوم الحصاد، فقل: هو الزكاة العشر أو نصف العشر، والأكثر على أنها مدنية لا مكّية فلا نسخ، والأمر بآياتها يوم الحصاد لتهيئهم به حينئذ حتى لا يؤخر عن وقت الأداء"^(٢). وهو قول ينسجم مع ما ذكرناه من توجيه الحكم بناء على كونه من الواجب الموسع.

ولكن، الحق، أن قول هؤلاء، مع خفاء دليلهم، ومعارضة الأعم الأغلب من العلماء والمفسرين، وكذلك ما نقل عن أهل البيت عليهم السلام وبعض الصحابة والتابعين من كون السورة بتمامها مكية، يبقى ضعيفاً وبحكم المهمل. وإلا، فإن القول بمدنية الآية ينسجم تماماً مع قضية فرض الزكاة، حيث ثبت أن آية الزكاة مدنية.

وبعد أن استبعدنا كونها مدنية، وتبيننا أنها مكية، يبقى أن نستعرض أقوال العلماء في أن آية الزكاة المدنية نسخت حكمها:

نقل الشيخ الطبرسي في تفسيره عن إبراهيم والسدي أن "الآية منسوخة بفرض العشر ونصف العشر، قالوا: لأن الزكاة لا تخرج يوم الحصاد، وقالوا: لأن هذه الآية

١- الخوئي، السيد أبو القاسم بن علي أكبر، البيان في تفسير القرآن، دار الزهراء، بيروت، ١٩٧٥م، ط ٤،

٢- الكاظمي، مسالك الأفهام إلى آيات الأحكام، ج ٢، ص ٦٩.

مكية وفرض الزكاة نزل بالمدينة. ولما روي بأن فرض الزكاة نسخ كل صدقة^(١). وكذلك نقله ابن شهر آشوب في متشابه القرآن ومختلفه^(٢).

وأما الزمخشري في الكشف، فقد فرق بين القولين:

بين أنها مكية، وأن الحق فيها واجب، وأن آية الزكاة اللاحقة هي التي نسخت هذا الحق الواجب، وأثبتت الزكاة بافتراض العشر ونصف العشر. وبين أنها مدنية، وأن الحق هو الزكاة المفروضة^(٣).

- وأما الرازي، فقد ذكر ثلاثة أقوال في تفسيره، الأول أنها مكية ولكن الحكم فيها هو الزكاة، ودفع شبهة كون الحب في السنبل وعدم وتحقق زمان الواجب فيه، بالتأويل: اعزموا على إيتاء الحق يوم الحصاد ولا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء. ويتنصر الرازي إلى هذا القول في تفسير الآية.

والثاني، أن الحق مالٌ سوى الزكاة.

والثالث، وهو مطلوبنا: بأن "هذا كان قبل وجوب الزكاة، فلما فرضت الزكاة نسخ هذا، وهذا قول سعيد بن جبير^(٤)".

ويذهب ابن العربي^(٥) إلى تأييد كلام مالك في كون الآية في مورد الحديث عن حكم الزكاة، ولا يقبل كونها منسوخة، بل يعتبر أنها مكية وأن الله أوجب في الزكاة إيجاباً مجعلاً، وأن بحث ذلك موكول إلى علم أصول الفقه.

رد السيد الخوئي لأدلة القائلين بالنسخ

وقد رد السيد الخوئي رحمته الله أدلة القائلين بالنسخ بجملته ردود، أُنْتُخِبُ منها:

١- التبيان في تفسير القرآن، م. س، ج ٤، ص ٢٩٥.

٢- متشابه القرآن ومختلفه، م. س، ج ٢، ص ٢٢٩.

٣- الكشف عن حقائق التزيل وعيون التأويل، م. س، ج ٢، ص ٥٦.

٤- التفسير الكبير، م. س، ج ١٣، ص ٢١٣.

٥- ابن العربي، محمد بن عبد الله، أحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م، ط ٣، ج ٢، ص ٢٨٦-

” سورة الأنعام نزلت بمكة جملة واحدة، وقد صرحت بذلك روايات كثيرة، منها: ما رواه الشيخ الكليني، بإسناده عن الحسن بن علي بن أبي حمزة، قال: ” قال أبو عبد الله عليه السلام: إن سورة الأنعام نزلت جملة، شيعها سبعون ألف ملك حتى نزلت على محمد صلى الله عليه وآله وسلم فعظموها وبجلوها، فإن اسم الله عز وجل فيها في سبعين موضعاً، ولو يعلم الناس ما في قراءتها ما تركوها ”.

ومنها: ما روى عن ابن عباس قال: ” نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة واحدة، حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح ”.

ومما لا ريب فيه أن وجوب الزكاة إنما نزل في المدينة، فكيف يمكن أن يقال: إن الآية المذكورة نزلت في الزكاة!

وحكى الزجاج أن هذه الآية قيل فيها: إنها نزلت بالمدينة، وهذا القول مخالف للروايات المستفيضة المتقدمة، وهو مع ذلك قول بغير علم.

الثالث: إن الإتياء الذي أمرت به الآية الكريمة قد قُيدَ بيوم الحصاد، فلا بد أن يكون هذا الحق غير الزكاة؛ لأنها تؤدي بعد التنقية والكيل، ومما يشهد على أن هذا الحق غير الزكاة أنه قد ورد في عدة من الروايات المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام النهي عن حصاد الليل، معللاً في بعضها أنه يحرم منه القانع والمعتل.

٢ - أن الزكاة لا تجب يوم الحصاد، بل يتعلق الحق بالمال إذا انعقد الحب، وصدق عليه اسم الحنطة والشعير، وعلى ذلك فذكر يوم الحصاد في الآية قرينة قطعية على أن هذا الحق هو غير الزكاة، ومما يؤيد أن هذا الحق هو غير الزكاة أنه تعالى نهى في هذه الآية عن الإسراف، وذلك لا يناسب الزكاة المقدرة بالعشر ونصف العشر، وإذا اتضح أن الحق الذي أمرت الآية الكريمة بآياته هو غير الزكاة الواجبة لم تكن الزكاة ناسخة له.”

وجملة القول: أن دعوى النسخ في الآية المباركة تتوقف على إثبات وجوب حق آخر في الزروع حتى ينسخ بوجوب الزكاة، ولا يستطيع القائل بالنسخ إثبات ذلك؛ لأن ظهور الأمر في الوجوب، وظهوره في الدوام والاستمرار لا يمكن الاحتفاظ بهما

جميعاً فى الآية، وذلك للعلم بأنه لا يجب حق آخر بعد الزكاة فلا بد - إذن - من التصرف فى أحد الظهورين، إما برفع اليد عن الظهور فى الوجوب، وإبقائه على الدوام والاستمرار، فيلتزم - حينئذ - بثبوت حق آخر استحبابى باق إلى الأبد، وإما برفع اليد عن الدوام والاستمرار، وإبقائه على الظهور فى الوجوب فيلتزم بالنسخ، ولا مرجح للثنائى على الأول، بل الترجيح للأول والدليل على ذلك أمران:

١- الروايات المستفيضة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام ببقاء هذا الحق واستحبابه، "وقد أشرنا إلى هذه الروايات آنفاً".

٢- أن هذا الحق لو كان واجباً لشاع بين الصحابة والتابعين، ولم ينحصر القول به بعكرمة، والضحاك، أو بواحد واثنين غيرهما.

وحاصل ما تقدم: أن الحرى بالقبول هو القول بثبوت حق آخر ندبى فى الثمار والزروع، وهذا هو مذهب الشيعة الإمامية، وعليه فلا نسخ لمذلول الآية الكريمة^(١).

خلاصة الحديث حول مدنية الآية

يبقى أن نلخص هذه القضية بأن الآية مع شهرة كونها مكية، وكونها مجملةً من حيث الحكم، فلا اعتبار بكل ما قيل من نسخها بآية أخرى، خصوصاً أن لا دليل قطعي على ذلك سوى أقوال القائلين من دون نسبة ذلك إلى المعصوم أو اعتضاده بدليل قرآني معتبر، كما نقل القرطبي "قال سفيان: سألت السدي عن هذه الآية فقال: نسخها العشر ونصف العشر. فقلت: عمن؟ فقال: عن العلماء"^(٢)، فلك أن تحكم في هكذا نوع من النقول غير المعتبرة خاصة في مبحث هام كمبحث النسخ والمنسوخ. فالآية غير منسوخة بآية الزكاة، بل إن كلام العلامة الطباطبائي (قدس سره) حول النسبة بين الآية وآية الزكاة سليم في أنه لا تنافٍ بينهما يؤدي إلى النسخ "سواء قلنا بوجوب الصدقة أو باستحبابها"^(٣).

١- البيان في تفسير القرآن، م. س، ص ٣٤٩.

٢- الجامع لأحكام القرآن، م. س، ج ٧، ص ٩٧.

٣- الميزان في تفسير القرآن، م. س، ج ٧، ص ٣٦٩.

٧- حكم الزيتون

لا يكاد يقول أحد من الشيعة الاثني عشرية بوجوب الزكاة على الزيتون، فهذا العلامة المحلى في التذكرة، يقول في التذكرة: "مسألة ١١٢: لا زكاة في الزيتون عند علمائنا أجمع" ^(١).

ولكن لما قبل بعض القوم من المفسرين وعلماء أهل السنة كون الآية في مقام فرض الزكاة، وجدوا أنفسهم لا مناص أمام سراية حكم الزكاة إلى بقية الأصناف في الآية الشريفة، وقد مرّ شيء من ذلك من باب الإشارة، وههنا تفصيله.

قال ابن قدامة في المغني: "واختلفت الرواية في الزيتون فقال أحمد - في رواية ابنه صالح - فيه العشر إذا بلغ يعني خمسة أوسق، وإن عَصِرَ قُومَ ثمنه؛ لأن الزيت له بقاء وهذا قول الزهري والأوزاعي ومالك والليث والثوري وأبي ثور وأصحاب الرأي وروى عن ابن عباس لقول الله تعالى ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ في سياق قوله ﴿الزيتون والرمان﴾ ولأنه يمكن ادخار غلته أشبه التمر والزبيب" ^(٢).

بخلاف رأي أحمد أنه "لا زكاة فيه، وهو اختيار أبي بكر وظاهر كلام الخرقى، وهذا قول ابن أبي ليلى والحسن بن صالح وأبي عبيدة وأحد قولي الشافعي؛ لأنه لا يدخر يابساً فهو كالخضروات" ^(٣).

وقال ابن العربي في أحكام القرآن: "المسألة التاسعة: قال الشافعي لا زكاة في الزيتون في أحد قوليه. قال: لأنه يؤكل إداماً وأيضاً فإن التين أنفع منه في القوت ولا زكاة فيه، قلنا له: الزكاة تجب عندنا في التين فلا قول لك في ذلك، وأي فرق بين التين والزبيب والزيتون؟ قوت يدخر ذاته ويدخر زيتته، فلا كلام عليه" ^(٤).

١- المحلى، الحسن بن يوسف بن المطهر، تذكرة الفقهاء، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، ١٤١٤هـ ط ١، ج ٥، ص ١٧٤.

٢- ابن قدامة، عبد الله بن أحمد بن محمد، المغني، دار الكتاب العربي، لا مكان، لا ت، لا ط، ج ٢، ص ٥٥٣.

٣- م.ن.

٤- أحكام القرآن، م.س، ج ٢، ص ٢٨٦.

وقد حاول الرازي أن يدافع عن دلالة الآية على وجوب الزكاة في الزيتون في تفسيره، فقال: "البحث الثالث: قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ بعد ذكر الأنواع الخمسة، وهو العنب، والتخل، والزيتون، والرمان؛ يدل على وجوب الزكاة في الكل، وهذا يقتضي وجوب الزكاة في الثمار، كما كان يقوله أبو حنيفة رحمه الله. فإن قالوا: لفظ الحصاد مخصوص بالزروع. فنقول: لفظ الحصد في أصل اللغة غير مخصوص بالزروع، والدليل عليه، أن الحصد في اللغة عبارة عن القطع، وذلك يتناول الكل، وأيضاً الضمير في قوله حصاده يجب عوده إلى أقرب المذكورات وذلك هو الزيتون والرمان، فوجب أن يكون الضمير عائداً إليه" (١).

وجمع ذلك القرطبي في كتابه فقال: "ممن قال بوجوب زكاة الزيتون الزهري والأوزاعي والليث والثوري وأبو حنيفة وأصحابه وأبو ثور" (٢).

وبتضح إذن، بناء على ما تقدم من آراء في دلالة الآية على الزكاة النتيجة التالية:
- من قال بعدم دلالتها على الزكاة، فلا دلالة لها على وجوب الزكاة في الزيتون.

- من قال بدلالتها على الزكاة، انقسموا إلى فريقين: فريقٌ يقول بوجوب الزكاة في الزيتون، وفريقٌ لا يرى ذلك.

٨- في أن كلمة "حق" فرضٌ لمالٍ غير الزكاة

غير ابن الجنيّد ويونس من القدماء، فإن علماء الإمامية أطبقوا على أن هذه الآية الشريفة في مقام إيجاب حق مالي سوى الزكاة. ويبدو لي أن منشأ هذا الإطباق ليس العملية التفسيرية لوحدها، بل هونتيّة الوطأة الدلالية التي يرخيها الحديث المروي عن النبي الأعظم ﷺ وأهل البيت عليه السلام، إذ إن كل مورد وجدته في تفسير الآية

١- الرازي، التفسير الكبير، ج ١٣، ص ٢١٤.

٢- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٧، ص ١٠٤.

الشريفة عند علماء الإمامية كان يحالُ إلى الحديث كمكملٍ تفسيريٍّ أساسٍ. وعلى كل حال، يقول شيخ الطائفة عليه السلام على سبيل المثال: "مسألة ١: يجب في المال حق سوى الزكاة المفروضة، وهو ما يخرج يوم الحصاد من الضغث بعد الضغث، والحفنة بعد الحفنة يوم الجذاذ، وبه قال الشافعي والنخعي ومجاهد. وخالف جميع الفقهاء في ذلك. دليلنا: إجماع الفرقة وأخبارهم. وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ فأوجب إخراج حقه يوم الحصاد، والأمر يقتضي الوجوب، والزكاة لا تجب إلا بعد التصفية والتذرية، وبلوغه المبلغ الذي يجب فيه الزكاة"^(١).

الخلافا بين الفريقين

ولكن رأينا أن جمهور علماء أهل السنة يقولون خلافاً ما يقوله جمهور علماء الإمامية، فكيف يدفع الإمامية إشكالات أهل السنة في استدلالهم على عدم دلالة الآية على الزكاة المفروضة؟

يقول ابن زهرة الحلبي رحمه الله في الغنية: "تعلق المخالف بقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، لا يصح لأننا نقول له: لم قلت: إن المراد بذلك الحق المأخوذ على سبيل الزكاة؟ وما أنكرت أن يكون المراد به الشيء اليسير الذي يعطاه الفقير المجتاز، من الزرع وقت الحصاد على جهة التبرع؟ وليس له أن ينكر وقوع لفظة "حق" على المندوب، لأنه قد روى من طريقه أن رجلاً قال: يا رسول الله، هل عليّ حق في إبلي سوى الزكاة؟ فقال ﷺ: نعم، تحمل عليها وتسقى من لبنها.

ويشهد بصحة ما قلناه في الآية أمور أربعة:

أحدها: ورود الرواية بذلك عندنا.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْرِفُوا﴾ لأن الزكاة الواجبة مقدرة، والسرف لا ينهي

عنه في المقدر.

١- الطوسي، محمد بن الحسن، الخلاف، تحقيق: جماعة من المحققين، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة

المدرسين، قم، ١٤٠٧هـ ط ١، ج ٢، ص ٥.

وثالثها: أن إعطاء الزكاة الواجبة في وقت الحصاد لا يصح، وإنما يصح بعد الدياس والتصفية، من حيث كانت مقداراً مخصوصاً من الكيل، وذلك لا يؤخذ إلا من مكيل.

ورابعها: ما روي من نهيه عليه السلام عن الحصاد والجذاذ وهو صرم النخل بالليل، وليس ذلك إلا لما فيه من حرمان الفقراء والمساكين، كما قلناه. وقوله تعالى: ﴿أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾، لا يصح أيضاً التعلق به؛ لأننا لا نسلم أن اسم الإنفاق يقع بإطلاقه على الزكاة الواجبة، بل لا يقع بالإطلاق إلا على غير الواجب، ولو سلمنا ذلك لخصصنا الآية بالدليل، وتعلق المخالف بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾، وأن ذلك يدخل فيه عروض التجارة وغيرها، متروك الظاهر عندهم، لأنهم يضمرون أن تبلغ قيمة العروض مقدار النصاب، وإذا عدلوا عن الظاهر، لم يكونوا بذلك أولى من مخالفهم إذا عدل عنه، وخص الآية بالأصناف التي أجمع على وجوب الزكاة فيها ^(١).

ولكن مرّ اعتراض على الأمور الأربعة، فالأول من باب أننا نفسّر الآية بعيداً عن الرواية. والثاني أن الإسراف المنهي عنه تمنع عنه الزكاة بحدودها التي يبينها النبي كما فعل لاحقاً. والثالث، أن الواجب موسع، فلا إشكال في أن يكون الحكم في وقت الحصاد. والرابع كالأول.

ويبقى في نظري أن أهم ما يمكن الاستدلال على أن الحقّ هو مال غير الزكاة، هو إجمال الآية ومكيّتها وسياقها الذي ورد فيه أصناف من الزرع ذهب أغلب المسلمين إلى عدم ثبوت الزكاة فيها ^(٢).

١- ابن زهرة الحلبي، غنية النزوع، ص ١١٥، ١١٧.

٢- راجع على سبيل المثال: الحقائق الناضرة، المحقق البحراني، ج ١٢، ص ١٣. و فقه القرآن، القطب

الراوندي، ج ١، ص ٢١٦. الميزان في تفسير القرآن، السيد الطباطبائي، ج ٧، ص ٣٦٤.

ونجد علي بن محمد القمي يشير إلى نكتة أخرى وهي أن احتمال كون الحكم في الآية ندباً قوياً، وهذا الاحتمال كافٍ كذلك في حمل الآية على حق غير الزكاة لأن الزكاة واجبة.^(١)

وكذلك يشير العلامة الحلي^(٢) إلى نكتة ورود ذكر الرمان في سياق الآية كقرينة على عدم دلالة الآية على الزكاة المفروضة، بل على حق آخر.

● هل الأمر هنا استحبابي أم وجوبي؟

وقع الكلام كذلك في كون الأمر في الآية الكريمة واقع على معنى الوجوب أو الاستحباب.

فنحن ههنا أمام أقوال:

- ١- الاستحباب، بناءً على أن تفسير كلمة "الحق" هو الصدقة المندوبة.
 - ٢- الوجوب، بناءً على أن تفسيرها هو الزكاة المفروضة.
 - ٣- الوجوب، بناءً على تفسيرها بالصدقة الواجبة، وهي غير الزكاة المفروضة، والتي تم نسخها فيما بعد بالزكاة المفروضة.
- وذهب إلى القول الأول أي أن "المشهور النذب، ونمنع أن الأمر هنا للوجوب"^(٣)، علماء الإمامية قاطبة إلا ابن الجنيد ويونس رحمهما الله على ما نُقل عنهما. يقول الشريف المرتضى رحمته الله: "قلنا: لا اعتبار بشذوذ ابن الجنيد ولا يونس وإن كان يوافقه، والظاهر من مذهب الإمامية ما حكيناه. وقد تقدم إجماع الإمامية وتأخر عن ابن الجنيد ويونس"^{(٤) (٥)}.

١- القمي، جامع الخلاف والوفاق بين الإمامية وبين أئمة الحجاز والعراق، ص ١٣٠.

٢- العلامة الحلي، تذكرة الفقهاء، ج ٥، ص ١٧٤.

٣- العلامة الحلي، مختلف الشيعة، ج ٣، ص ٢٥٧.

٤- الشريف المرتضى، الانتصار، ص ٢٠٧.

٥- مراجع على سبيل المثال:

وساق بعض علماء الإمامية أدلة على النذب في الآية، ومن ذلك ما قاله الشريف المرتضى في الانتصار في سياق الرد على الذين قالوا بالوجوب: "فإن قالوا ظاهر قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ﴾ يقتضي الوجوب، وما ذكرتموه ليس بواجب. قلنا: إذا سلمنا أن ظاهر الأمر في الشرع يقتضي الوجوب كان لنا طريقان من الكلام:

أحدهما: أن نقول: أن ترك ظاهر من الكلام ليسلم ظاهر آخر له كترك ذلك الظاهر ليسلم هذا، وأنتم إذا حملتم الأمر على الوجوب هاهنا تركتم تعلق العطاء بوقت الحصاد، ونحن إذا حملنا الأمر في الآية على النذب يسلم لنا ظاهر تعلق العطاء بوقت الحصاد، وليس أحد الأمرين إلا كصاحبه وأنتم المستدلون بالآية فخرجت من أن تكون دليلاً لكم (أي على الوجوب)"^(١).

وأما بناءً على القول الثالث، فقد ذهب بعض علماء الإمامية وخاصة متقدمي المتقدمين إلى ثبوت حق واجب سوى الزكاة، يقول الكاظمي عليه السلام في المسالك: "روى زرارة ومحمد بن مسلم وأبو بصير في الحسن عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ فقالوا جميعاً: قال أبو جعفر عليه السلام: «هذا من الصدقة، يعطى المسكين القبض بعد القبض، ومن الجذاذ الحفنة بعد الحفنة حتى يفرغ» ونحوها من الأخبار. وبظاهرها استدلل الشيخ في الخلاف على وجوب حق في المال سوى الزكاة، كالضغث والكف عند الصرام والحصاد"^(٢)، وإن كان الكاظمي يستبعد حمل الأمر هنا على النذب.

وكذلك هو، رأي جمهرة كبيرة من علماء أهل السنة كابن حزم وغيره، وقد نقل النووي عن صاحب الحاوي أن مجاهد والنخعي يقولان: "أن الصدقة من المال وقت

= الصدوق، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه، المقنع، تحقيق: لجنة التحقيق التابعة لمؤسسة الإمام الهادي عليه السلام، قم، ١٤١٥هـ ط ١، ص ١٧٥.

المفيد، محمد بن محمد بن النعمان العكبري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٠هـ ط ٢، ص ٢٦٢.

١- م.ن.

٢- الكاظمي، مسالك الأفهام إلى آيات الأحكام، ج ٢، ص ٦٨، ٧٣.

الصرام والحصاد واجبة لقوله تعالى ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾^(١)، ونقل ابن نجيم المصري عن بعض العلماء كذلك^(٢)، وكذلك هو رأي الزمخشري بناءً على قوله بنسخ الآية بآية الزكاة كما نقلناه آنفاً.

ويبقى القول الثاني بوجوب الزكاة وهو قول جماعة من علماء أهل السنة كمالك والشافعي كما تقدم ذكره، اعتماداً على ظهور الآية في الوجوب، فضلاً عن اعتضاده بالروايات عندهم.

خلاصة المقال

تبين لنا في الخلاصة جملة من الأمور:

أولاً: اختلاف أهل السنة فيما بينهم بين من يقول بأن الآية في معرض فرض الزكاة، وبين من يقول بأنها في صدد بيان حق واجب غير الزكاة، ولم أجد من يقول بكون الحق هنا في معنى الصدقة المندوبة. ووسع بعضهم أصناف الزكاة إلى الزيتون، وبعضهم إلى الرمان، وبعضهم وسعها إلى أصناف أخرى كالبلوط والشونيز.. إلخ.

وعلى خلاف ذلك، يرى الأعم الأغلب من الشيعة بأن الآية الشريفة هي في مقام بيان الصدقة المستحبة، وظهر لنا أن مستندهم في ذلك روائي، مقابل رأي شاذ في كونها الزكاة الواجبة، فضلاً عن ذهاب جماعة من علمائنا إلى القول بوجوب صدقة غير الزكاة. بينما لم يوسع أحد منهم الأصناف إلى غير تلك التسعة المذكورة في كتبنا الفقهية.

ثانياً: يبدو بحسب تتبع أن المؤثر الحقيقي على تفسير الآية عند أهل السنة هو كون هذه الآية مدنية في عرض مكية السورة، أو دعوى النسخ، فضلاً عن تأثير المأثور الروائي على تفسير كل فرقة من المفسرين سنة وشيعة.

١- النووي، المجموع، ج ٥، صص ٥٧١.

٢- المصري، زين الدين بن إبراهيم بن محمد بن نجيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ط ١، ج ١، ص ٩٠.

وإلا فإن الاحتكام المحض لظهور النص القرآني، غاية ما يعطيه هو وجود أمر
 بوجوب إعطاء شيء من المال - غير الزكاة؛ لعدم ورودها في الآية نصاً ولا إمكان
 لتأويلها بذلك - يوم حصاد بعض المزروعات.

وفي المحصلة، وبمراجعة آراء وأقوال وأدلة الفرق الثلاثة، نجد أن الرأي الأسلم
 في تفسير الآية الكريمة - مع قطع النظر عن الدليل الروائي - هو تفسيرها بوجوب
 إعطاء حق ما من المال بعد الحصاد، لعدد من الوجوه:

- أولاً، سياق الآيات في مقام التحدي وإثبات الربوبية، يتناسب جداً مع إقرار
 فريضة مالية تؤكد سلطة الله على الأرزاق.

- ثانياً، الأمر في الآية ظاهر في الوجوب، ومع فقدان قرائن النذب، نحمله على
 الوجوب.

- ثالثاً، وجود وجوه من الضعف تقدم ذكرها في أدلة القائلين بالنذب وكذلك
 القائلين بوجوب الزكاة.

كل ذلك لولا الروايات الواردة من طريق أهل بيت العصمة عليهم السلام في أن المراد من
 الحق ههنا، استحباب إخراج شيء من المال يوم الحصاد.

* * *

الأدلة العقلية والنقلية على ولادة الإمام المهدي عليه السلام

□ الشيخ محمود سرائب (*)

تمهيد:

إن الإمامية تعتقد اعتقاداً جازماً غير قابل للشك - بغض النظر عن طبيعة الأدلة - بأن الإمام المهدي قد ولد فعلاً. وتقطع بأنه ابن الإمام الحسن العسكري، وأنه حي يُرزق إلى يومنا هذا؛ لأن الأرض لا تخلو من حجة. وتمتلك على هذا المعتقد أدلة قطعية يقينية لا يمكن أن يرقى إليها الشك - طبعاً نحن نتكلم عن مجموع الأدلة لا عن أحادها -.

وإذا كانت المسألة بهذا الوضوح، فلماذا نحتاج إلى عقد أبحاث مفصلة لإثبات ولادة المهدي؟! قد يقال السبب الأساس في هذا المجال هو ما عرضه المخالفون من شبهات واهية في ما يرتبط بولادته وما نسبته ابن تيمية وغيره إلى بعض علماء الأنساب بأن الإمام العسكري لا عقب له وهذه الشبهات وغيرها نخشى أن تتسرب إلى عقول بعض المؤمنين ممن لا يمتلكون ثقافة مهدوية متناسبة مع هذه الموضوعات. ولذا، هذا البحث معقود لبيان متانة المعتقد وهشاشة الشبهات، لا لإقامة الأدلة على ولادة الإمام التي تعتبر من ضروريات المذهب.

وسنقسم البحث في إثبات ولادة الإمام المهدي إلى قسمين أدلة عقلية، وأدلة نقلية نستعرضها تباعاً.

أولاً: الأدلة العقلية:

١. منهج البحث في إثبات الولادة:

وقبل عرض الأدلة نبين المقدمات المنهجية الآتية:

١- كيف يتم إثبات القضايا التاريخية؟

إن أي مسألة تاريخية نريد إثباتها فهناك طريقان لإثباتها:
الأول: طريق التواتر.

الثاني: طريق حساب الاحتمال.

الطريق الأول: فهو ما نعتمد فيه على الخبر المتواتر والتواتر يعني: أن يخبر بالقضية مجموعة كبيرة من المخبرين بحيث لا نحتمل اجتماعهم واتفاقهم وتواطئهم على الكذب، فإذا كان خبر من الأخبار جاء ثلاثمائة شخص أو مائتا شخص أخبرونا به، وكل واحد نفترضه من مكان غير مكان الآخر، في مثل هذه الحالة لا نحتمل تواطؤ الجميع واتفاقهم على الكذب، مثل هذا الخبر يقال له الخبر المتواتر. هذا طريق لتحصيل العلم بالقضية والمسألة التاريخية.

الطريق الثاني: أن نفترض أن الخبر ليس متواتراً، كما إذا أخبر به واحد أو اثنان أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة من دون تواتر، ولكن انضمت إلى ذلك قرائن من هنا وهناك، يحصل العلم بسببها على مستوى حساب الاحتمال.

وفائدة اعتماد قانون حساب الاحتمال في القضايا التاريخية والعقائدية وغيرهما هو أن منطق قواعد حساب الاحتمال وقوانينه الرياضية في تحصيل اليقين الموضوعي من تراكم الأخبار على محور واحد، يستحيل معه أن لا يكون ذلك المحور صادقاً ومنطقاً مع الواقع.

٢- لا يشترط وثاقة الرواة في الخبر المتواتر.

لا يلزم في الخبر المتواتر أن يكون المخبر من الثقات، فإن اشتراط الوثاقة في المخبر يلزم في الخبر غير المتواتر، كما إذا جاءنا شخص واحد أو اثنان أو ثلاثة وأخبرونا بقضية، هنا يشترط أن يكون المخبر - لأجل أن يكون هذا الخبر حجة - عادلاً، أما لو كانت القضية أخبر بها مائة أو مائتان أو ثلاثمائة، يعني العدد كان يشكل التواتر فليس من الضروري عدالة المخبر؟ فالعدالة والوثاقة هي شرط في الخبر غير المتواتر.

والسبب في ذلك أن الخبر المتواتر حسب الفرض يفيد العلم، لكثرة المخبرين، وبعد ما أفاد العلم لا معنى لاشتراط الوثاقة والعدالة، إذ المفروض أن العلم حصل، وليس بعد العلم شيء يقصد، فلا معنى إذن لاشتراط الوثاقة والعدالة في باب الخبر المتواتر، وهذه قضية بديهية.

٣- في اختلاف الأخبار في الخصوصيات واشتراكها في مدلول واحد.

إذا فرض أن لدينا مجموعة من الأخبار تختلف في الخصوصيات والتفاصيل، لكن الجميع يشترك في مدلول واحد من زاوية، فالأخبار الكثيرة إذا اتفقت من زاوية على شيء معين فالعلم يحصل بذلك الشيء، وإن اختلفت هذه الأخبار من الجوانب الأخرى في التفاصيل.

فليس من حقنا أن نناقش في روايات الإمام المهدي ونقول: هذه مختلفة في التفاصيل، واحدة تقول بأن أم الإمام المهدي اسمها نرجس، والثانية تقول إن أم الإمام اسمها سوسن، والثالثة تقول اسمها شيء ثالث، أو أن واحدة تقول ولد في هذه الليلة، والثانية تقول ولد في تلك الليلة، أو واحدة تقول ولد في هذه السنة، والأخرى تقول في السنة الأخرى، فعلى هذا الأساس هذه الروايات لا يمكن أن نأخذ بها، وليست متواترة وليست مقبولة، لأنها تختلف في التفاصيل، ولا تنفع في إثبات التواتر وفي تحصيل العلم بولادة الإمام، لأنها مختلفة ومتضاربة فيما بينها حيث اختلفت بهذا الشكل.

إنه باطل؛ لأن المفروض أن كل هذه الأخبار متفقة في جانب واحد، وهو الإخبار بولادة الإمام، ولئن اختلفت فهي مختلفة في تفاصيل وخصوصيات أخرى، لكن في أصل ولادة الإمام هي متفقة، فالعلم يحصل والتواتر يثبت من هذه الناحية .
٤- الاجتهاد في مقابل النص.

ليس من حق شخص أن يجتهد في مقابل النص، فإذا كان عندنا نص صريح الدلالة وتام السند من كلتا الجهتين، فلا حق لأحد أن يأتي ويقول أنا أجتهد في هذه المسألة^(١).

٢- الأدلة العقلية على إثبات الولادة:

إن الأدلة العقلية على وجود الإمام المهدي تثبت وجوب وجود الإمام إلى آخر الزمان كذلك تثبت وجوب وجود الإمام من أول الزمان بمعنى نحن نلتزم بوجود حجة لله سبحانه على الناس قبل ولادة وبعثة النبي محمد وبعد رفع النبي عيسى، وهذا أمر ضروري وهو ما أكدت عليه النصوص الإسلامية في القرآن والروايات.
والدليل العقلي الذي سنعرضه مكون من عدة مقدمات وتدلل عليه قاعدة اللطف.
فالعقل يجزم ويحكم بالعدل لله سبحانه وتعالى، ويحكم بقبح أن يترك الله أمته سدى بدون قيم وإمام.

والعقل يحكم بوجوب الإمام بدليل اللطف لما ثبت من كون الإمام لطفاً من الله تعالى ولا يتم التكليف بدونها، فمقتضى كرمه تعالى أن يهيئ لعباده وسائل الطاعة ويصرفهم عن طرق الفساد، وهو لطف والله لطيف بعباده، والإمامة من الألفاظ الإلهية التي لا يحسن التكليف بدونها فجرت مجرى سائر الألفاظ الإلهية، إذ الأمة محتاجة إلى أخذ معالم دينها من الإمام، والإمام لا يكون عندنا إلا من هو عالم بجميع ما تحتاج إليه الرعية.

ولكن مع كون هذه الأدلة عقلية إلا أنها تثبت الإمامة بشكل عام ومن ضمنها إثبات وجود الإمام المهدي؛ لكون العقل لا يستطيع إثبات الأمور الجزئية الخارجية

١ - ينظر: الإمام المهدي عليه السلام بين التواتر وحساب الاحتمال، الشيخ محمد باقر الإيرواني، ص ١٥ - ٢٠.

فهي لا يمكن إثباتها إلا بالأدلة الشرعية وهي الآيات القرآنية وأحاديث المعصومين، ومع ذلك فإن إثبات الإمامة ووجوب وجود الإمام في كل زمان يكفي في إثبات وجود الحجة الغائب في هذا الزمان.

أما مقدمات الدليل على الشكل الآتي:

المقدمة الأولى: الله تعالى 'خلق الخلق لهدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور. المقدمة الثانية: إخراج الخلق من الظلمات إلى النور حتى يصلوا إلى الكمال يتوقف على وجود مربٍّ عالمٍ متَّصفٍ بالكمال، وهذا العالم الذي يريد أن يوصلنا إلى الكمال ويُخرجنا من الظلمات بحكم العقل لا بدَّ أن يكون متَّصفاً بالكمال والعدل حتى يملأها قسطاً وعدلاً. فلا يمكن عقلاً أن يُرسل الله عز وجل لنا من يظلم ومن يعمل صالحاً وسيئاً ويكلفه بأن يُخرجنا من الظلمات إلى النور، وأن يملأها قسطاً وعدلاً، ففاقد الشيء لا يُعطيه، وقد جسد ذلك رسول الله وبعده خلفاؤه الأئمة الراشدون الطاهرون الكاملون بالعلم والعصمة، وحيث استشهد الأئمة الأحد عشر الأئمة الأطهار، ولا يمكن أن تخلو الأرض من كامل عظيم معصوم يُخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ لأنَّ خلوها مع استمرار التكليف وامتداد العباد يلزم نقص الغرض الإلهي، وهذا عقلاً لا يكون، فلا بدَّ من وجود الإمام الكامل المعصوم الذي به يتحقَّق الغرض الإلهي الذي هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور ويعينهم على الطاعة ويبعدهم عن المعصية من دون إلجاء، وهذا معنى اللطف الذي أشار إليه العلامة في التجريد، فإذا العقل يعطينا دليلاً على وجوده عليه السلام ضمن المقدمات المذكورة. نعم العقل لا يُحدِّد لنا اسمه الشريف، وهذا ما يتوقَّر عليه الدليل النقلي القطعي الدالُّ على اسمه المبارك وعلى وجوده الشريف المبارك وعلى كماله وعصمته.

النتيجة: إذن من باب اللطف لا بدَّ أن يوجد لنا ربُّ العالمين بين ظهرانينا شخصاً كاملاً عالمًا، وهذا الشخص هو المعصوم، فكما أنَّ العقل يدرك أنَّ الله تبارك وتعالى

لا بدَّ أن يوجد ويوفَّر للخلق أسباب تكاملهم من عيون تبصر وآذان تسمع، فكذلك لا بدَّ من أن يوجد لهم ما به يتكاملون من الناحية المعنوية وهو وجود الإمام المعصوم^(١).

ما معنى أن وجود الإمام لطف؟

قال المحقق الطوسي في التجريد: وجوده لطف، وتصرفه لطف آخر، وعدمه منا. وأوضح ذلك العلامة الحلي في شرح التجريد بقوله: إن وجود الإمام بنفسه لطف لوجوده:

١- إنه يحفظ الشرائع ويحرسها عن الزيادة والنقصان.

٢- إن اعتقاد المكلفين بوجود الإمام وتجويز انقياد حكمه عليهم في كل وقت سبب لردعهم عن الفساد ولقربهم إلى الصلاح وهذا معلوم بالضرورة.

٣- إن تصرفه لا شك أنه لطف، وذلك لا يتم إلا بوجوده، فيكون وجوده بنفسه لطفاً وتصرفه لطفاً آخر^(٢).

إن جميع أبعاد وجود الإمام لطف، فوجوده في نفسه مع قطع النظر عن سائر أبعاده لطف، لأنه وجود إنسان كامل في النظام الأحسن، وهو مما يقتضيه علمه تعالى به ورحمته... هذا مضافاً إلى أن مقتضى تمامية الفاعل وقابلية القابل كما هو المفروض في وجود أئمتنا عليهم السلام هو لزوم وجودهم، وإلا لزم الخلف إما في تمامية الفاعل أو قابلية القابل، والأول محال لعدم العجز والنقصان والبخل فيه تعالى، والثاني خلاف المفروض، فإن قابلية الأئمة لكمال الإنسانية واضحة وبديهية عند الشيعة الإمامية وفي لسان الأخبار، فتدوم الخلافة الإلهية بوجودهم كما دل في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٣) على استمرار هذه الخلافة الإلهية، ولذا استدل الإمام الصادق عليه السلام والكاظم عليه السلام في موثقة إسحاق بن عمار على استمرار الخلافة وعدم انقطاعها بقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ والرواية: عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ عَمَّارٍ قَالَ:

١- المعارف المهدوية قراءة تمهيدية، الشيخ علي الدهنين، الفصل الأول: عقيدتنا بالإمام المهدي، ص ٤٢-٤٣.

٢- كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد (قسم الإلهيات)، (تحقيق السبحاني)، العلامة الحلي، ص ١٨٤-١٨٥.

٣- سورة البقرة، الآية ٣٠.

قُلْتُ لِأَبِي الْحَسَنِ الْأَوَّلِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): أَلَا تَدُلُّنِي إِلَى مَنْ آخِذٌ عَنْهُ دِينِي؟ فَقَالَ: هَذَا ابْنِي عَلِيُّ، إِنَّ أَبِي أَخَذَ بِيَدِي فَأَدْخَلَنِي إِلَى قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا قَالَ قَوْلًا وَفَى بِهِ (١).

إن ما يحكم به العقل هو وجوب تعيين الإمام بحسب الشخص أو الصفة، وأمره بإظهار نفسه إذا كانت المصلحة في الإظهار، وانتظار وقت المصلحة إن كانت المصلحة في الانتظار. وأما ظهوره وإظهار الإمامة للمطيعين حتى يرجعوا إليه فيما احتاجوا إلى الرجوع فيه وعدم الإعلان بالدعوى عند الخوف من الظلمة، فإنما يجب لو لم يترتب على الظهور للمطيعين مفسدة يناسب الاجتناب عنها عند الله تعالى، ولا علم لنا بعدمها، لإمكان صيرورة ظهوره للمطيع سبباً لظهوره للعدو، بسبب أن طالب الحق لا يصدقه بلا معجزة، وفي مدة التفتيش والتحير ربما يظهر للمخالف أيضاً، بل بعد التصديق أيضاً، إما بتليبس العدو عند الشيعة وزعمهم أنه منهم، أو بقلعة الحوصلة، أو بغيرهما مما لا اطلاع لنا عليه، فيصير سبباً لثرب المضرة التي لا يقابلها منفعة الظهور (٢).

الدليل العقلي على الولادة عند الشهيد الصدر:

يتخذ السيد الشهيد مسلكاً جديداً في الاستدلال على مسألة تجسيد الفكرة (فكرة المهدي) في إنسان معين هو الإمام الثاني عشر، مستفيداً من الروايات والبحث الروائي، وموظفاً ذلك بصورة مبدعة في إثبات (المهدي)، فيطرح أولاً المبررات التي يراها كافية للاقتناع ويلخصها في دليلين أحدهما أطلق عليه (الدليل الإسلامي) والآخر (العلمي) فيقول: "بالدليل الإسلامي ثبت وجود القائد المنتظر، وبالدليل العلمي نبرهن على أن المهدي ليس مجرد أسطورة وافتراض، بل هو حقيقة ثبت وجودها بالتجربة التاريخية".

١- الكافي، الشيخ الكليني، ج ١، باب الإشارة والنص على أبي الحسن الرضا (ع)، ح ٤، ص ٣١٢.

٢- سفينة النجاة، الشيخ محمد بن عبد الفتاح (سراب التنكابي)، مباحث الإمامة، ص ٤٨.

ويشرح بتقديم الدليل الإسلامي فيراه متمثلاً بمئات الروايات الواردة عن الرسول الأكرم والأئمة من أهل البيت والتي تدل على تعيين المهدي وكونه من أهل البيت، ومن ولد فاطمة، ومن ذرية الحسين وليس من ذرية الحسن، وأنه التاسع من ولد الحسين، وأن الخلفاء اثنا عشر، فإن هذه الروايات تحدد تلك الفكرة العامة وتشخصها في الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت.

ثم يقول بشأن تلك الروايات: "وهي روايات بلغت درجة كبيرة من الكثرة والانتشار - كما ورد عن طرقنا - على الرغم من تحفظ الأئمة واحتياطهم في طرح ذلك على المستوى العام وقاية للخلف الصالح من الاعتقال..".

إن الروايات الكثيرة جداً التي تشكل رقماً إحصائياً كبيراً - أي بلوغها حد التواتر كما حكى غير واحد من العلماء - يرى السيد الشهيد أن الأساس في قبولها ليس مجرد الكثرة العددية على الرغم من أنه قد استقر في الأوساط العلمية الروائية اعتبار مثل هذه الكثرة، بل هناك إضافة إلى ذلك مزايا وقرائن تبرهن على صحتها.

فالحديث الشريف عن الأئمة أو الخلفاء أو الأمراء بعده، وأنهم اثنا عشر إماماً أو خليفة أو أميراً على اختلاف متن الحديث في طرقه المختلفة، قد أحصى بعض المؤلفين رواياته فبلغت أكثر من مئتين وسبعين رواية مأخوذة من أشهر كتب الحديث عند الشيعة والسنة بما في ذلك البخاري ومسلم والترمذي وأبي داود ومسنده أحمد ومستدرك الحاكم، وقد لاحظ الشهيد الصدر هنا أن البخاري (المولود ١٩٤هـ) والمتوفى ٢٥٦هـ)، الذي نقل الحديث كان معاصراً للإمام الجواد والإمامين الهادي والعسكري وفي ذلك مغزى كبير، لأنه يبرهن على أن الحديث قد سجل عن النبي قبل أن يتحقق مضمونه، وهذا يعني أن نقل الحديث لم يكن متأثراً بالواقع الإمامي الاثني عشري أو يكون انعكاساً له، لأن الروايات المزيفة التي تنسب إلى النبي وهي انعكاسات أو تبريرات لواقع متأخر زمنياً لا تسبق في ظهورها وتسجيلها كتب الحديث، ولقد جاء الواقع الإمامي الاثنا عشري ابتداء بالإمام علي وانتهاء بالمهدي،

ليكون التطبيق الوحيد المعقول لذلك الحديث النبوي الشريف. هذا هو الدليل الإسلامي، كما اصطلح عليه السيد الشهيد، أي الدليل الروائي في إثبات المهدي.

أما الدليل الآخر الذي اصطلح عليه به (العلمي) والذي يسوقه السيد الشهيد لإثبات الوجود التاريخي للمهدي، وأنه إنسان بعينه ولد وعاش واتصل بقواعده الشعبية وبخاصته، فإن هذا الدليل يتكون كما يرى السيد الشهيد من التجربة التي عاشتها أمة من الناس فترة امتدت سبعين سنة تقريباً، وهي فترة الغيبة الصغرى.

ويعطي السيد الشهيد هنا فكرة عن هذه الغيبة، ويفلسفها، مبيناً دور القائد المهدي، ودور سفرائه الأربعة، وما صدر عنه من (توقيعات) أي رسائل وإجابات كلها جرت على أسلوب واحد، ويخط واحد وسليقة واحدة طيلة نيابة النواب الأربعة المختلفين أسلوباً وسليقة وذوقاً وخطاً وبياناً، ومثل هذا كاشف بالضرورة عن وجود (الرجل)، لأنه قد ثبت واستقر في الأوساط الأدبية وبما لا يقبل الشك أن الأسلوب هو الرجل، وكل الدارسين والمتذوقين للأدب يدركون هذه الحقيقة بوضوح.

وبعد هذه القرينة والشواهد القوية على وجود الإمام المهدي كما يؤكدها السيد الشهيد يتجه إلى منطق الاستقراء ونظرية الاحتمال لتعزيز ذلك فيقول: "لقد قيل قديماً: إن حبل الكذب قصير، ومنطق الحياة يثبت أيضاً أن من المستحيل عملياً بحساب الاحتمالات أن تعيش أكذوبة بهذا الشكل، وكل هذه المدة، وضمن كل تلك العلاقات والأخذ والعطاء ثم تكسب ثقة جميع من حولها".

وهكذا يخلص السيد الشهيد إلى القول أخيراً: "أن ظاهرة الغيبة الصغرى يمكن أن تعتبر بمثابة تجربة علمية لإثبات مالها من واقع موضوعي، والتسليم بالإمام القائد، بولادته وحياته وغيبته وإعلانه العام عن الغيبة الكبرى التي استتر بموجبها عن المسرح ولم يكشف نفسه لأحد" أي حتى يأذن الله تعالى له بالظهور لتأدية دوره ووظيفته التغييرية الكبرى "فيملاً الأرض عدلاً وقسطاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً"، كما بشر بذلك خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد ﷺ، وهذا هو ما عليه اعتقاد الإمامية، ومقتضى توقيع الإمام الثاني عشر بإعلانه الغيبة الكبرى^(١).

عوامل نشوء اليقين بولادة الإمام المهدي.

وهذه العوامل التي سنذكرها إما تفيد التواتر، أو تفيد اليقين بحساب الاحتمال. وقد أشرنا إلى تواتر خبر ولادة الإمام المهدي روى قصة الولادة أو خبرها الكثير من العلماء بأسانيد صحيحة أمثال أبي جعفر الطبري والفضل بن شاذان والحسين بن حمدان وعلي بن الحسين المسعودي والشيخ الصدوق والشيخ الطوسي والشيخ المفيد وغيرهم، ونقلها بصورة كاملة أو مختصرة أو نقل خبرها عدد من علماء أهل السنة من مختلف المذاهب الإسلامية أمثال نور الدين عبدالرحمن الجامي الحنفي في شواهد النبوة، والعلامة محمد مبین المولوي الهندي في وسيلة النجاة، والعلامة محمد خواجه بارسا البخاري في فصل الخطاب، والحافظ سليمان القندوزي الحنفي في ينابيع المودة، كما نقل خبر الولادة ما يناهز المائة وثلاثين من علماء مختلف الفرق الإسلامية بينهم عشرات المؤرخين ستة منهم عاصروا فترة الغيبة الصغرى أو ولادة الإمام المهدي عليه السلام والبقية من مختلف القرون إلى يومنا هذا في سلسلة متصلة وهذا الإحصاء يشمل جانباً من المصادر الإسلامية وليس كلها. وبين هؤلاء عدد كبير من العلماء والمؤرخين المشهورين أمثال ابن خلكان وابن الأثير وأبي الفداء والذهبي وابن طولون الدمشقي وسبط ابن الجوزي ومحي الدين بن عربي والخوارزمي والبيهقي والصفدي والياضي والقرماني وابن حجر الهيتمي وغيرهم كثير. ومثل هذا الإثبات مما لم يتوفر لولادات الكثير من أعلام التاريخ الإسلامي^(١). وسيأتي تفصيل هذه النقطة في الأدلة النقليّة.

عوامل نشوء اليقين بولادة المهدي^(٢):

إن عوامل نشوء اليقين بولادة المهدي هي على الشكل الآتي:

١- أعلام الهداية الإمام المهدي عليه السلام، المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام، الفصل الأول: نشأة الإمام محمد بن الحسن المهدي عليه السلام، ص ٨٤-٨٥. ولمزيد من الاطلاع: راجع تفصيلات أقوالهم في الاحصائية التي أوردها السيد ثامر العميدي في كتابه دفاع عن الكافي: ج ١، ص ٥٣٥-٥٩٢.

٢ ينظر: الإمام المهدي عليه السلام بين التواتر وحساب الاحتمال، الشيخ محمد باقر الإيرواني، ص ٢٣-٤٧.

العامل الأول: الأحاديث الشريفة

الأحاديث الكثيرة المسلمة بين الفريقين الإمامية وغيرهم، والتي تدل على ولادة الإمام عليه السلام، ولكن من دون أن ترد في خصوص الإمام المهدي وبعنوانه، فهي تدل على ولادة الإمام من دون أن تنصب على هذا الاتجاه، فتدل بالدلالة الالتزامية تدل على أن الإمام قد ولد وتحققت ولادته. ونستعرض بعض هذه الأحاديث لأننا في الأدلة الثقلية سنتعرض للأحاديث المرتبطة بالإمام بالخصوص.

ومن هذه الأحاديث الآتي:

الحديث الأول: حديث الثقلين، الذي هو حديث متواتر بين الإمامية والعامية، ولا مجال للمناقشة في سنده، وقد قاله النبي في مواطن متعددة: في حجة الوداع، في حجرته المباركة، في مرضه، وفي...، فإذا رأينا اختلافاً في بعض ألفاظ الحديث فهو ناشئ من اختلاف مواطن تعدد ذكر النبي لهذا الحديث: "إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، أحدهما أكبر من الآخر، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض". لاحظوا: "ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض"، يعني أن الكتاب مع العترة، من البداية، من زمان النبي إلى أن يردا عليه الحوض.

وجه الاستدلال بالحديث: وهذا يدل على أن العترة الطاهرة مستمرة مع الكتاب الكريم، وهذا الاستمرار لا يمكن توجيهه إلا بافترض أن الإمام المهدي قد ولد ولكنه غائب عن الأعين، إذ لو لم يكن مولوداً وسوف يولد في المستقبل لأفترق الكتاب عن العترة الطاهرة، وهذا تكذيب - والعياذ بالله - للنبي، فهو يقول: "ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض" هذا لازمه أن العترة لها استمرار وبقاء مع الكتاب إلى أن يردا علي النبي، وهذا لا يمكن توجيهه إلا بما قلت: إن الإمام المهدي قد ولد ولكنه غائب، وإلا يلزم الإخبار على خلاف الواقع.

وهذا حديث واضح الدلالة، يدل على ولادة الإمام، لكن كما قلت هذا الحديث لم يرد ابتداءً في الإمام المهدي، وإنما هو منصب على قضية ثانية: "وإنهما لن يفترقا، لكن نستفيد منه ولادة الإمام بالدلالة الالتزامية.

الحديث الثاني: حديث الاثني عشر، وهذا الحديث ليس له تطبيق معقول ومقبول إلا على الأئمة الاثني عشر.

وجه الاستدلال بالحديث: وهذا الحديث بالملازمة يدل على ولادة الإمام المهدي، إذ لو لم يكن مولوداً الآن، والمفروض أن الإمام العسكري استشهد، ولم يحتمل أحد أنه موجود، إذن كيف يولد الإمام المهدي من أب هو متوفى. فلا بد وأن نفترض أن ولادة الإمام قد تحققت، وإلا هذا الحديث يعود تطبيقه غير وجيه. فهذا الحديث بالدلالة الالتزامية يدل على ولادة الإمام.

الحديث الثالث: قوله عليه السلام: "من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية"، هذا أيضاً يرويه أهل السنة، ويرويه الشيخ الكليني في الكافي، فهو مسلم عند السنة والشيعة.

وجه الاستدلال بالحديث فإذا لم يكن الإمام المهدي مولوداً الآن، فهذا معناه نحن لا نعرف إمام زماننا، فميتتنا ميتة جاهلية.

فالحديث يدل على أن كل زمان لا بد فيه من إمام، وكل شخص مكلف بمعرفة ذلك الإمام ومكلف بأن لا يموت ميتة جاهلية، فلو لم يكن الإمام مولوداً إذن كيف نعرف إمام زماننا؟

العامل الثاني: إخبار النبي والأئمة عليهم السلام بأنه سوف يولد للإمام العسكري ولد يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ويغيب، ويلزم على كل مسلم أن يؤمن بذلك.

هذه الأحاديث كثيرة، فالشيخ الصدوق في كمال الدين جعلها في أبواب ^(١) وقد جمعت الأحاديث فكانت مائة وثلاثة وتسعين حديثاً. هذا فقط ما يرويه الشيخ الصدوق في الإكمال، وإذا ضمنا إليه ما ذكره الكليني في الكافي، والشيخ الطوسي، وغيرهما، وربما آنذاك يفوق العدد الألف رواية.

١ - باب ما روي عن النبي في الإمام المهدي، ذكر فيه خمسة وأربعين حديثاً. ثم بعد ذلك ذكر باب ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في الإمام المهدي. ثم باب عن الزهراء سلام الله عليها وما ورد عنها في الإمام المهدي عليه السلام، ذكر فيه أربعة أحاديث. ثم عن الإمام الحسن عليه السلام، ذكر فيه حديثين. ثم عن الإمام الحسين عليه السلام، ذكر فيه خمسة أحاديث. ثم عن الإمام السجاد عليه السلام، ذكر فيه تسعة أحاديث. ثم عن الإمام الباقر عليه السلام، ذكر فيه سبعة عشر حديثاً. ثم عن الإمام الصادق عليه السلام، ذكر فيه سبعة وخمسين حديثاً.

هذه جملة من الأحاديث، وهي بهذا الصدد كثيرة، رواها الكليني في الكافي والشيخ في الغيبة وغيرهما، وهي تشكل في الحقيقة مئات الأحاديث في هذا المجال. هذه الكثرة تجعل هذه الأحاديث من حيث السند متواترة ولا معنى للمناقشة فيها، وهي واضحة غير قابلة للاجتهاد، وإلا لكان ذلك اجتهاداً في مقابل النص. هذا هو العامل الثاني من عوامل نشوء اليقين بولادة الإمام المهدي.

العامل الثالث: رؤية بعض الشيعة للإمام المهدي، كما حدثت به مجموعة من الروايات.

ينقل الشيخ الكليني عن محمد بن عبد الله ومحمد بن يحيى جميعاً عن عبد الله بن جعفر الحميري.

وهذا السند في غاية الصحة والوثاقة، فالشيخ الكليني معروف إذا حدث هو مباشرة بكلام يحصل من نقله اليقين، ومحمد بن عبد الله هو محمد بن عبد الله بن جعفر الحميري من الثقات الأجلة الأعظم، ومحمد بن يحيى العطار هو أستاذ الشيخ الكليني من الأعظم الأجلة، فاثنتان من أعظم مشايخ الكليني الكبار ينقل عنهم، وعبد الله بن جعفر الحميري معروف بالوثاقة والجلالة.

مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَمُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى جَمِيعاً، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرِ الْحَمِيرِيِّ، قَالَ: اجْتَمَعْتُ أَنَا وَالشَّيْخُ أَبُو عَمْرٍو ^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ عِنْدَ أَحْمَدَ بْنِ إِسْحَاقَ، فَغَمَزَنِي أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاقَ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنِ الْخَلْفِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا عَمْرٍو، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ شَيْءٍ، وَمَا أَنَا بِشَاكٍ فِيمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْهُ، فَإِنَّ اعْتِقَادِي وَدِينِي أَنَّ الْأَرْضَ لَا تَخْلُو مِنْ حُجَّةٍ إِلَّا إِذَا كَانَ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بَارْعَيْنِ يَوْماً فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ رُفِعَتِ الْحُجَّةُ وَأُغْلِقَ بَابُ التَّوْبَةِ، فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً فَأَوْلِيكَ أَشْرَارٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُمْ الَّذِينَ تَقُومُ عَلَيْهِمُ الْقِيَامَةُ، وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أَزْدَادَ يَقِيناً وَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ سَأَلَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُرِيَهُ كَيْفَ يُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ: (أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ؟)

١- هو عثمان سعيد العمري وهو أول وكيل من الوكلاء الأربعة وأول سفير منهم.

قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي وقد أخبرني أبو علي أحمد بن إسحاق، عن أبي الحسن الإمام الهادي - قال: سألته وقلت من أعامل أو عمن آخذ وقول من أقبل؟ فقال له: العمري نقتي، فما أدنى إليك عني فعني يؤدّي، وما قال لك عني فعني يقول، فاسمع له وأطع فإنه الثقة المأمون. وأخبرني أبو علي أنه سأل أبا محمد عليه السلام عن مثل ذلك فقال له: العمري وابنه ثقتان فما أدنى إليك عني فعني يؤديان، وما قال لك فعني يقولان، فاسمع لهما وأطعهما، فإنهما الثقتان المأمونان. فهذا قول إمامين قد مضيا فيك. قال: فخر أبو عمرو ساجداً وبكى، ثم قال: سل حاجتك. فقلت له: أنت رآية الخلف من بعد أبي محمد عليه السلام؟ فقال: إي والله ورقبته مثل ذاك - وأوماً بيده - . فقلت له: بقيت واحدة. فقال لي: هات. قلت: فالاسم؟ قال: محرم عليكم أن تسألوا عن ذلك، ولا أقول هذا من عندي فليس لي أن أحلل ولا أحرم، ولكن عنه عليه السلام، فإن الأمر عند السلطان أن أبا محمد مضى ولم يخلف ولداً، وقسم ميراثه، وأخذه من لا حق له فيه وهو ذا عياله يجولون، ليس أحد يجسر أن يتعرف إليهم أو يسألهم شيئاً، وإذا وقع الاسم وقع الطلب، فاتقوا الله وأمسكوا عن ذلك^١.

وهناك رواية أخرى تنقل قصة السيدة حكيمة بنت الإمام الجواد، وهذه القصة مشهورة، وسيأتي الإشارة إليها.

ونقل الشيخ الطوسي أيضاً في الغيبة، فقال: قال جعفر بن محمد بن مالك الفزاري البراز، عن جماعة من الشيعة منهم علي بن بلال^(٢) وأحمد بن هلال ومحمد بن معاوية بن حكيم والحسن بن أيوب بن نوح في خبر طويل مشهور قالوا جميعاً: اجتمعنا إلى أبي محمد الحسن بن علي عليه السلام نسأله عن الحجة من بعده، وفي مجلسه عليه السلام أربعون

١- الكافي، الشيخ الكليني، ج ١، باب في تسمية من رآه عليه السلام، ح ١، ص ٣٣٠.

٢- قال النجاشي: علي بن بلال بغدادي، انتقل إلى واسط، روى عن أبي الحسن الثالث عليه السلام، وعده الشيخ في رجاله تارة في أصحاب الجواد عليه السلام قائلاً: علي بن بلال بغدادي، ثقة، وأخرى في أصحاب الهادي وثلاثة في أصحاب العسكري عليه السلام.

رجلاً، وقام عثمان بن سعيد العمري فقال: يا ابن رسول الله أريد أن أسألك عن أمر أنت أعلم به مني، فقال له: اجلس يا عثمان، فقام مغضباً ليخرج. فقال: لا يخرجني أحد، فلم يخرج منا أحد، إلى أن كان بعد ساعة فصاح عليه السلام بعثمان فقام على قدميه، فقال: أخبركم بما جئتم؟ قالوا: نعم يا ابن رسول الله، قال: جئتم تسألوني عن الحجة من بعدي؟ قالوا: نعم، فإذا غلام كأنه قطعة قمر أشبه الناس بأبي محمد، فقال: هذا إمامكم من بعدي، وخليفتي عليكم، أطيعوه ولا تتفرقوا من بعدي فتهلكوا في أديانكم، ألا وإنكم لا ترونه من بعد يومكم هذا حتى يتم له عمر، فاقبلوا من عثمان ما يقوله، وانتهوا إلى أمره، واقبلوا قوله، فهو خليفة إمامكم والأمر إليه ^(١).

هذه أربع روايات نقلناها، والروايات في هذا الصدد كثيرة جداً، وحسبنا ما روي في رؤية الإمام الذي هو في الحقيقة يمكن أن يشكل مقدار التواتر.

العامل الرابع: وضوح فكرة ولادة الإمام المهدي بين الشيعة.

فالذي يقرأ التاريخ ويقرأ الروايات يفهم أن الشيعة من الزمان الأول كانوا يتداولون فكرة الإمام المهدي وأنه يغيب، وكانت قضية واضحة فيما بينهم، ولذلك نرى أن الناووسية ادعت أن الإمام الغائب هو الإمام الصادق، ولكن بعد وفاة الإمام الصادق اتضح بطلان هذه العقيدة، والواقفية ادعوا أن الإمام المهدي الذي يبقى هو الإمام موسى بن جعفر، وألفت النظر إلى أن هذا لا ينبغي أن يكون سبباً لتضعيف فكرة الإمام المهدي، بل بالعكس، هذا عامل للتقوية؛ لأن هذا يدل على أن هذه الفكرة كانت فكرة واضحة بين الأوساط، ولذلك ينسبون إلى بعض الأئمة نسبة غير صحيحة وأن هذا هو الإمام المهدي أو ذاك. وإذا راجعنا كتاب الغيبة للشيخ الطوسي نجده يذكر بعنوان الوكلاء المذمومين عدة، منهم: محمد بن نصير النميري، أحمد بن هلال الكرخي، محمد بن علي بن أبي العزاقر الشلمغاني، وغير ذلك إلى عشرة أو

١- الغيبة، الشيخ الطوسي، ذكر أبي عمرو عثمان بن سعيد العمري، ح ٣١٩، ص ٣٥٧.

أكثر من الذين ادعوا الوكالة والسفارة عن الإمام كذباً وزوراً وخرجت عليهم اللعنة وتبرأ منهم الشيعة.

وهذا العامل أيضاً لا يكون سبباً لتضعيف فكرة الإمام المهدي وولادته وغيبته، بل هذا في الحقيقة عامل للتقوية، إذ يدل على أن هذه الفكرة كانت واضحة وثابتة، لذلك ادعى هؤلاء الوكالة كذباً وزوراً، وخرجت البراءة واللعنة في حقهم.

العامل الخامس: السفراء الأربعة.

إن قضية السفراء الأربعة وخروج التوقيعات بواسطتهم قضيتهم واضحة في تاريخ الشيعة، ولم يشكك فيها أحد من زمان الكليني الذي عاصر سفراء الغيبة الصغرى ووالد الشيخ الصدوق علي بن الحسين وإلى يومنا، إنه لم يشكك أحد من الشيعة في جلالة هؤلاء السفراء ولم يحتمل كذبهم على الإطلاق.

العامل السادس: تصرف السلطة العباسية.

فإن تاريخ الإمامية وغيرهم ينقل أن المعتمد العباسي بمجرد أن وصل إلى سمعه أنه ولد للإمام مولود أرسل شرطته إلى دار الإمام وأخذوا جميع نساء الإمام واعتقلوهن حتى يلاحظوا الولادة ممن؟ طبعي بعض التاريخ ينقل أن القضية كلها كانت بإرشاد جعفر عم الإمام المهدي، وهذا غير مهم، فإن نفس تصرف السلطة قرينة واضحة على أن مسألة الولادة ثابتة، وإلا فهذا التصرف لا داعي إليه.

العامل السابع: أقوال علماء النسب.

إن كلمات المؤرخين وأصحاب التاريخ والنسب من غير الشيعة واضحة في ولادة الإمام المهدي. وسيأتي تحقيق حول نسب الإمام ورد الشبهات على ذلك.

العامل الثامن: اتفاق الشيعة.

إن تباني الشيعة واتفاقهم من زمان الكليني ووالد الشيخ الصدوق وإلى يومنا هذا على فكرة الإمام المهدي وغيبته، وفي كل طبقات الشيعة لم نجد من شكك في ولادة الإمام وفي غيبته، وهذا من أصول الشيعة وأصول مذهبهم. هذه عوامل ثمانية لنشوء اليقين، فنحن إما أن نسلم بكثرة الأخبار وتواترها ووضوح دلالتها على الغيبة، ومعه فلا يمكن لأحد أن يجتهد في مقابليها؛ لأنه اجتهد في مقابلة النص.

أو لا نسلم التواتر، ولكن بضميمة سائر العوامل إلى هذه الأخبار التي منها: تباني الشيعة، وكلمات المؤرخين، ووضوح فكرة الإمام المهدي وولادته بين طبقات الشيعة من ذلك التاريخ السابق، وتصرف السلطة، ومسألة السفارة والتوقيعات، وغير ذلك من العوامل يحصل اليقين بحقانية القضية.

ثانياً: الأدلة الثقلية

قبل الدخول بعرض الأدلة الروائية والتاريخية على ولادة الإمام المهدي لا بد من الإشارة إلى عدة نقاط منهجية في هذا المجال.

أولاً: لا ميزة للدليل التاريخي على غيره في مسألة إثبات الولادة، بل ينبغي الأخذ بكل دليل صحيح يثبت المطلوب فالإمام ثبتت ولادته بالأدلة العقلية كما تقدم.

ثانياً: إذا أفادت الأدلة القطع أو الاطمئنان للباحث فينبغي العمل بمضامينها ومدلولاتها، كالأدلة العقلية القطعية، أو الأدلة الروائية المتواترة أو الصحيحة وهي متقدمة رتبة على الدليل التاريخي في حال إفادته الظن، وإلا فإنه وفي أحسن الحالات يتساوى الدليل التاريخي مع باقي الأدلة ولا معنى لحصر الأدلة فيه، ثم التوصل إلى نتيجة مفادها نفي ولادة المهدي باعتبار التشكيك أو رفض الأدلة التاريخية؛ لأن نفي

الأخص لا يلزم منه نفي الأعم فلو لم تثبت ولادته بالأدلة التاريخية وبأقوال المؤرخين لا يعنى عدم ثبوتها بالمطلق بل قد تثبت بالأدلة أخرى كما هو الحال واقعاً.

ثالثاً: إن ثبوت ولادة أي شخص لا يُحتاج فيه إلى دليل تاريخي قطعي، وإلا لانتفى ثبوت كثير من الشخصيات المعروفة في التاريخ، فإن ولادتهم لم تثبت بدليل تاريخي قطعي متواتر.

رابعاً: إن ثبوت الولادات في عموم الأشخاص يُرجع فيه إلى والد الشخص نفسه، فإذا ثبت عنه برواية واحدة صحيحة أنه قد اعترف بأنه قد وُلد له مولود، فحينئذ لا بد من تصديقه والإقرار له به، وسيأتي أن الإمام العسكري أقرَّ بأنه قد وُلد له الخلف من بعده.

خامساً: إن لم نقل بولادة الإمام المهدي عليه السلام فإنه تلزم محاذير كثيرة منها: خلو هذا العصر وما قبله من الأعصار من إمام صالح للإمامة، وخلو هذا العصر من إمام من العترة الطاهرة، أو يلزم من ذلك عدم إمكان تفسير بعض الأحاديث النبوية المقطوعة الصدور عن النبي بين الفريقين من حديث الثقلين، أو حديث من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية، إلى غيرها من المحاذير.

١. الفرق بين المنهج الفقهي والتاريخي.

قد يخلط جملة من الباحثين في القضايا المهدوية أو غيرها بين المنهج الفقهي والمنهج التاريخي ويشترط في الروايات التاريخية ما يشترطه في الروايات الفقهية من ناحية صحة السند. والحال أن هذا الكلام من الناحية المنهجية غير صحيح وغير دقيق ويُعبر عن عدم فهم لاختلاف العلوم وتمايز مناهج الأبحاث. ولتوضيح هذه المسألة لا بد من الإلتفات إلى الأمور التالية:

١- في القضايا الفقهية يُبحث عن المنجزية والمعدرية وإسناد النتيجة إلى المولى الله سبحانه وتعالى، فما لم يكن الدليل حجة أو متتهياً إلى ما هو حجة فلا يصلح للمنجزية والمعدرية، ويكون الإسناد والحال هذه افتراء على الله تعالى كما قال تعالى

﴿قُلْ أَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾^(١) هذا في باب الأحكام فلا بد أن يكون المستند حجة يصح الاستناد إليه. يقول السيد الشهيد الصدر رحمته: "وهناك جانب ثالث في القطع غير المنجزية والمعدرية، وهو جواز إسناد الحكم المقطوع إلى المولى، وتوضيح ذلك أن المنجزية والمعدرية ترتبطان بالجانب العملي فيقال: إن القطع بالحرمة منجز لها بمعنى أنه لا بد للقاطع أن لا يرتكب ما قطع بحرمة، وأن القطع بعدم الحرمة معذر عنها، بمعنى أن له أن يرتكب الفعل، وهناك شيء آخر وهو إسناد الحرمة نفسها إلى المولى، فإن القطع بحرمة الخمر يؤدي إلى جواز إسناد الحرمة إلى المولى، بأن يقول القاطع: إن الشارع حرم الخمر لأنه قول بعلم، وقد أذن الشارع في القول بعلم، وحرّم القول بلا علم"^(٢).

وأما في القضايا التاريخية فلا يراد إثبات منجزية أو معدرية لكن لا يعني ذلك عدم ثبوت منهج ومعايير للقضايا التاريخية ولكن ليس المطلوب على سبيل المثال في مقتل سيد الشهداء عليه السلام وأحداث كربلاء صحة السند، أو ما نحن فيه من روايات الولادة أن تكون كل الروايات صحيحة وحسب موازين علم الرجال.

قال الشيخ مرتضى الأنصاري رحمته في التنبيه الرابع من رسالته التسامح في أدلة السنن: "حكى عن الشهيد الثاني رحمته في الدراية أنه قال: جوز الأكثر العمل بالخبر الضعيف في نحو القصص والمواعظ وفضائل الأعمال، لا في صفات الله وأحكام الحلال والحرام، وهو حسن حيث لم يبلغ الضعيف حد الوضع والاختلاق. أقول (الشيخ الأنصاري): المراد بالخبر الضعيف في القصص والمواعظ هو نقلها واستماعها وضبطها في القلب وترتيب الآثار عليها، عدا ما يتعلق بالواجب والحرام. والحاصل: أن العمل بكل شيء على حسب ذلك الشيء، وهذا أمر وجداني لا ينكر، ويدخل حكاية فضائل أهل البيت عليهم السلام ومصائبهم، ويدخل في العمل بالأخبار بوقوعها

١- سورة يونس، الآية ٥٩.

٢- دروس في علم الأصول، السيد محمد باقر الصدر، جواز الإسناد إلى المولى، ص ١٦١.

من دون نسبة إلى الحكاية على حد الأخبار بالأمور الواردة بالطرق المعتبرة، بأن يقال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يصلي كذا ويبكي كذا، ونزل على مولانا سيد الشهداء عليه السلام كذا وكذا، ولا يجوز ذلك في الأخبار الكاذبة، وإن كان يجوز حكايتها، فإن حكاية الخبر الكاذب ليس كذباً، مع أنه لا يبعد عدم الجواز إلا مع بيان كونها كاذبة^(١).

٢- إن الحجية والدليل الإثباتي لا ينحصر ولا يقتصر على الطريق الصحيح وخبر الواحد المعتبر، لا في البحث الفقهي ولا في بحوث العلوم الأخرى، بل هناك الطرق الأخرى أعظم شأنًا واعتباراً من الخبر الواحد الصحيح، فإن الخبر المتواتر والمستفيض والموثوق أعلى حجية منه؛ وذلك لقوة درجة الاطمئنان عن الظن المتوفر في خبر الواحد الصحيح والخبر المتواتر والمستفيض والموثوق بصدوره لا يعتمد على انفرادية الخبر وآحاديته بل يعتمد على تجمع ومجموع الطرق وتراكم عددها من الناحية الكمية ومن الناحية الكيفية أي من جهة القرائن والشواهد المتقارنة والمتعاضدة والمتظافرة، وهذا يعطي رصيماً في قوة احتمال الصدق أكثر بكثير من آحادية الخبر الواحد المنفرد، بل إن جملة علماء الإمامية في القرن الثالث والرابع والخامس بل جلهم لا يعتمد على آحادية الخبر الواحد ولو كان صحيحاً، بل يعتمدون على الاستفاضة والتراكم للقرائن وتكررها تراكمياً فلاحظ ما كتبه الشيخ المفيد في الإرشاد من تاريخ المعصومين وكذلك الشيخ الطبرسي في كتابه إعلام الوري وغيرهما في بقية الكتب في تاريخ المعصومين، ولا يخفى أن مخزون القرائن والشواهد لا يحافظ عليه إلا بسبر واستقصاء كل المصادر والكتب وعلى ضوء المنهج التراكمي والتصاعد الكيفي للدلائل والشواهد والقرائن، فإنه لا يفرط في أية قصاصة ولا يفرط بأية قرينة، ولا يفرط بأي معطى مهما ضعفت هي في نفسها؛ لأن القيمة الاستدلالية لا تتمنها ولا توزنها بما هي منفردة فقط، بل بما هي تنضم تراكمياً مع غيرها من عشرات ومئات وآلاف القصاصات والقرائن والمعطيات والدلائل. فإن ضعفها بمفردها وانفرادها لا يعني ضعفها منضمة ومجتمعة مع غيرها وهذه (حقيقة واقعية منهجية معرفية منطقية تكوينية) قد انتهجها جميع عقلاء البشر، فأنك ترى أن المحقق الجنائي على صعيد

١- رسائل فقهية، رسالة في التسامح في أدلة السنن، الشيخ الأنصاري، الرابع: هل يجوز العمل بالخبر الضعيف

في نحو القصص والمواعظ؟، ص ١٥٨.

الحوادث الفردية أو الحوادث والنزاعات الدولية لا يفرط ولا يتهاون بأية قصاصة ومعطى مهما تضاعلت نسبة احتمال إيصالتها للواقع، بل يكثرثون ويحافظون ويختزنون كل شاردة وواردة وكل صغيرة وكبيرة وكل جليل ودقيق فإنها لربما كانت رأس الخيط الذي منه ينفث باب الحقيقة المجهولة المغمورة، وكم كانت قرينة ضعيفة بمفردها تعاضدت بعد ذلك بعشرات أو مئات القرائن الأخرى فكانت طريقاً مفتاحاً للوصول إلى الحقيقة الواسعة، وعلى ضوء ذلك فإن الحفاظ والاحتفاظ بالتراث والكتب تعاهدها بالدراسة والمدارسة والتنقيب والبحث أمر حضاري تمدني علمي معرفي تحقيقي وإهمالها ضياع للعلم والحقيقة والمعرفة وتوغل في الجهالة وابتعاد عن الوصول إلى الواقعية^(١).

٢. الأدلة النقلية على ولادة الإمام المهدي.

الأدلة النقلية على ولادة الإمام المهدي يمكن تقسيمها إلى نوعين: الأدلة النقلية العامة، الأدلة النقلية الخاصة.

الأدلة النقلية العامة:

هناك عدة روايات متواترة تدل بالملازمة على وجود الإمام المهدي وقد تقدم الكلام عنها.

الأدلة النقلية الخاصة:

إن الروايات التي تحدثت عن نسب الإمام المهدي من الإمام علي إلى الإمام الحسين وصولاً إلى الإمام الحسن العسكري هي روايات متواترة قطعاً، وبمنظرة إجمالية وسريعة على عدد هذه الروايات حسب ما أحصاه آية الله الشيخ لطف الله الصافي گلپايگاني (دامت بركاتة) في كتاب منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر نصل إلى صحة ما قلناه من تواتر الروايات فقد ذكر الشيخ الصافي (دام ظله) ما يقارب (٢٤١٠) حديثاً جاء فيها ذكر نسب الإمام المهدي وهي على الشكل التالي: (٢١٤) حديثاً أنه من ولد أمير المؤمنين علي عليه السلام، (١٩٢) حديثاً أنه من ولد سيدة نساء العالمين

١ - ينظر: إضاءات عاشورائية-٤، الفرق بين المنهج الفقهي والمنهج التاريخي، الشيخ محمد السند.

فاطمة عليها السلام، (١٠٧) أحاديث أنه من أولاد السبطين ^(١) الحسن والحسين عليهما السلام، (١٨٥) حديثاً أنه من ولد الإمام الحسين عليه السلام، (١٦٠) حديثاً أنه من الأئمة التسعة من ولد الحسين عليه السلام، (١٤٨) حديثاً في أنه التاسع من ولد الحسين عليه السلام، (١٨٥) حديثاً في أنه من الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، (١٠٣) أحاديث في أنه السابع من ولد الباقر عليه السلام، (١٠٣) أحاديث في أنه من ولد الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام، (٩٩) حديثاً في أنه السادس من ولد الصادق عليه السلام، (١٠١) في أنه من صلب الإمام أبي إبراهيم موسى بن جعفر عليه السلام، (٩٨) حديثاً في أنه الخامس من ولد الإمام السابع موسى بن جعفر عليه السلام، (٩٥) في أنه الرابع من ولد أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام، (٩٠) حديثاً في أنه الثالث من ولد الإمام محمد بن علي الرضا عليه السلام، (٩٠) حديثاً في أنه من ولد الإمام أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن موسى الرضا عليه السلام، (١٤٦) حديثاً في أنه خلف أبي الحسن وابن أبي محمد الحسن عليه السلام، (١٤٧) حديثاً على أن اسم أبيه الحسن عليه السلام، (٩) أحاديث في أنه ابن سيدة الإمام وخيرتهن، (٢) حديثان في أنه إذا توالى ثلاثة أسماء محمد وعلي والحسن كان الرابع هو القائم، (١٣٦) حديثاً يدل على أنه الثاني عشر من الأئمة وخاتمهم عليه السلام ^(٢).

٣. الإمام الصادق ورده على شبهة عدم ولادة الإمام المهدي:

صحيح أنه في زمن الإمام الصادق لم تكن شبهة الولادة مطروحة أصلاً، وهكذا جملة من الشبهات الأخرى المرتبطة بالإمام المهدي، ولكن الإمام ومن باب تحصين المجتمع الإمامي وتوعيته بالثقافة المهدوية الصحيحة كان يحرص على إخبار أصحابه ببعض الشبهات التي تتعرض لها الثقافة المهدوية ويرد عليها بيان يتناسب مع ثقافة ذلك العصر ومن هذه الأمور شبهة الولادة.

١ - معنى كونه من أولاد السبطين الحسن والحسين - مع أنه المقطوع به حسب الأدلة أن الإمام حسيني النسب لا حسني - هو انتسابه إليهما لكون أم الإمام الباقر هي فاطمة والتي ترجع إلى الإمام أبي محمد السبط الأكبر المجتبي فالإمام الباقر ومن بعده من الأئمة إلى الإمام المهدي من نسل الإمامين الحسن والحسين.

٢ - راجع: منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر عليه السلام، الشيخ لطف الله الصافي كلباي گاني، من ص ١٩٣ -

وقد بين الإمام الصادق في بعض أحاديثه الحيرة التي ستصيب الناس في مسألة ولادة الإمام المهدي، ولذا عندما نرجع إلى نصوص علمائنا كالشيخ النعماني، والشيخ المفيد، والشيخ النوبختي، وأمثالهم فقد نقلوا وجود اختلاف بين الناس بعد شهادة الإمام العسكري عليه السلام، فمنهم من قال: مات الإمام العسكري بلا عقب، ومنهم من قال: مات بعد ولادته، ومنهم من قال: ولد قبل وفاة أبيه بسنتين. وقد نبه على كل ذلك الإمام جعفر الصادق في أحاديثه ومن هذه الأحاديث:

- أَمَا وَاللَّهِ لَيَغَيِّنَ إِمَامُكُمْ سَنِيئاً مِنْ دَهْرِكُمْ، وَلَتُمَحَّصَنَّ حَتَّى يُقَالَ: مَاتَ قَتْلَ هَلَكَ بِأَيِّ وَادٍ سَلَكَ...^(١).

- يَا زُرَّارَةُ، وَهُوَ الْمُنتَظَرُ، وَهُوَ الَّذِي يُشَكُّ فِي وَلَادَتِهِ، مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: مَاتَ أَبُوهُ بِلَا خَلْفٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: حَمَلٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ وَلَدَ قَبْلَ مَوْتِ أَبِيهِ بِسَنَتَيْنِ، وَهُوَ الْمُنتَظَرُ غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ أَنْ يَمْتَحِنَ الشَّيْعَةَ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَرْتَابُ الْمُبْطِلُونَ...^(٢).

- عن حماد بن عبد الكريم الجلاب، قال: "ذكر القائم عند أبي عبد الله عليه السلام، فقال: أما إنه لو قد قام لقال الناس: أنى يكون هذا وقد بليت عظامه مذ كذا وكذا؟"^(٣).

- وأما غيبة عيسى عليه السلام فإن اليهود والنصارى اتفقت على أنه قتل فكذبهم الله عز وجل بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾^(٤). كذلك غيبة القائم فإن الأمة ستكرها لطلوها فمن قائل يقول: إنه لم يولد، وقائل يفترى بقوله: إنه ولد ومات، وقائل يكفر بقوله: إن حادي عشرنا كان عقيماً، وقائل يمرق بقوله: إنه يتعدى إلى ثالث عشر فصاعداً، وقائل يعصي الله بدعواه: إن روح القائم عليه السلام ينطق في هيكلك غيره^(٥).

١ - الكافي، الشيخ الكليني، ج ١، باب في الغيبة، ح ٣، ص ٣٣٦.

٢ - (م.ن)، ح ٥، ص ٣٣٧.

٣ - الغيبة، ابن أبي زينب النعماني، باب ١٠: ما روي في غيبة الإمام المنتظر الثاني عشر وذكر مولانا أمير المؤمنين والأئمة صلوات الله عليهم أجمعين بعده وإنذارهم بها، ح ١٤، ص ١٥٧.

٤ - سورة النساء، الآية ١٥٧.

٥ - الغيبة، الشيخ الطوسي، دليل آخر على أن إمامة صاحب الأمر عليه السلام من جهة أخبار الأئمة السابقة عليه بغيته، وصفة غيبته، وحوادث زمان غيبته، ح ١٢٩، ص ١٧٠.

الروايات التي تدل على ولادته:

إن الروايات التي من الممكن الاعتماد عليها لإثبات تواتر ولادة الإمام تقسم إلى أربعة طوائف:

الطائفة الأولى: وهي الروايات المشتركة عن المعصومين من زمن رسول الله إلى زمن الإمام العسكري عليه السلام، وتذكر هذه الروايات الإمام الثاني عشر بصفاته وخصوصياته المختصة، وأنه من أولاد الحسين عليه السلام، وأنه يظهر الله الحق على يديه الشريقتين.

وهذه الروايات تذكر صفات الإمام كغيبته وحيرته وضلال الناس فيه وغيرها من العناوين المختصة بالإمام المهدي دون سائر الأئمة من آبائه سلام الله عليهم أجمعين.

الطائفة الثانية: التي ذكر فيها أنه التاسع أو السابع وهكذا، وذكر اسمه الشريف. وقد ذكرنا عدد هذه الروايات في الإحصائية المتقدمة. وهذه الروايات وردت عن الإمام علي والحسن والحسين وباقي الأئمة إلى الإمام العسكري (عليهم السلام).

الطائفة الثالثة: أولئك الذين رأوا الإمام وهو طفل في بيت والده أو في حجر والده العسكري عليه السلام.

الطائفة الرابعة: هم الذين سمعوا من الإمام أو من خدام الإمام أو من عمة الإمام بولادة الإمام المهدي ^(١).

روايات الطائفة الأولى والثانية:

وهي روايات كثيرة جداً نأخذ منها الروايات التي دلت على أن الإمام المهدي هو ابن الإمام الحسن العسكري ومنها:

”لما صالح الحسن بن علي عليه السلام معاوية بن أبي سفيان دخل عليه الناس، فلامه بعضهم على بيعته، فقال عليه السلام: ويحكم ما تدرون ما عملت! والله الذي عملت خير لشيعتي مما طلعت عليه الشمس أو غربت، ألا تعلمون أنني إمامكم مفترض الطاعة عليكم وأحد

١ - ينظر: ولادة الإمام المهدي، الشيخ بشير النجفي، سلسلة الندوات المهدوية، الندوة الثالثة، ص ٦١-٦٢-٦٣.

سيدي شباب أهل الجنة بنص من رسول الله ﷺ علي؟ قالوا: بلى، قال: أما علمتم أن الخضر عليه السلام لما خرق السفينة وأقام الجدار وقتل الغلام كان ذلك سخطاً لموسى بن عمران إذ خفي عليه وجه الحكمة في ذلك، وكان ذلك عند الله تعالى ذكره حكمة وصواباً، أما علمتم أنه ما منا أحد إلا ويقع في عنقه بيعة لطاغية زمانه إلا القائم الذي يصلي روح الله عيسى بن مريم عليه السلام خلفه، فإن الله عز وجل يخفي ولادته، ويغيب شخصه لئلا يكون لأحد في عنقه بيعة إذا خرج، ذلك التاسع من ولد أخي الحسين ابن سيدة الإمام، يطيل الله عمره في غيبته، ثم يظهره بقدرته في صورة شاب دون أربعين سنة، ذلك ليعلم أن الله على كل شيء قدير^(١).

وعبارة التاسع تدل على أن الإمام سيولد قطعاً وهو من عقب الإمام العسكري باعتبار أن الثامن هو نفس الإمام العسكري.

عن عبد الله بن شريك، عن رجل من همدان قال: سمعت الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: قائم هذه الأمة هو التاسع من ولدي، وهو صاحب الغيبة، وهو الذي يقسم ميراثه وهو حي^(٢).

قال الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام: منا اثنا عشر مهدياً، أولهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وآخرهم التاسع من ولدي، وهو القائم بالحق يحيى الله تعالى به الأرض موتها ويظهر به دين الحق على الدين كله ولو كره المشركون، له غيبة يرتد فيها قوم ويثبت على الدين فيها آخرون فيؤذون فيقال لهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣) أما إن الصابر في غيبته على الأذى والتكذيب بمنزلة المجاهد بالسيف بين يدي رسول الله^(٤).

١ - كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق، الباب التاسع والعشرون ما أخبر به الحسن بن علي عليه السلام من وقوع الغيبة، ح ٢، ص ٣١٦.

٢ - (م.ن)، الباب الحادي والثلاثون ما أخبر به علي بن الحسين عليه السلام من وقوع الغيبة، ح ٢، ص ٣١٧.

٣ - سورة يونس، الآية ٤٨.

٤ - عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق، ج ١، في قول الحسين عليه السلام: منا اثنا عشر مهدياً، ح ٣٦، ص ٦٩.

قال علي بن الحسين سيد العابدين عليه السلام: القائم منا تخفى ولادته على الناس حتى يقولوا: لم يولد بعد، ليخرج حين يخرج وليس لأحد في عنقه بيعة ^(١).

عن إبراهيم بن عطية، عن أم هانئ الثقفية، قالت: غدوت على سيدي محمد بن علي الباقر عليه السلام فقلت له: يا سيدي آية في كتاب الله عز وجل عرضت بقلبي فأقلقتني وأسهرت ليلي، قال: فسلي يا أم هانئ. قالت: قلت: يا سيدي قول الله عز وجل: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنْثِ * الْجَوَارِ الْكُنْثِ﴾ ^(٢) قال: نعم المسألة سألتني يا أم هانئ، هذا مولود في آخر الزمان، هو المهدي من هذه العترة، تكون له حيرة وغيبة يضل فيها أقوام، ويهتدي فيها أقوام، فيا طوبى لك إن أدركته، ويا طوبى لمن أدركه ^(٣).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: "عن حيان السراج قال: سمعت السيد بن محمد الحميري يقول: كنت أقول بالغلو وأعتقد غيبة محمد بن علي - ابن الحنفية - قد ضللت في ذلك زماناً، فمن الله علي بالصادق جعفر بن محمد عليه السلام وأنقذني به من النار، وهداني إلى سواء الصراط، فسألته بعد ما صح عندي بالدلائل التي شاهدتها منه أنه حجة الله علي وعلى جميع أهل زمانه وأنه الإمام الذي فرض الله طاعته وأوجب الاقتداء به، فقلت له: يا ابن رسول الله قد روي لنا أخبار عن آبائك عليهم السلام في الغيبة وصحة كونها فأخبرني بمن تقع؟ فقال عليه السلام: إن الغيبة ستقع بالسادس من ولدي وهو الثاني عشر من الأئمة الهداة بعد رسول الله صلوات الله عليهم أولهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وآخرهم القائم بالحق بقية الله في الأرض وصاحب الزمان، والله لو بقي في غيبته ما بقي نوح في قومه لم يخرج من الدنيا حتى يظهر فيملا الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ^(٤).

١ - كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق، الباب الحادي والثلاثون ما أخبر به علي بن الحسين عليه السلام من وقوع الغيبة، ح ٦، ٣٢٣.

٢ - سورة التكوين، الآية ١٥-١٦.

٣ - كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق، الباب الثاني والثلاثون ما أخبر به الباقر عليه السلام من وقوع الغيبة، ح ١٤، ص ٣٣٠.

٤ - كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق، مذهب الكيسانية، ص ٣٣.

عن المفضل بن عمر، قال: قال الصادق جعفر بن محمد عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى خلق أربعة عشر نوراً قبل خلق الخلق بأربعة عشر ألف عام فهي أرواحنا. فقيل له: يا ابن رسول الله ومن الأربعة عشر؟ فقال: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ولد الحسين، آخرهم القائم الذي يقوم بعد غيبته، فيقتل الدجال ويطهر الأرض من كل جور وظلم ^(١).

عن عبد السلام بن صالح الهروي، قال: سمعت دعبل بن علي الخزاعي يقول: لما أنشدت مولاي الرضا عليه السلام قصيدتي التي أولها:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات
فلما انتهيت إلى قولي:

خروج إمام لا محالة خارج يقوم على اسم الله والبركات
يميز فينا كل حق وباطل ويجزي على النعماء والنقمات

بكى الرضا عليه السلام بكاءً شديداً ثم رفع رأسه إلي، فقال لي: يا خزاعي نطق روح القدس على لسانك بهذين البيتين فهل تدري من هذا الإمام؟ ومتى يقوم؟ فقلت: لا يا سيدي، إلا إني سمعت بخروج إمام منكم يطهر الأرض من الفساد ويملؤها عدلاً، فقال: يا دعبل الإمام بعدي محمد ابني وبعد محمد ابنه علي وبعد علي ابنه الحسن وبعد الحسن ابنه الحجة القائم المنتظر في غيبته المطاع في ظهوره، لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج فيملأها عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، وأما متى؟ فأخبار عن الوقت، ولقد حدثني أبي عن أبيه عن آبائه عن علي عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله قيل له: يا رسول الله صلى الله عليه وآله متى يخرج القائم من ذريتك؟ فقال: مثله مثل الساعة ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ ^{(٢)(٣)}.

١ - كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق، الباب الثالث والثلاثون ما أخبر به الصادق عليه السلام من وقوع الغيبة، ح ٧، ص ٣٣٧.

٢ - سورة الأعراف، الآية ١٨٧.

٣ - عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق، ج ٢، في ذكر دعبل، ح ٥، ص ٢٩٧.

عن عبد العظيم بن عبد الله بن علي بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: دخلت على سيدي محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب عليه السلام وأنا أريد أن أسأله عن القائم أهو المهدي أو غيره؟ فابتدأني هو، فقال: يا أبا القاسم، إن القائم منا هو المهدي الذي يجب أن ينتظر في غيبته ويطاق في ظهوره، وهو الثالث من ولدي، والذي بعث محمداً بالنبوة وخصنا بالإمامة إنه لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج فيه فيملاً الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، وإن الله تبارك وتعالى ليصلح له أمره في ليلة كما أصلح أمر كليمة موسى عليه السلام إذ ذهب ليقبس لأهله ناراً فرجع وهو نبي مرسل. ثم قال عليه السلام: أفضل أعمال شيعتنا انتظار الفرج ^(١).

وقال الإمام أبو الحسن علي بن محمد الهادي عليه السلام: الإمام بعدي الحسن ابني، وبعد الحسن ابنه القائم، الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً ^(٢). وقال الإمام أبو محمد الحسن بن علي العسكري عليه السلام: أما إن له غيبة يحار فيها الجاهلون، ويهلك فيها المبطلون ويكذب فيه الوقاتون، فكأنني أنظر إلى أعلام البيض تخفق فوق رأسه بنجف الكوفة ^(٣).

ومما وجد بخطه عليه السلام: أعوذ بالله من قوم حذفوا محكمات الكتاب، ونسوا الله ربّ الأرباب، والنبي وساقى الكوثر في مواطن الحساب، ولظى والطامة الكبرى ونعيم يوم المآب، فنحن السنام الأعظم، وفيما النبوة والإمامة والكرم، ونحن منار الهدى، والعروة الوثقى، والأنبياء كانوا يغترفون من أنوارنا، ويقتفون آثارنا، وسيظهر الله مهدينا على الخلق، والسيف المسلول لإظهار الحق، وهذا بخط الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ^(٤).

١ - كفاية الأثر، الخزاز القمي، ما جاء عن الجواد من النص على ابنه، ص ٢٨١.

٢ - كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق، الباب السابع والثلاثون ما أخبر به الهادي عليه السلام من وقوع الغيبة، ح ٩، ص ٣٨٣.

٣ - (م.ن)، ما روى عن أبي محمد الحسن العسكري عليه السلام بالنص على ابنه القائم صاحب الزمان عليه السلام، ح ٩، ص ٤٠٩.

٤ - بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ح ٢٦، ٥ - باب جوامع مناقبهم وفضائلهم عليهم السلام، ح ٤٩، ص ٢٦٤.

هذا غيض من فيض، وقطر من بحر، وقليل من كثير، ومن سبر كتب الأحاديث والجوامع المعتمدة، يعرف أن النبي والأئمة من أهل بيته عليهم السلام بشروا الناس بظهور المهدي عليه السلام^(١). وأنه ولد قطعاً وهذا مما لا شك فيه ولا ريب يعتريه.

روايات الطائفة الثالثة والرابعة:

تدل على مجموعة رأوا الإمام المهدي وهو في بيت الإمام العسكري أو على حجره كالسيدة حكيمه، وأحمد بن إسحاق الأشعري القمي، وخدم الإمام وغيرهم ولكثرة هذه الروايات سننقل بعض أسماء من رأى الإمام مع الإشارة في الحاشية إلى المصدر ثم سننقل نماذج قليلة جداً من هذه الروايات الشريفة التي يؤكد أصحابها أنهم رأوا الإمام رأى العين:

محمد بن العطار،^(٢) الحسين بن علي،^(٣) حكيمه بنت محمد بن القاسم بن حمزة،^(٤) جعفر بن محمد بن مسرور،^(٥) الحسين بن محمد^(٦) وهذا بنفسه قد رأى الإمام. وعن علي بن محمد^(٧) أنه بنفسه رأى الإمام عليه السلام، وكذلك إبراهيم بن محمد بن عبد الله الذي يروي عن نسيم خادم الإمام الحسن العسكري عليه السلام^(٨) وكذلك بهذا السند جارية الإمام عليه السلام اسمها مارية^(٩).

١ - ينظر: من لهذا العالم ؟، الشيخ لطف الله الصافي الكليباكاني، ص ٢٨ - ٤٤.

٢ - إكمال الدين وإتمام النعمة، ح ١٢، ص ٤٣٥.

٣ - (م.ن)، ح ١٢، ص ٤٣٢.

٤ - أصول الكافي، ج ١، ص ٣٣٠.

٥ - إكمال الدين وإتمام النعمة: ح ٣، ص ٤٣٠.

٦ - (م.ن)، ص ٤٣٠.

٧ - الغيبة للطوسي، ص ٣٩٣.

٨ - (م.ن)، ص ٢٤٤.

٩ - إكمال الدين وإتمام النعمة، ح ٥، ص ٤٣٠.

وقد ذكر الكليني رواية أخرى بسنده عن إبراهيم بن محمد عن نسيم خادم الإمام عليه السلام.^(١) وأورد رواية أخرى عن نسيم أيضاً،^(٢) وعن محمد بن العطار وغيره عن إسحاق بن رياح البصري عن أبي جعفر العمري رأى الإمام عليه السلام طفلاً في بيت والده،^(٣) ومحمد بن العطار عن عليّ الخيزراني عن جارية الإمام الحسن العسكري عليه السلام،^(٤) والحميري عن محمد بن عثمان العمري أنه رأى الإمام في حجر والده،^(٥) محمد بن إبراهيم الكوفي والمطهرى أبو حكيم الطرقي روى قصة رؤية الإمام عليه السلام،^(٦) وعن ابن وجناء الحسن رأى الإمام عليه السلام طفلاً في بيت والده،^(٧) وعن محمد بن الحسن الكرخي يروي عن أبي هارون - رجل من أصحاب الإمام عليه السلام - أنه رأى الإمام عليه السلام في حجر والده.^(٨)

ابن المفكر الحميري، محمد بن إبراهيم عن عثمان بن سعيد العمري الذي رأى الإمام عليه السلام بنفسه.^(٩) أحمد بن عبد الله مهران عن أحمد بن محمد بن الحسن عن إسحاق القمي أنه رأى الإمام عليه السلام بأَم عينيه.^(١٠)

عن عبد الله بن عباس العلوي والحسن بن الحسين العلوي، أنه رأى الإمام عليه السلام في بيت والده.^(١١) أبو محمد بن ضيويه التستري وأبو سهل بن مرقد يروي عن عقيد خادم الإمام العسكري عليه السلام أنه رأى الإمام في حجر والده.^(١٢)

١ - الغيبة للطوسي، ص ٢٣٢.

٢ - (م. ن).

٣ - إكمال الدين وإتمام النعمة، ح ٦، ص ٤٣٠.

٤ - (م. ن)، ح ٧، ص ٤٣١.

٥ - (م. ن)، ح ٣، ص ٤٣٥.

٦ - الغيبة للطوسي، ح ٢٠٣، ص ٢٣٤.

٧ - إكمال الدين وإتمام النعمة، ح ٢٥، ص ٤٧٣.

٨ - (م. ن)، ح ١، ص ٤٧٣.

٩ - (م. ن)، ح ٩، ص ٤٠٩.

١٠ - (م. ن)، ح ٢٦، ص ٤٧٦.

١١ - الغيبة للطوسي، ح ٢٢١، ص ٢٥١.

١٢ - إكمال الدين وإتمام النعمة، ح ٢٥، ص ٤٧٣.

الصفار يروي عن محمد بن عبد الله المطهري عن حكيمة بنت محمد بن علي عليه السلام عمة الإمام العسكري عليه السلام تروي قصة ولادة الإمام، ^(١) حتى ابن زكريا يروي عن محمد بن علي عن حكيمة بنت الإمام الهادي قصة ولادة الإمام. ^(٢) وكذلك الشيخ الطوسي في غيته عن السلمغاني - قبل ارتداده - يروي عن إبراهيم بن إدريس أنه رأى الإمام في بيت والده ^(٣).

هذه الروايات عن أشخاص مختلفي الطوائف ومن مختلف الأصقاع والأمصا، كلهم قد رأوا الإمام عليه السلام وهو طفل في حجر والده، والإمام عليه السلام يقول لهم: هذا ابني إمامكم، وهو خليفة الله في الأرض، وهو ابني وهذا هو الذي وعد الله سبحانه وتعالى أن يملأ الأرض به قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً.

وكما أشرنا أن الروايات في موضوع الولادة متواترة، ولعل هذا ما جعل العلماء يعتبرون أن الإيمان بولادة المهدي من ضروريات المذهب، ولا نريد القول أنه يجب الإيمان بولادته عبر طريق الروايات فقط، بل هناك طرق أخرى ولكن للإتصاف لا يمكن لأي باحث مهما كان اتجاهه الفكري أن ينكر هذا الكم الهائل من الروايات أو يشكك بها وإلا لا يثبت عندنا حجر على حجر كما يقال. وفي ختام البحث نذكر بعضاً من الروايات صحيحة الإسناد.

١- علي بن محمد عن حمدان القلانسي، قال: قُلْتُ لِلْعَمْرِيِّ: قَدْ مَضَى أَبُو مُحَمَّدٍ. فَقَالَ لِي: قَدْ مَضَى وَلَكِنْ قَدْ خَلَفَ فِيكُمْ مَنْ رَقَبْتُهُ مِثْلَ هَذِهِ ^(٤) وَأَشَارَ بِيَدِهِ ^(٥).

١ - الغيبة للطوسي، ج ٢، ص ٢٣٤.

٢ - (م. ن)، ج ٢٠٦، ص ٢٣٨.

٣ - م. س، ج ٢١٤، ص ٢٤٥.

٤ الرقبة العنق وقد يراد بها الشخص كله تسمية للشيء باسم جزئه كما صرحوا به، ولعل المراد بها المعنى الثاني والإشارة باليد لبيان طول قامته عليه السلام ويبعد أن يكون المراد بها تحديد طول عنقه أو حجمه والله أعلم.

ينظر: شرح أصول الكافي، مولوي محمد صالح المازندراني، ج ٦، ص ٢٢٧.

٥ الكافي، الشيخ الكليني، ج ١، باب في تسمية من رآه عليه السلام، ح ٤، ص ٣٢٩.

والسند صحيح، ورجاله ثقات.

٢- حدثنا محمد بن الحسن رحمته الله قال: حدثنا عبد الله بن جعفر الحميري قال: قلت لمحمد بن عثمان العمري رحمته الله: إني أسألك سؤال إبراهيم ربه جل جلاله حين قال له: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخَيِّ الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾^(١) فأخبرني عن صاحب هذا الأمر هل رآه؟ قال: نعم وله رقبة مثل ذي - وأشار بيده إلى عنقه -^(٢).

علما أن سند الرواية صحيح ورجاله من أجلاء ورموز الطائفة.

٣- وأخبرنا جماعة، عن أبي محمد هارون، عن محمد بن همام، عن عبد الله بن جعفر قال: حججنا في بعض السنين بعد مضي أبي محمد رحمته الله فدخلت على أحمد بن إسحاق بمدينة السلام فرأيت أبا عمرو عنده، فقلت إن هذا الشيخ وأشارت إلى أحمد بن إسحاق، وهو عندنا الثقة المرضي، حدثنا فيك بكيت وكيت، واقتصصت عليه ما تقدم يعني ما ذكرناه عنه من فضل أبي عمرو ومحلّه، وقلت: أنت الآن ممن لا يشك في قوله وصدقه فأسألك بحق الله وبحق الإمامين اللذين وثقاك هل رآيت ابن أبي محمد الذي هو صاحب الزمان عليه السلام؟ فبكى ثم قال: على أن لا تخبر بذلك أحداً وأنا حي، قلت: نعم. قال: قد رآيته عليه السلام وعنقه هكذا - يريد أنها أغلظ الرقاب حسناً وتاماً - قلت: فالاسم؟ قال: نهيتم عن هذا^(٣).

والسند صحيح، وقوي جداً رجاله من أعظم مشايخ الطائفة.

٤- حدثنا محمد بن موسى بن المتوكل رحمته الله قال: حدثنا عبد الله بن جعفر الحميري قال: سألت محمد بن عثمان العمري رحمته الله فقلت له: أ رأيت صاحب هذا

١ سورة البقرة، الآية ٢٦٠.

٢ كمال الدين وتام النعمة، الشيخ الصدوق، الباب الثالث والأربعون من شاهد القائم عليه السلام ورآه وكلمه، ح ٣،

ص ٤٣٥.

٣ - الغيبة، الشيخ الطوسي، ذكر أبي عمرو عثمان بن سعيد العمري، ح ٣١٦، ص ٣٥٥.

الأمر؟ فقال: نعم، وآخر عهدي به عند بيت الله الحرام، وهو يقول: "اللهم أنجز لي ما وعدتني"^(١).

والسند صحيح، رجاله ثقات أجلاء.

٥- وأخبرني جماعة، عن محمد بن علي بن الحسين قال: أخبرنا أبي ومحمد بن الحسن ومحمد بن موسى بن المتوكل، عن عبد الله بن جعفر الحميري، أنه قال سألت محمد بن عثمان رحمته الله فقلت له: رآية صاحب هذا الأمر؟ فقال: نعم، وآخر عهدي به عند بيت الله الحرام وهو يقول: اللهم أنجز لي ما وعدتني. قال محمد بن عثمان رحمته الله ورآية صلوات الله عليه متعلقاً بأستار الكعبة في المستجار وهو يقول: اللهم انتقم لي من أعدائك^(٢).

والسند صحيح، وقوي جداً، رجاله من أعاظم مشايخ الطائفة.

٦- حدثنا علي بن عبد الله الوراق، قال: حدثنا سعد بن عبد الله، عن أحمد ابن إسحاق بن سعد الأشعري قال: دخلت على أبي محمد الحسن بن علي عليه السلام وأنا أريد أن أسأله عن الخلف | من بعده، فقال لي مبتدئاً: يا أحمد بن إسحاق، إن الله تبارك وتعالى لم يخل الأرض منذ خلق آدم عليه السلام ولا يخلها إلى أن تقوم الساعة من حجة الله على خلقه، به يدفع البلاء عن أهل الأرض، وبه ينزل الغيث، وبه يخرج بركات الأرض.

قال: فقلت له: يا ابن رسول الله فمن الإمام والخليفة بعدك؟ فنهض عليه السلام مسرعاً فدخل البيت، ثم خرج وعلى عاتقه غلام، كأن وجهه القمر ليلة البدر من أبناء الثلاث

١- كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق، الباب الثالث والأربعون من شاهد القائم عليه السلام ورآه وكلمه، ح ٩، ص ٤٤٠.

٢- الغيبة، الشيخ الطوسي، فصل الكلام في ولادة صاحب الزمان عليه السلام وإثباتها بالدليل والأخبار، ح ٢٢٢، ص ٢٥١.

سنين، فقال: يا أحمد بن إسحاق، لولا كرامتك على الله عز وجل وعلى حججه ما عرضت عليك ابني هذا، إنه سمي رسول الله ﷺ وكنيته، الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً.

يا أحمد بن إسحاق، مثله في هذه الأمة مثل الخضر عليه السلام، ومثله مثل ذي القرنين، والله ليغيبن غيبة لا ينجو فيها من الهلكة إلا من ثبته الله عز وجل على القول بإمامته وفقه [فيها] للدعاء بتعجيل فرجه.

فقال أحمد بن إسحاق: فقلت له: يا مولاي فهل من علامة يطمئن إليها قلبي؟ فنطق الغلام ﷺ بلسان عربي فصيح فقال: أنا بقية الله في أرضه، والمنتقم من أعدائه، فلا تطلب أثراً بعد عين يا أحمد بن إسحاق.

فقال أحمد بن إسحاق: فخرجت مسروراً فرحاً، فلما كان من الغد عدت إليه، فقلت له: يا ابن رسول الله، لقد عظم سروري بما مننت به علي، فما السنة الجارية فيه من الخضر وذي القرنين؟ فقال: طول الغيبة يا أحمد، قلت: يا ابن رسول الله، وإن غيبته لتطول؟ قال: إي وربي حتى يرجع عن هذا الأمر أكثر القائلين به، ولا يبقى إلا من أخذ الله عز وجل عهده لولايةنا، وكتب في قلبه الإيمان وأيده بروح منه.

يا أحمد بن إسحاق: هذا أمر من أمر الله، وسر من سر الله، وغيب من غيب الله، فخذ ما آتيتك واكتمه وكن من الشاكرين تكن معنا غداً في عليين^(١).

والحديث لا يخلو من صحة بناء على بعض المباني الرجالية.

وإذا دققنا في حديث ابن إسحاق فهناك عدة نقاط لا بد من الالتفات إليها:

١- تأكيد الإمام أن الأرض لا تخلو من حجة وإلا لساخت بأهلها كما هو مضمون

الكثير من الروايات التي بلغت حد التواتر المعنوي كما قلنا سابقاً.

١ - كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق، الباب الثامن والثلاثون ما أخبر به العسكري عليه السلام من وقوع

٢- إن الإمام وبسبب منزلة أحمد بن إسحاق أراه الإمام المهدي وهو ابن ثلاث سنوات.

٣- بين أن هناك أولياء لهم وجه شبه مع الإمام المهدي كالخضر عليه السلام بلحاظ طول حياته، وذي القرنين عليه السلام بلحاظ سعة حكومته ودولته.

٤- بين أن الغيبة هي امتحان للشيعة ولا يثبت على غيبته إلا القلة لأنه قال: "حتى يرجع عن هذا الأمر أكثر القائلين به ولا يبقى إلا من أخذ الله عز وجل عهده لولايته، وكتب في قلبه الإيمان وأيده بروح منه".

٥- بين الإمام العسكري فوائد وجود الإمام المهدي أي بقاءه على قيد الحياة على الشكل التالي:

○ يدفع البلاء عن أهل الأرض.

○ وبه ينزل الغيث.

○ وبه يخرج بركات الأرض.

كما جاءت الإشارة إلى ذلك في بعض مقاطع التوقيع المقدس الذي أرسله الإمام المهدي للشيخ المفيد: "إنا غير مهملين لمراعاتكم، ولا ناسين لذكركم، ولولا ذلك لنزل بكم اللاأواء أو اصطلمكم الأعداء"^(١).

٦- إن الإمام سيغيب غيبة طويلة يحار فيها الشيعة ولا ينجو من ذلك إلا من سبقت له من الله العناية وأكثر من الدعاء بتعجيل الفرج، "والله ليغيب غيبة لا ينجو فيها من الهلكة إلا من ثبته الله عز وجل على القول بإمامته وفقه [فيها] للدعاء بتعجيل فرجه". ولذا أكد العلماء الأبرار على الإكثار من دعاء الفرج للإمام المهدي: "اللَّهُمَّ كُنْ لَوْلِيِّكَ

١ - الاحتجاج، الشيخ الطبرسي، ج ٢، ترجمة (الشيخ المفيد) محمد بن محمد بن النعمان (أبي عبد الله) المعروف بابن المعلم، ص ٣٢٣.

فُلَانٌ بَيْنَ فُلَانٍ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ وَفِي كُلِّ سَاعَةٍ وَلِيًّا وَحَافِظًا وَنَاصِرًا وَدَلِيلًا وَقَاعِدًا وَعَوْنًا وَعَيْنًا حَتَّى تُسْكِنَهُ أَرْضَكَ طَوْعًا وَتُمَتِّعَهُ فِيهَا طَوِيلًا»^(١).

ونختم هذه المقالة بالدعاء لإمامنا المنتظر عليه السلام كما علمنا الإمام الرضا عليه السلام، فيما رواه عنه ابن مقاتل، قال: قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: أي شيء تقولون في قنوت صلاة الجمعة؟ قال: قلت: ما تقول الناس. قال: لا ثقل كما يقولون، ولكن قل: اللهم أصلح عبدك وخليفتك بما أصلحت به أنبياءك ورسلك، وحُفَّةً بملائكتك وأيده بروح القدس من عندك، واسلكه من بين يديه ومن خلفه رصداً يحفظونه من كل سوء، وأبدله من بعد خوفه أمناً، يعبدك لا يشرك بك شيئاً، ولا تجعل لأحد من خلقك على وليك سلطاناً، وائذن له في جهاد عدوك وعدوه واجعلني من أنصاره إنك على كل شيء قدير^(٢).



١- الكافي، الشيخ الكليني، ج ٤، باب الدعاء في العشر الأواخر من شهر رمضان، ح ٤، ص ١٦٢.

٢- الشيخ الطوسي: مصباح المتعبد، بيروت، مؤسسة فقه الشيعة، ١٤١١ - ١٩٩١ م، ط ١، ص ٣٦٧.

دعوة



المختبر الوطني للأدوية

باسمه تعالى

المؤتمر الدولي «أبي طالب عليه السلام» حامي الرسول الأعظم ﷺ

[دعوة علمية]

إن أبا طالب بن عبدالمطلب عليه السلام هو عم الرسول الأكرم ﷺ وأبو أمير المؤمنين علي عليه السلام وكان أكبر مناصر للإسلام والنبى ﷺ في أوائل البعثة.

تاريخ حياته مفعم بالمفاخر والإيثار والإخلاص وقلما نجد نظيراً له، وقد تولى في حياته منصبى الرفادة (ضيافة الحجاج) والسقاية (إيصال الماء إلى الحجيج) وكان ملجأً للمساكين ومعيماً للمحرومين، إلا أن التضحية والصمود في سبيل الرسالة النبوية تعدّ من ألمع مواقف حياته. ورغم كل ذلك، غطى غبار التهم والغفلة أو النسيان هذه المفاخر. هذا والمبادرات الفردية طوال القرون الماضية في ما تخصّ هذه الشخصية العظيمة، لم تتجاوز قضية الإيمان لدى أبي طالب عليه السلام وقد أهملوا جوانب أخرى من حياته كالجایا الأخلاقية والنضال الاجتماعي والتراث الأدبي وغيرها.

لهذا وما أقيم مؤتمر عالمي يتولى جمع وتدوين ونشر الآثار والمقالات التي تتعلق بالجوانب المختلفة من حياة أبي طالب عليه السلام من أصحاب الفكر والنخب في أرجاء العالم.

إن المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام بوصفه منظمة دولية غير حكومية تعنى بنشر المعارف القرآنية وتقديم الدعم الفكري والثقافي لأتباع أهل البيت عليه السلام وبالتعاون مع المنظمات المسيرة، يقيم مؤتمراً دولياً تحت عنوان "أبو طالب عليه السلام حامي الرسول الأعظم ﷺ".

وانطلاقاً من ذلك، ندعوا الباحثين كافة في مجال التاريخ، والسيرة، والعقائد، والكلام، والرجال، ومعرفة الكتاب (بيلوجرافيا) والأدب العربي وغيرها لإرسال مقالاتهم العلمية في إحدى المحاور الأربعة المذكورة في الدعوة (أو أي موضوع آخر يوافق هدف هذا المؤتمر) فيتعاونوا مع مقيمي المؤتمر في رفع الظلام التاريخية في حق شيخ الأباطح أبي طالب عليه السلام.

الف: التأريخ والسيرة

١. نسب أبي طالب عليه السلام وعشيرته ٢. أبو طالب عليه السلام قبل المبعث ٣. الرحلات التجارية لأبي طالب عليه السلام ٤. أبو طالب عليه السلام وكفالة الرسول ﷺ؛ الأسباب والعوامل ٥. أبو طالب ورعايته للرسول ﷺ (في الطفولة - فترة النبوة) ٦. أبو طالب عليه السلام وزواج الرسول ﷺ ٧. نقد الأخبار التاريخية حول أبي طالب عليه السلام ٨. الطالبيون غير العلويين في التاريخ: (عصر النبي - عصر العلويين - واقعة كربلاء - عصر الأمويين - عصر العباسيين) ٩. أبو طالب عليه السلام من وجهة نظر الآخرين: (النبي وآل بيته عليه السلام - الشيعة - أهل السنة - المستشرقون) ١٠. دور الأمويين والعباسيين في تشويه شخصية أبي طالب عليه السلام ١١. دور الأسرة الزبيرية في تشويه شخصية أبي طالب عليه السلام ١٢. دور محبة أبي طالب عليه السلام في أحداث تاريخ الإسلام ١٣. إسلام أبي طالب عليه السلام ١٤. توثيق تراث أبي طالب عليه السلام

تأريخياً ١٥. التحليل التاريخي لأشعار أبي طالب عليه السلام ١٦. السيرة الاجتماعية لأبي طالب عليه السلام ١٧. دروس حياة أبي طالب عليه السلام للمجتمع المعاصر

ب : الكلام والعقائد

١. دراسة أسس إيمان أبي طالب عليه السلام ٢. دراسة شبه المخالفين والرد الجامع والكامل عليهم ٣. دعم أبي طالب عليه السلام للنبي الأكرم عليه السلام ٤. دراسة خطابات أبي طالب عليه السلام في المناسبات المختلفة دعماً للإسلام والنبي ﷺ ٥. أحاديث وشهادات النبي الأكرم عليه السلام والأئمة المعصومين عليه السلام في حق أبي طالب عليه السلام ٦. دراسة أسباب ودلائل إخفاء إيمان أبي طالب عليه السلام من جانب الآخرين ومن جانبه ٧. مناقشة الروايات والأحاديث التي توجه تهمة الكفر والشرك والوثنية إليه من حيث السند والنص ٨. دراسة كلام الصحابة والتابعين حول إيمان أبي طالب عليه السلام.

ج : الشعر والأدب

* الموضوعات اللغوية (١). الدراسة اللغوية لشعر وأدب أبي طالب عليه السلام ٢. فقه اللغة في أشعار أبي طالب عليه السلام ٣. فقه اللغة في خطب ووصايا أبي طالب عليه السلام ٤. دراسة أسلوبية في أشعار أبي طالب عليه السلام ٥. التناص في أشعار أبي طالب وأدبه ٦. دراسة ونقد ما ترجم إلى اللغات الأخرى من شعر ونثر أبي طالب عليه السلام ٧. التجزئة (المبنى الصرفي) والتركيب (الموقع النحوي) في كلمات وأشعار أبي طالب عليه السلام ٨. التجزئة (المبنى الصرفي) والتركيب (الموقع النحوي) في كلمات وخطب ووصايا أبي طالب عليه السلام

* الموضوعات الأدبية (٩). التأثير الأدبي لأبي طالب عليه السلام على الشعر العربي والشعراء العرب ١٠. فنون وأغراض أشعار أبي طالب عليه السلام ١١. دراسة الوجوه البلاغية والأدبية لشعر أبي طالب عليه السلام ١٢. الخيال والصور الشعرية في شعر أبي طالب عليه السلام ١٣. الاستشهاد بشعر أبي طالب عليه السلام في تفسير وإيضاح المفردات في القرآن الكريم

* محتوى الشعر والأدب (١٤). الإيمان والاعتقاد في شعر أبي طالب عليه السلام ١٥. الإيمان والاعتقاد في خطب ووصايا أبي طالب عليه السلام ١٦. رسول الله ﷺ في شعر أبي طالب عليه السلام ١٧. رسول الله ﷺ في خطب ووصايا أبي طالب عليه السلام

* أبو طالب عليه السلام في الشعر والأدب (١٨). أبو طالب في الشعر والأدب الفارسي ١٩. أبو طالب في الشعر والأدب العربي ٢٠. أبو طالب عليه السلام في شعر وأدب اللغات الأخرى (الأردوية، والتركية، والإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، و...) ٢١. شعر أبي طالب عليه السلام ونثره من منظار الآخرين.

د : المصنفات والمصنفون

* الببليوجرافيا (معرفة الكتب والمصادر) (١). ببليوجرافيا أبي طالب عليه السلام (تاريخ الدراسات حول أبي طالب عليه السلام) ٢. الببليوجرافيا الوصفية في أبي طالب عليه السلام (معرفة المصادر) ٣. تصنيف الأثار المدونة حول أبي طالب عليه السلام ٤. دراسة الكتب المخطوطة في ديوان أبي طالب عليه السلام ٥. الشروح

والترجمات لديوان أبي طالب عليه السلام ٦. رواية ورجال أشعار أبي طالب عليه السلام ٧. رواية ورجال خطب ووصايا أبي طالب عليه السلام ٨. دراسة ونقد النسخ المصححة والمحقة لأشعار أبي طالب عليه السلام (* الكتاب (٩. سيرة من ألفوا وصنفوا حول أبي طالب عليه السلام ١٠. توثيق وتضعيف القائلين بإيمان أبي طالب عليه السلام أو التوقف عنه).
تتمّ أرشفة المؤتمر الدولي لأبي طالب عليه السلام: (حامي الرسول الأعظم عليه السلام من قبل مركز الاستشهاد المرجعي لعلوم العالم الإسلامي (ISC) ويقوم المركز باعتبار المقالات بدرجة علمية محكمة بعد قبولها في المؤتمر).

الفرصة المحددة لإرسال المشاركات:

إرسال ملخص المقال: أيار (مايو) ٢٠١٩

إرسال أصل المقال: تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠١٩

إقامة المؤتمر: آذار (مارس) ٢٠٢٠

الاتصال بالأمانة العامة للمؤتمر:

العنوان: قم، ابتداء شارع جمهوری اسلامی،

المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام، الطابق الثالث

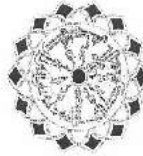
الرقم البريدي: ٣٧١٦٦٨٦٤١١

الهاتف: ٠٠٩٨-٢٥-٣٢١٣١٤١٧

رقم الفاكس: ٠٠٩٨-٢٥-٣٢١٣١٣٥٠

الموقع: www.abutalib-conf.ir

البريد الإلكتروني: abutalib.conf@gmail.com



The ahl-ul Bayt (a)
World Assembly

RISALATUTH - THAQALAYN

A General Islamic Periodical

Vol . 22, No . 79 . 2019